

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المغرب الأقصى في القرن الحادي عشر الهجري

بقلم الدكتور الشيخ عبد الحميد محمد طيف

مدير الدراسات
ونائب عميد الكلية

تمهيد :

لقد شاءت الأقدار أن أكون ضيفا على المغرب الأقصى مدة ثمان سنوات ساهمت فيها ، ما استطعت ، في خدمة الثقافة العربية هناك ، واستفدت بما أتيت لي مما أمدني به الأخوان المغاربة من خدمات علمية ، مكتنتني من كشف ما كنت ملما به إلاما خاطفا مما عرفت به البلاد المغربية من أمجاد حضارية وبطولات جهادية ، وإمكانات علمية في شتى الميادين ، ومما يتصل خصوصا بالجانبين : الشرعي واللغوي من الثقافة الإسلامية هناك .

ولقد كان وجود أساتذة أجلاء من أمثال السادة الأفاضل : عبد الله الرجراجي وإبراهيم الكتاني ، ومحمد المنوني وغيرهم ، على رأس بعض المصالح الثقافية التي من أهمها الخزانة العامة بالرباط بقسميها : قسم المطبوعات وقسم الوثائق والمخطوطات ، موفرا لي حظا كبيرا .

وكان كل ذلك مكرومة من المكرمات التي تفضل بها علي أستاذي العظيم ، من نزلني منه منزلة الابن الذي لا يفوته منه حذب ولا رعاية ، العلامة الراحل ، المغفور له ، فضيلة أجهيد ، فقيه الثقافة الإسلامية ،

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور برد الله ثراه ؛ إذ أشار على - وإشارته أمر - بالرحيل إلى المغرب الأقصى لمواصلة ما نصحني بالسعي وراءه ، والانكباب على ما يزيد المنتسب إليه والبالغ شأوه شرفا وعلو منزلة (1) .

فساعدني ذلك على الاتصال بالأساتذة الكرام الذين تقدم ذكر البعض منهم ، والذين لم يخلوا على بما لديهم من معرفة واسعة ، وتجربة موفقة ، وخبرة غزيرة بما اطلعوا عليه وتعرفوا إليه من التراث المغربي التالذ .

وإذا بالأستاذ السيد إبراهيم الكتاني يتفضل على بإحاطتي على مفعرة المغرب في عصره ، الأديب الفقيه المتصوف ، الإمام الشيخ أبي علي اليوسي ، الذي وجدنا له من الآثار ما يساعد على الكشف على كثير من جوانب المجتمع المغربي في القرن الحادي عشر الهجري .

وإذا بنا نقع على ديوانه الشعري الذي اتخذناه موضوع الأطروحة لنيل درجة الدكتوراه بإشراف أستاذي الجليل الدكتور احسان النص بكنية الآداب من الجامعة الجزائرية العريقة في القدم ، والمعروفة بأمجادها ، وتالذ خدماتها للمعارف الإنسانية .

وبجانب هذا الديوان وقفت على كتاب المحاضرات له . فوجدته كتابا قد ضم بين دفتيه المغرب الأقصى في كثير من ملامحه ، واحتوى على كتر ثمين من المادة الخام التي تساعد على ثراء الثقافة الإسلامية بما اشتمل عليه من أحوال عصره مما أثار في نفسي الرغبة في نيل شرف القيام بهذا الكشف وإبراز مآثره إلى حيز الوجود .

حتى إذا تم لي كريم الإنتساب إلى الجامعة التونسية ، بانتظامي في سلك أساتذة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين (2) ، فمشاركتي في مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية منها ، اتسع لي المجال

(1) ودامت هذه المرحلة من أواسط سبتمبر 1964 الى موفى سبتمبر 1972 .

(2) وذلك في غرة اكتوبر 1972 .

إلى إبراز ما كان حلما من الأحلام متراقصا في حيز القوة إلى مرحلة الاختمار فالفعل في دنيا الإنتاج والتأليف .

فاتخذت من كتاب المحاضرات هذا منطلقا لدراسة البلاد المغربية وقتئذ من جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ، مع ما عرفه المغرب من حركة طرقية وصوفية مستفيدا من الكتاب ما دعاني إلى التوسع النسبي فيما كان فيه خاطفا من الإشارات التي اشتمل عليها هذا التراث بمراجعة المضان في غيره . وهكذا أجدني أنتهي من جولتي داخل الكتاب إلى الوفاء بهذا البحث الذي دعاني لتبنيه للقيام به مركز الدراسات السابق الذكر والذي أقدم به اليوم وقد احتضنته « النشرة العلمية » بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين لإذاعته ونشره على حلقات إن شاء الله .

فكان أكيدا بعد كل ذلك أن أعرف بصاحب الكتاب الذي كان له الفضل الأول في ضبط هذه المعلومات ونقلها إلينا بما ساعدنا على استخلاصه منها والتوسع فيها ، محافظا بذلك على تراث قديم في مرحلة من مراحل الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد جليلة القدر عندنا وعزيزة علينا ، من العالم الإسلامي قديما وحديثا .

كما كان من الأكيد أيضا أن نستهل دراستنا هذه بالتعريف بالكتاب تعريفا موسعا . فنعمل على تلخيصه وعرض أهم ما جاء فيه . وذلك حتى يتضح أمره ، ويتيسر للمطالع الإلمام به والإطلاع على نبذة هامة منه . فتكون له بذلك صورة واضحة المعالم بعض الشيء أمامه وأمام كل من يقف على عملنا هذا ، خصوصا وأن الكتاب في عداد المخطوطات ، إذ لم تكن له إلا طبعة فاسية قديمة . فيما نعلم ، أخذت تختفي معالمها في الأسواق ، علاوة على عدم توفرها على ما يجعلها في عداد المطبوعات العلمية (1) .

(1) إن هذا العمل قد أنجز منذ أكثر من عشر سنوات من هذا العام تقريبا وسنعمل على نشره تباعا في حلقتين - إن أمكن - في النشرة العلمية إن شاء الله .

وبهذا الذي نستعرضه من محتوى كتاب المحاضرات نكون قد أتينا على ملخص الكتاب الذي ضم قرابة سبع وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير ، والذي جعلناه منطلقا لبحثنا هذا ، مستوحين منه ما اجتهدنا في التعريف به توضيحا وتحليلا واستنتاجا ، متعرفين إليه من خلاله بمساعدة بعض المصادر التي مكنتنا من التوسع في بيان الحالات التي كان عليها المغرب في ذلك العصر سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، مع الوقوف على ما اشتهر به المغرب الأقصى من انتشار حركة الرباطات أولا ، وحركة الطرقية والزوايا ثانيا . وذلك ما سلمنا إلى طرق موضوع حركة التصوف داخل البلاد ، مزيلين لها بما عرف به اليوسي من انتساب لتلك الحركة ومواكبة لمسيرتها في عقلية معينة وفهم مخصوص وموقف محدد .

وبذلك ينحصر عملنا في الفصول التالية : حياة اليوسي ، كتاب المحاضرات ، المغرب السياسي ، المغرب الاجتماعي ، المغرب الثقافي ، المغرب الصوفي ، اليوسي المتصوف (1) .

ولعلنا نكون قد قاربنا التوفية بما هدفنا إليه بعملنا هذا الذي لا نشك في اتسامه بما يتسم به العمل الانساني عادة من النقص والقصور ، وما يقع فيه كثيرا من الأخطاء المنجرة عن الإجهاد الشخصي الذي هو مظنة الاختلاف والوقوع موقع الحرج .

ومهما يكن من الأمر فإننا نرجو مخلصين أن يساعدنا بالتنبيه على الاصلاح ، كل من وقف على خلافه ، شاكرين له فضله ، متوجهين إلى المولى العلي القدير أن يمنّ علينا باجتناّب الزلل ، وأن يأخذ بيدنا لمواصلة السير والاسهام في العمل العلمي ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . والله الموفق ومنه الطوق والعون .

(1) في هذه الحلقة انتهينا إلى « المغرب الاجتماعي » بدخول الغاية . والحلقة الثانية ستكفل بالبقية إن شاء الله .

حياة اليوسي (1)

مولده ونشأته :

فيما بين ملوية العليا وأطراف جبل العياشي (1) ، وفي أواسط القرن الحادي عشر هجرى الموافق للثلث الأول من القرن السابع عشر ميلاديا ، عرف الحياة فتي بربري بلدوي ، ينتسب إلى شلوح ما بين أقصايي الشرفة (3) وصفرو ، تبدو عليه مخائل الذكاء الذي غطته سحابة من الخجل والحياء (4) كادت تغطي ذبالته ، وتبقى صاحبه يحيا مغمورا ضمن أبناء قومه الكثيرين الذين عاشوا فلم يثمروا ، وماتوا ولم يخلفوا ، ذلك هو أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، نسبة إلى جده الأعلى يوسف بسقوط الفاء ، على ما هو معروف عنهم في لغتهم (5) .

ولد هذا البدوي حوالي سنة (1040 هـ / 1631 م) ، وسط عائلة تحيا على عرق الجبين وبالمحصول الفلاحي المحدود الذي يكد وراءه عائلها مسعود ، الرجل الأمي المتدين الذي نحلو له صحة الفقهاء والمتسبين إلى الشريعة والمعروفين بالخير والصلاح . فانعكست آثار هذه الحياة وهذه النشأة على هذا الفتى حتى ورث من والده تلك السذاجة والبساطة في

(1) لزيادة التوسع في حياة الرجل راجع تقديم ديوان اليوسي للمؤلف .

(2) جاك بارك : اليوسي : ص 8 وما بعدها ؛ تقديم ديوان اليوسي لصاحب البحث : ص 45 .

(3) تقديم ديوان اليوسي : ص 44 .

(4) الفهرست اليوسي : ص 131 .

(5) المحاضرات : ص 12 .

اندفاع نحو الحقيقة والشرعة ، وحب للصالحين ، وشدّة للرجال إلى مزاراتهم .

وهذا الذي ذكرناه عن الوالد هو نفس ما صرح به الولد عن والده وهو يتحدث عن نفسه في ترجمة ذاتية جاءت ضمن أحاديثه الأولى في كتابه المحاضرات لما قال : « لاني أرجو أن أكون - إن شاء الله - رؤيا والدي ودعوة أستاذي . أما رؤيا الوالد فاعلم أن أبي مع كونه رجلا أميا كان رجلا متدينا ، مخالطا لأهل الخير ، محبا للصالحين ، زوارا لهم . وكان أعطي الرؤيا الصادقة ، وأعطي عبارتها » (1) .

ولعل الرؤيا التي تواتر الحديث عنها بين العشيرة (2) كان لها مع غيرها من العوامل التي من أهمها يتمه المبكر من جهة الأم (3) ، ثم ارتباطه في فتوته وفجر شبابه بأستاذه الأول أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الحداد (4) أثر بالغ في نفسه الفتية حتى غرست فيه حبا مفرطا في الطموح وجد في الفتى استعدادا ، وقلبا خاليا فتمكن . كما غدت فيه هاتيك العوامل شوقا كبيرا لتحقيق رؤيا أبيه بوعي أو بغير وعي . وذلك لما عرف للحوادث والظروف التي تمر بالكائن البشري وتحيط به من التأثير في السلوك والتصرف والتكوين ، خصوصا عندما تجد فيه منبتا خصبا ورعاية ناشطة ، واستعدادا فطريا .

فيتمه قد أفقده ذلك الحنان الغير المعتدل الذي يعرفه الأطفال عادة في أمهاتهم . ورؤيا والده قد بعث فيه النخوة والثقة بالنفس ، والاندفاع وراء حلم كبير ترافق في نظرات والده من ناحية ، وتحدثت به العشيرة من ناحية أخرى ، فاحتضنته الإرادة من الولد لتحوّله إلى حقيقة ثابتة فيصير بعد أن كان خاما من الخامات ، أو مجرد طموح تتحدث به النفس ،

(1) المحاضرات : ص 29 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) الفهرست : ص 131 .

(4) نفس المصدر السابق .

مادة صالحة للحياة ، وهدفا يحتل مكانه في الوجود ، وكائنا قد برز من حيز القوة إلى عالم الفعل . وأما صحبة الأستاذ المتصوف المكثّر لزيارة الصالحين ، والمتوفر على المدد الصوفي بما فيه من سلوك واستقامة ، ومن مآثر للتصوف وارتياح للطريق وأهلها فانها قد استطاعت أن تنجب في الطالب الصغير المرافق له محبة وتعلقا بهذا الجو أخذ ينمو غرسه فيه شيئا فشيئا حتى تهيأت له الأسباب ليكون عنصرا قويا من عناصر أرباب القلوب يجمع ما بين علمي الحقيقة والشرعية .

فلذا أضفنا إلى كل هذا ما حدثه به أبوه عند أوبته هو من السفر وراء العلم التي لمس عندها حرارة العطف الأبوي والمحبة والأمل البعيد عند الوالد في ولده هذا - وذلك بعد غيبة هذا الأخير التي ارتحل فيها عنه طلبا للعلم إلى ناحية السوس الأقصى (1) - تصورنا المجموعة الهامة والرئيسية من العوامل المبكرة الأولى التي قد تكون الزراعة الأصلية للرغبة الملحة في الطفل لتحقيق الآمال العريضة والغايات البعيدة التي تعلقها بصفة عامة أسرة هذا الشاب عليه ، وعلى رأسها والده الذي سبق الحديث عنه ، والتي تبلورت بصفة خاصة في أبي علي هذا وقد أحس بها احساسا صادقا لا غموض فيه فزادته حماسا ، وزودته بطاقة خلاقة ظهرت آثارها فيما بعد ، في تلك السفرات الطويلة النشيطة لطلب العلم في أعوام الستين والألف هجرية بالخصوص (2) .

والظاهر أن هذا فقط هو الذي أثار في اليوسي استحضر الأطوار التي مر بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في شبابه المبكر كما وردت عنه عليه الصلاة والسلام ، فأثبتها الرجل في كتابه الذي نستقي منه هذه الملاحظات ، وهو يتحدث عن نفسه وشبابه ونسبه (3) ، منها إلى أن ذلك لم يكن نزوعا منه قصدا إلى المحاكاة والمزاحمة ، وإنما الحديث ذو

(1) المحاضرات : ص 29 .

(2) المحاضرات : ص 28 . 29 . 39 . 47 . 141 ؛ طلمة المشتري لأحمد الناصري السلاوي : ص 153 .

(3) المحاضرات : ص 31 .

شجون يأخذ بعضه برقاب بعض ، محاولا بهذا الاحتراس ردا لتهمة صدق حدسه في توقع إثارته ضده من أن هذا الصنيع منه لا يعد إلا من قبيل الغرور الذي طفق البعض ممن كتبوا عنه يلصقونه به وينسبونه إليه كلما لاحت منه عبارات يشتم منها التعالي والكبرياء ، وهو يتحدث عن نفسه ويترجم لها (1) .

دِرَاسَتُهُ :

وجريا على ما هو مألوف عند أهل البوادي عموما ، وعلى عادة أقرانه من أطفال القرية خصوصا ، أرسل به والدّه إلى الكتاب لتلاوة القرآن وحفظه ، ولدراسة الأمهات من العربية والمبادئ الفقهية حتى انتهى إلى سورة « والمرسلات » (2) . فتوجه مع أستاذه أبي إسحاق إبراهيم اليوسفي إلى سحلماسة أين ختم القرآن العظيم ، وحضر دروسا في مبادئ اللغة العربية . ثم عاد إلى آيت يوسي رفقة الأستاذ المذكور ، وتوجه صحبته بعد ذلك إلى المزارات ، فقاما معا بزيارة الصالحين . حتى تهيأ له بمساعدة مطالعته تذوق حلاوة المآثر الصوفية ومحبة الطريقة وأهلها (3) .

ثم انطلق اليوسي متجولا في الأقاليم والدواني من البلاد باحثا عن العلم ومترودا من المعرفة في سن لا تبلغ العشرين ، وفي زمن لا يتجاوز سنة (1060 / 1650) . وهي السنة التي عرفت منه نشاطا منقطع النظير في الكرع من المعرفة ، والتسلح بالعلم ، والاطلاع على أسرارهِ ، والتهيؤ لأن يناظر أستاذ الدلاء الشيخ محمد المرباط الدلاني ويتفوق عليه ، ويسكته في المناظرة التي دارت بينهما أول عهد إقامته في الزاوية الدلانية والتي صرح اليوسي عقبها قائلا : « فلولا معرفة المقامات واستحضار هذا البيت لأخجلني عوض ما كنت أخجلته » (4) .

(1) الدر المنضد الفاخر لأبي عبد الله محمد الكلالي الحسني : (ورقة 217 أ) وما بعدها .

(2) الفهرست : ص 132 .

(3) الفهرست : ص 131 .

(4) المحاضرات : ص 141 .

فلقد زار في هذه الجولة بلاد الساحل (1) ، وسوس الأقصى ، والصحراء ومراكش ، ودكالة ، وبلاد رجرجة ، وجبل هسكورة ، حتى انتهى إلى إلبليغ وأقام بها ، وبلغ خبره إلى أميرها (2) فعينه هذا الأخير أستاذا في تارودانت التي لم تطل إقامته بها حتى غادرها إلى درعة عندما بلغه خبر شيخ زاوية تمغروت وما هو عليه من الجمع بين الشريعة والحقيقة ، ومن الاستقامة والتبريز والصلاح ، وهو الشيخ محمد (بفتح الميم) ابن ناصر الدرعي . فيقيم عند هذا الأخير زمنا يفارقه بعده إلى جبل دمنات في اتجاهه إلى الزاوية الدلائية ، أين طاب له المقام . فاستقر بها نهائيا طالبا ومتخرجا ، أستاذا ومرشدا ، متزوجا ومنجبا (3) .

وإذا كانت سفرته لطلب العلم قد أتاحت له فرصة التجول في كثير من المناطق المغربية والمراكز العلمية كما أسلفنا ، ومكنته من التنقل والاتصال والاطلاع والتعرف ، وهي فرص توحى غالبا بما تتوجه إليه أذهان الدارسين لمثل كل نشاط حثيث مملوء حركية وحزما وعزما ، من توقع وفرة الحصيلة ، وغزارة المادة ، وكثرة الاطلاع ، وتعدد الفنون وأبوابها ، وتقصى الكتب والأبحاث ، وتنوع المحفوظات ، فان الذي حصل لأبي علي اليوسي - حسبما أخبرنا به هو - قد عطل هذا المؤلف الذي يتبادر إلى الأذهان وهي تصدر أحكامها على الدارسين المتقنين الجوابين أمثال صاحب المحاضرات ، كما أفسد على العادة هذا القانون أيضا ، وعطل على تلك المقدمات المستمدة من تلك العادات نتائجها الممكنة غالبا والمتوقعة عادة من غزارة ما يتجمع في جراب الجواله وكثرة ما يأتي به حصاد الرحالة . فكانت الحصيلة من هذه السفرات غير المؤلف عادة ، وهو ما أثبتته ونبه إليه أبو علي اليوسي نفسه في ترجمته الذاتية مما لا أخال الرجل الا صادقا فيه ، غير مبالغ في

(1) الساحل : عبارة عن المنطقة الجنوبية الغربية الممتدة من أكدير إلى وادي نول .

انظر الزاوية الدلائية لمحمد حجي : ص 138 .

(2) صفوة من انتشار لمحمد الصغير الأفراني : ص 205 وما بعدها . الاعلام لغير الدين

الزركلي : ج 2 . ص 237 . تقديم ديوان اليوسي : ص 48 .

(3) الزاوية الدلائية : ص 98 .

مضمونه ، ولا مفتر بفحواه ، ولا متبجح بما جاء فيه . وجاءت الأيام لتكشف عن صدق الرجل فيما قاله عن نفسه ، وتؤكد أنه قد خرج على مألوف قومه في عصره ، فمال إلى المعقول وإلى التصرف والدراية ، ميلان غيره إلى المنقول والتزام النصوص ، والوقوف عند أقوال المتون وشروحها والتزام الرواية ، واستحضار المحفوظ من الفنون ، والاعتماد عليه ، وعدم الارتياح إلى ما سواه ، بل وعدم الاعتداد بعلم من لم يعزز مقاله في العلم بنصوص منقولة ، ومتون محفوظة وأقوال للفحول والأئمة مضبوطة عنهم ومأثورة .

فلقد تحدث لنا اليوسي عن نفسه حديثا عجبا . وذكر عن دراسته للعلم ما لم يكن منتظرا ولا متوقعا من رجل عرف بأسفاره الكثيرة ، وتنقلاته واتصالاته العديدة في طلب العلم . فأوضح عن هذه الدراسة « أنها لم تعتمد على كثرة الفنون . وإنما هي نظرات خاطفة في التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة والنحو والصرف والبلاغة والمنطق » (1) . كما تحدث في موضع آخر على قراءته هذه فبين أنها لم تعتمد على كثرة الكتب والفنون ، وإنما هي موهبة وفتح من الله تعالى ساعده على الانتهاء إلى ما انتهى إليه كما قال هو عن نفسه : « واعلم أن قراءتي كلها أو جلها كانت فتحا ربانيا . فكنت رزقت - والله الحمد والمنة والفضل والطول - قريحة وقادة ، وعزمة ماضية ، وفطنة ذكية . فكنت بأدنى سماع وأدنى أخذ ينفعني الله تعالى . فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله علي في جميعه فتحا ظاهرا ، وأبلغ فيه بحمد الله ما لم يبلغه من سمعته منه . ورب كتاب لم أسمعه أصلا غير أن سماع البعض في كل فن صار بذرا للفتح ، وتنميما لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشائخ في العلوم الرسمية . ومما ذكرنا ما ترى مما مر من قلة سماع الكتب والفنون . فلا يستوحش من رأى ذلك ويظن أن الربح يكون أبدا على قدر رأس المال . كلا ، فقد يبلغ الدرهم ألف مثقال . وما ذلك على الله بعزيز » (2) .

(1) تقديم ديوان اليوسي : ص 48 .

(2) الفهرست : ص 156 وما بعدها .

بقية أخباره :

ولعل هذه الموهبة الذهنية ، والاستعداد العقلي ، والمؤهلات الشخصية ، مع ما عرف به أهل فاس آنئذ من النظر شذرا إلى كل دخيل عليهم يستأنس منه التبريز والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالذات ، ومع ما اشتهروا به من تحكم الطبقية فيهم ، والتمييز العنصري المتولد عن رعاية الأنساب واعتبارها أهم اعتبار (1) ، هي التي خلقت له تلك المضايقات والمتاعب التي شاهدها في عاصمة الأدارسة عندما أخذه لها المولى رشيد العلوي يوم أن تم له الإستيلاء على الزاوية الدلائية سنة (1079 / 1668) ، خصوصا وأن الرجل قد قضى عشرين سنة في هذه الزاوية أستاذا متصدرا للتدريس ، له حظوة بالغة عند أهلها سلطة وشيوخا وطلابا وعامة . فاستكمل بذلك عناصره الشخصية ، مستفيدا من تلك التجربة الطويلة التي مكنته من الخبرة العلمية ، وأهله للارتقاء إلى مصاف أهل الحل والعقد في الميدان الثقافي تبجرا في الشريعة ، وغوصا على درر الحقيقة ، وتصرفا في اللغة والأدب استهلاكاً واستنتاجا ، ووهبته قدرة فائقة على حل ما يستعصي حله في العلوم النظرية ، وفي العلوم العقلية والنقلية على السواء .

ومن أجل تلك المضايقات التي أفلقت - وهو يقيم لإقامته الأولى بفاس - نراه لا يطيل المكوث فيها . فيخرج منها بعد أربع سنوات فقط من وصوله إليها ، متجها إلى زيارة صلحاء الساحل ، موليا وجهه شطر مقام أبي سلهم . ثم يتخطى هذا المقام ليزور من بعده ضريح ادريس بن عبد الله زرهون . وذلك سنة (1080 / 1669) . ثم يعود إليها ويقيم فيها على مضض استجابة لرغبة من لا يعصي له أمرا ، وهو السلطان اسماعيل ، واستمرارا لحكم سابق من أخيه المولى رشيد عندما خرب الزاوية الدلائية ، وانتظارا للفرصة التي تساعده على الخروج دون أن يجد المنافسون له منه ما يسعون به عند السلطان من أنه نفور وحنين وتبببت . ولذلك نجده يتخذ تقيته لمبارحتها

(1) مجلة دعوة الحق المغربية : سن 7 ، عد 3 ، ص 20 - 28 .

تمرد أهل فاس على رجال السلطان اسماعيل وقتلهم لقائده زيدان (1) .
فيسارع حينئذ لمحاولة التخلص من شبه الإقامة الحبرية التي هو فيها ،
والتي سلطت عليه منذ اليوم الذي سلطت فيه على الدلائيين معه (2) ،
مستأذنا في مغادرتها من بيده الحول والطول في اتجاهه إلى زوايا الشمال ،
خصوصا منها زاوية عبد السلام بن مشيش و نغر تطوان (3) . ثم يعود
بعد ذلك من جدد إلى فاس عودة توديع لا استقرار ؛ اذ لا يلبث حتى
يفارقها نهائيا سنة (1083 / 1672) ، مارا في طريقه بجبل بني زروال
حاثا راحلته لتنتهي به إلى الشعب الذي بنى فيه دويراته ، أين حظ رحاله
وعزم على الاستقرار متخلصا من حياة المدينة ، مكتفيا بحياة البادية ،
يخدم الأرض حيناً ، ويعتمد العلم وطلابه حيناً آخر بما يلقيه عليهم من
دروس داخل الحلقات التي كان يقيمها بنفسه غير بعيد عن داره ، وبدافع
شخصي هناك ، لا يتغنى من وراء ذلك جزاء ولا شكورا (4) .

والظاهر أن هذا التصرف من أبي علي اليوسي قد جلب له الكثير
من المتاعب التي لم يقرأ لها حسابا ، أو قرأه ولكنه أخطأ التقدير فيه .
فتركه كالمستجير من الرمضاء بالنار . ذلك أن بعده عن فاس ، واستقراره
في البادية ، كان - فيما يبدو - من أجل ما لاقاه من العنت والمضايقات
في تلك المدينة كما بينا سابقا . فحاول التخلص والابتعاد والفرار بنفسه ،
والاشتغال بالعلم في كنف السكينة دونما مشاغبة ولا جلبة ولا متاعب ،
خصوصا بعدما تأكد من الكيد المفضوح والمبيت من طرف بعض العناصر
الذين اعتقد اليوسي أنهم يتآكلون حسدا منه ومن شهرته وطول باعه في
ميدان التدريس ، وهو البدوي الدخيل الذي لا يتوفر على عوامل الاحترام
والتقديم ، لا من حيث النسب الذي كان يلعب دورا هاما في حياة الفاسيين
آنئذ ، ولا من حيث وجاهة السلطة والحكم ، وهي الوجاهة التي لها مكانة

(1) المحاضرات : ص 92 .

(2) المحاضرات : ص 72 ؛ الزاوية الدلائية : ص 235 .

(3) تقديم ديوان اليوسي : ص 49 .

(4) رسالة اليوسي جوابا على رسالة المولى اسماعيل : ص 39 .

في القلوب عند الناس طمعا وخذلانا ، عند الفاسيين وغير الفاسيين من الناس . ومع هذه العوامل التي تعد في نظرهم عوامل التأخير لا التقديم ، فقد استطاع أبو علي هذا أن يغزوهم في عقر دارهم ، وأن ينال الشهرة التي جعلت الطلاب ينفضون من حول مشائخهم ليملاؤوا حلقات درسه معجبين به ، وبطريقته في الإملاء والشرح ، والتحليل والتعليل ، حتى صار حديث مجالسهم التي ما عهدت مثل ما عند هذا البربري الطارىء بعلمه وأسلوبه ، وما يتمتع به من عقل فياض ودراية لا عهد لهم بها عند مشائخهم القدامى . فكان من بعض هؤلاء الأخيرين وغيرهم من المفتونين بالأنانية وحب الشهرة ذلك الحسد الذي دفعهم دفعا إلى إثارة المقلقات النفسية والمضايقات الأدبية له ، وإلى بعث الوهم وزرع الوسواس في صدر السلطان عليه وعلى تصرفاته وأعماله ، خصوصا تلك التي تتصل بمهمته العلمية ونشاطه التربوي، حتى لا تتجدد في عصره وعلى دولته مأساة المرابطين مع الموحدين (1) . وهو الحسد الذي جعله يطنب الكلام عنه في نقشات مصدور عند حديثه (2) على ما كان بينه وبين الفاسيين الذين هجاهم بيتيه المشهورين اللذين أثبتهما في كتابه المحاضرات واللذين جاء فيهما :

ما أنصفت فاس ولا أعلمها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيب (3)

كل هذا أشار إليه اليوسي في رسالته التي جاءت جوابا عن رسالة السلطان اسماعيل العلوي الواردة منه عليه ، والتي يلومه فيها على ابتعاده عن الحضرة السلطانية ، باتخاذ البادية سكنا له عوضا عن الحضرة . فكان من اليوسي أن حرر له رسالة الجواب ، معددا له فيها كثيرا من الأسباب والدواعي التي أوجعته إلى ذلك الإختيار تفنيذا للمفتريات والأباطيل التي وسوس له بها شياطين الأئس ، والتي خلقت في السلطان الرية منه .

(1) النبوغ المغربي لعبد الله كنون : ج 1 ، ص 100 .

(2) المحاضرات : ص 72 وما بعدها .

(3) نفس المصدر السابق ؛ الديوان تحقيق صاحب الدراسة : ص 14 .

. ومما جاء في تلك الرسالة جزء هام شرح فيه اليوسي جانباً من أبلغ الجوانب التي تفيدنا - علاوة على ما أثار تعرض الرجل إليه فيها ، وهو الصراع القائم بينه وبين الخصوم - الطرق والوسائل التي يلتجئون إليها في دسائسهم مما هو مشهور بين أولئك الأقوام وفي ذلك العهد بالذات مما يعد بحق ظاهرة من الظواهر الإجتماعية ، لا من حيث السلوك فقط ، ولا من حيث الإيمان بالخرافات أو ما لا يبعد كثيراً عن الخرافات فحسب . يقول اليوسي : « ثم بدأنا القراءة (أي بفاس) فانصرفت علينا الطلبة أهل البلد والغرباء . وكان المجلس حافلاً . وذلك في غيبة السلطان الى سوس . فتحرك الحسد والوسواس . وكثر القيل والقال . وجعل كل من يحبني يحذرني من الناس وأكل طعامهم . فما يمكنني أن أشرب ماء ، ولا آكل طعاماً من يد أحد ، ولا أجلس على سليخة الكرسي حتى يقبلها أصحابي ولا تفریط . وصرنا في فتنه وبلاء . ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى مرضت . فبقيت حتى نقيت واسترحت فذهبت للقراءة . فلم أكن إلا أن طلعت على الكرسي حتى أصابني ذلك . فترلت وجئت الدار فرقدت أيضاً حتى نقيت . فرجعت . فكان الأمر كالأول . فعند ذلك قام إلي أصحابي وقالوا : هذا أمر واضح بين . هذا عمل عمل لك على مجلس القراءة لئلا تشتغل به . فانك ميلت على الناس تلامذتهم وأخليت مجالسهم . وجعلوا يكتبون لي معاذات لم تزل اليوم على . فمن ثم أمكنتني بإذن الله أن أحضر الميعاد (1) .

قلنا لقد حاول اليوسي بالانتقال بسكناه إلى البادية النجاة بنفسه ، والإبتعاد عن غرمائه من الحسدة والمنافسين في المدينة بالعودة إلى البادية والاستقرار بها . فأثار هذا الصنيع في نفس السلطان اسماعيل ما كنا ألعنا إليه من الريبة في الرجل الذي عرف بالانتساب إلى الزاوية التي وقفت في وجه بناء الدولة العلوية طويلاً ، والتي خربها سلفه أخوه الرشيد وأخذ عناصرها معه إلى المنفى وهو منهم نعتي بها الزاوية الدلائية (2) . وهكذا يقع اليوسي فيما هو أشد بلاء ، في رمضاء الشك والريبة التي زاد في

(1) رسالة اليوسي ردا على رسالة المولى اسماعيل : ص 37 .

(2) الزاوية الدلائية : ص 235 .

إذ كانت بالمتناسبة بعض العناصر المحيطة بالسلطان ، مما جعل هذا الأخير يأمره عديد المرات بالانتقال من موطن إلى موطن حتى لا يتمكن من الإستقرار ولا ينعم بالسكينة ، فلا تنهياً له فرصة يستطيع معها أن يصنع لنفسه أتباعاً ، ولا أن تتكون له — تبعاً لذلك — عصبية قد تنجر من ورائها المتاعب إلى صاحب السلطة القائمة . وهو الذي يحرص كل الحرص على القضاء على الفتن ، وعلى كل ما قد يعكر صفو الاستقرار للدولة الفتية . يؤكد هذا ما ورد في « الرحلة » التي كانت بقلم ولده الكبير (1) ؛ إذ جاء فيها : « وكان السلطان المذكور (أي المولى اسماعيل) نصره الله وأيد أمره بمحصه ويثنيه لما يشي به بعض أهل مجلسه الذي يليه . ثم أمر به إلى حمراء مراکش ... » (2) .

وهكذا نجد اليوسي يقضي الكثير من حياته في عهد المولى اسماعيل منتقلاً من مكان إلى مكان استجابة للأوامر الواردة عليه من لدن السلطان . فيؤمر بالرحيل من خلفون أواخر سنة (1085 / 1675) إلى مراکش ويقضي قرابة خمس سنوات فيها يدرس بجامع الشرفاء . ثم يغادرها سنة (1090 / 1679) ليعود إلى خلفون في إقامة قصيرة يقع ترحيله بعدها إلى مقر الخلافة (3)، أين يقيم خمسة أشهر تقع نقلته بعدها إلى حمراء مراکش ، وذلك أوائل ربيع الأول من سنة (1092 / 1681) (4) . فيقيم فيها ثلاث سنين قلقاً متضرعاً إلى الله أن يعيده إلى وطنه متردداً على مقامات الأولياء والصالحين في زيارات توسل ورجاء . ثم يأتيه الأمر السلطاني مرة أخرى بالرحيل إلى الزاوية البكرية التي يصلها في ربيع الأول سنة (1095 / 1684) وقيم فيها ثلاث سنين زار فيها فاساً ، وذلك في شوال من سنة (1095 / 1684) كما سافر فيها إلى بلاد المصامدة وبلد رجواجة . وهذا هو الظرف الذي ذكر أنه شرع عنده في كتابه المحاضرات (5) .

(1) فهرس الفهارس لعبد الحى الكتاني : ج 2 ، ص 464 - 470 ؛ الزاوية الدلائية : ص 105 .

(2) رحلة اليوسي : ص 55 .

(3) الرحلة : ص 56 .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) الرحلة : ص 57 ؛ المحاضرات : ص 37 .

وفي ذي الحجة من سنة (1096 / نوفمبر 1685) ترد عليه رسالة اللوم من المولى إسماعيل ، التي أجابه عنها برسالة مطولة سبقت الإشارة إليها رد فيها دونما لف ولا تلثم على جميع ما ورد فيها من الاتهامات برباطة جأش وصراحة عجيبة ، وكشف له فيها عن خبايا الأمور ، رفعا للبس الذي أحاط باليوسي ، وتبيدا للشكوك التي حامت حوله وحاقت بميوله ، والتي لجأ إلى زرع بذورها ، في خساسة ، ضعاف النفوس اللثيمة والتي تحدث فيها للسلطان بوضوح لا مداراة فيه ولا مجاملة إلا ما يقتضيه المقام السلطاني من حسن ملاطفة في الخطاب وجميل أدب في الكلام . فحل الجواب عن الرسالة محلا حسنا عند السلطان ، مما جعل هذا الأخير يرفق بالرجل . فكان يبدو بعدها حرا طليقا ينتقل أنى شاء وحيث شاء ، بل يذهب به السلطان إلى أبعد من ذلك فيستدعيه لحضور ختم درس التفسير الذي ألقاه القاضي أبو عبد الله المجاصي بين يدي المولى إسماعيل ، وذلك في خامس جمادى الأولى من سنة (1098 / مارس 1687) (1) . والظاهر أن هذه الزواجر التي أثّرت حول اليوسي مع المولى إسماعيل لم تكن لتنال من منزلة الرجل العلمية في نظر القوم ، ولا لتحط من قدره ومكانته عند الرجال بل وحتى عند السلطان نفسه .

ومن هنا قد نسمح لأنفسنا بأن نصنف مواقف هذا الأخير إزاء الشيخ أبي علي اليوسي إلى صنفين اثنين يتميزان عن بعضهما تميز الاتجاه والغاية . أحدهما سياسي صرف ، وهو الذي ينظر السلطان من خلاله إلى الرجل نظرة الحذر والحيلة ، متخذاً منه عنصراً معادياً من العناصر التي كانت موالية لمن وقف في وجه ميلاد الدولة العلوية في شخص الزاوية الدلائية . فيخشى على عرشه منه ، ويتوقع الوقعة والكيد به منه في كل لحظة من اللحظات ، وفي كل قول منه أو فعل . ومن أجل ذلك كانت هذه النظرة منه حياله تقتضي الحزم ، وأخذ الأمور بعجد وعدم تردد فيما قد تجود به الظروف ، كما تقتضي المبادرة إلى الأحكام القاسية ولو بالاعتماد على

(1) التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري : ص 59 .

الأخذ بالظن في غير انتظار للجزم والقطع واليقين ، على ما هو معروف من مواقف الساسة وأولي الأمر منهم غالبا .

وثاني الموقفين موقف علمي بحث . وفيه تقييم وتقدير واعتبار . وفيه مراعاة لما يجب على الدولة ورئيسها من تشجيع للعلم وأهله وتقديم للثقافة والموهبة والنبوغ ، وتكريم للمعرفة ، وتفضيل لأصحابها على من سواهم دونما غمط لهم ولما عرفوا به من امكانيات شخصية ، ولما تحلوا به من مواهب ذهنية ، تقتضي ذلك منهم مقتضيات شخصية وعامة كما لا يخفى .

ولعل نظرة المولى إسماعيل كانت من هذا الجانب حينما يخاطب اليوسي أو يتحدث عنه . ولعل هذه الرسالة التي وجهها إلى السلطان (1) ، مع غيرها من الرسائل التي لم يبخل صاحبها فيها على السلطان بالنصيحة والتوجيه والصدع بالحق (2) ، والتوجه له كاشفا عن أوجه الفساد في الدولة (3) ، ومنها له على ما تفشى من انحراف أخلاقي أو ديني داخل بعض المجتمعات المغربية مع بيان حكم الله تعالى في هذه الأمور ، وما يجب على أمير المؤمنين أن يتخذه لارجاع الأمور إلى نصابها (4) ، ولافتا نظر سيد البلاد إلى اخلال نوابه بما يجب عليهم في حق ثغور المسلمين والاستعداد لمواجهة الأخطار الخارجية التي قد تهدد البلاد بعد تجريدهم للمواطنين من خيلهم وسلاحهم (5) . لعل هذا وغيره هو الذي جعل السلطان العلوي يشهد للامام الحسن اليوسي بما يشرفه ويشرف العلماء الربانيين المخلصين أمثاله عامة - وهم الأمناء والخلفاء وأصحاب الرسالة بين الناس - حتى أنه كان يحليه في بعض رسائله بقوله : «العلامة الهمام السيد الحسن اليوسي (6)» ،

(1) وهي الرسالة التي أجاب بها عن رسالة المولى إسماعيل .

(2) رسالة اليوسي إلى المولى إسماعيل ، ندب الملوك إلى العدل ، وغيرها .

(3) براءة اليوسي إلى المولى إسماعيل .

(4) تقييد اليوسي حول المكاكرة مثلا .

(5) براءة اليوسي : ص 24 .

(6) المنتزع اللطيف لعبد الرحمان بن زيدان العلوي : ص 47 .

كما يذكره بالمهابة ويصفه بالمروءة ، وينعته بأنه لا يخشى أحدا الا الله ، ويعظمه ويثني عليه ويقول في حقه وحق غيره من العلماء : « علماء الوقت على أربعة أقسام : قسم لا يخاف الا الله ولا يخاف منا . وقسم يخاف من الله ومنا . وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله . وقسم لا يخاف من الله ولا منا » (1) ، واضعا اليوسي في زمرة من يعينهم بالقسم الأول من العلماء . وكما نجده أيضا يشهد له ضمنيا في إحدى رسائله بالكفاءة العلمية فيقول عنه : « وقد حزنا السيد الحسن اليوسي على سكنى فاس واشتغاله بالقراءة فيها فاشتكى من إذابة أهلها . وذلك لا يكون في إنسان إلا أن يعلم أن الله تعالى أعطاه من العلم ما كفاه عن الغير » (2) .

هذا والذي يبدو لنا أيضا أن أبا علي اليوسي بعد كل هذه السفرات لم يبق شاعرا بحلاوة الاستقرار ولا بالميل إلى وطن معين ؛ إذ نجده بعد ذلك يتحول من مكان إلى مكان في تحول مستمر ، وضعن دائم دائب . فيستجيب ضمن ما يستجيب إلى دعوة أهالي قرية صنهاجة ليقيم بجوارهم ويمكث عندهم . وهكذا نجده تنزل في صفرو بالذات مدة تقل عن السنة ونصف السنة . يحل بها في صفر من سنة (1099 / ديسمبر 1687) ، ثم يفارقها في جمادى الثانية من سنة (1100 / سبتمبر 1689) ليعود إلى فاس مرة أخرى ويقضي بها سبعة أشهر ونصفا . ثم يتوجه من ثمت إلى العرائش لزيارة الشمال المغربي . وما أن يتم له ذلك حتى يقفل راجعا إلى فاس من جديد . ومن هناك ، وبدون أن يقيم طويلا ، يأخذ عياله ويسير بهم إلى قرية تمزيت ببلد أولاد عياد ، ويتركهم هناك عزما منه على الاتجاه نحو الديار المقدسة ليقوم بفريضة حج بيت الله الحرام فيجعل منطلقه لهذه الغاية العظمى من فاس أيضا . وذلك أواخر جمادى الثانية من سنة (1101 / مارس 1690) صحبة ولده أبي محمد مارا في طريقه ببعض الصالحين معرجا على طرابلس الغرب أين يجيز فيها بعضا من علمائها . حتى إذا ما حل بمصر

(1) الدر المنضد الفاخر : ورقة (27 ب) .

(2) مجلة تطوان : عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لجلوس المولى اسماعيل على العرش المغربي : ص 37 - 39 .

التقى بالشيخ محمد الخرشي شارح مختصر خليل في الفقه المالكي . فأجازه بعد أن قرأ هذا الأخير عليه شيئا من أوائل صحيح البخاري . ثم يواصل رحلته حتى يبلغ مكة ويؤدى فريضة الحج التي من أجلها كانت رحلته هذه . وهي رحلته الوحيدة إلى المشرق العربي .

وفي طريق العودة يقيم أكثر من أربعة أشهر بمصر يحاول فيها التأكد من صدق ما يتحدث به الركبان من رواج العلم بتلك الديار ، ومن عمارة المساجد ، وكثرة العلماء والمتعلمين بها ، والتوفر على أهل الصلاح والولاية من رجالها . غير أنه سقط في يده فلم يجد فيها ما يبل غليله ولا ما يكون مصداقا لما ورد عليه من أخبار وتناقلته الألسن .

ثم يغادر مصر أواسط جمادى الثانية من سنة (1102 / 1691) في طريقه إلى داره بتمززيت التي وصلها يوم الأحد الخامس والعشرين من شوال من تلك السنة نفسها . ولا يقيم فيها أكثر من شهرين حتى يودعها الوداع الأخير فيقبض ويفارق الحياة . وذلك ليلة الإثنين الثالث والعشرين من ذي الحجة من سنة (1102 / سبتمبر 1691) . فيدفن هناك غير بعيد عن صفرو . ثم ينقل جثمانه بعد عشرين سنة من وفاته إلى مرقده الأخير في موضع هناك أيضا حيث يقيم ضريحه الآن الذي مازال مزارا للقبائل البربرية التي تحيي ذكراه كل عام وإلى هذه السنوات الأخيرة (1) .

وهكذا يودع اليوسي الحياة مخلقا وراءه تراثا علميا غزيرا ، وآثارا أدبية بليغة ، تجاوز مجموع ذلك المائة عدا ما بين كتاب ورسالة في مختلف الفنون والأغراض شعرا ونثرا . طبع البعض منه طبعة فاسية ، والبعض الآخر مازال مخطوطا ينتظر ، مستدعيا العزائم والهمم للتوجه إليه والإقبال عليه (2) .

(1) تقديم ديوان اليوسي : ص 52 .

(2) انظر جدول آثار الرجل في كتابنا « تحقيق وتقديم ديوان اليوسي » .

كتاب المحاضرات (1) .

يشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين حديثاً أو فصلاً تطول وتقصّر بحسب الموضوع الذي يطرقه أبو علي اليوسي فيها مع ما أوتيته الرجل من نفس طويل وباع عريض ، ومقدرة عجيبة على تناوله للمسائل ، وتحليله للمواضيع ، فاصلاً بين الحديث والحديث بكلمة هي « لله الأمر من قبل ومن بعد » ، ترددت عقب كل واحد منها . ثم يأتي بعد هذه الأحاديث المتنوعة الأغراض والمختلفة الفنون بسبعة أبواب متمحضة للجانب الأدبي من المعرفة يحشر في كل باب منها ما يدخل فيه من أشعار وأقوال وأمثال وحكم تتناسب مع ذلك الباب الذي قيلت فيه . ثم ينهي الكتاب بخاتمة هي سرد لما دار بذهنه وتذكره أو لقيه ممن « اتسم بالخير واشتهر بالصلاح تبركاً بهم » . وبذلك يكون الكتاب قد اشتمل على سبع وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير . وهي عدد صفحات الطبعة الفاسية الوحيدة القديمة تقريباً .

الحديث الأول (2) :

أما الحديث الأول ، وهو الحديث الذي جعله اليوسي فاتحة الكتاب . فقد جمع فيه بين أمرين اثنين يؤلف مجموعهما ما يعبر عنه عند البلاغيين

(1) توجد من هذا الكتاب نسخ خطية عديدة بخزائن الرباط ، والقاهرة ، وباريس . كما توجد منه نسختان خطيتان بالمكتبة الوطنية بتونس والمعروفة بمكتبة العطارين : أحدهما انتسخت بعد أربع سنوات فقط من وفاة اليوسي . والملاحظ أنه طبع طبعة فاسية قديمة يرجع عهدها إلى سنة 1317 هـ . ونحن في بحثنا هذا نعتمد طبعة فاس دون النسخ المخطوطة ؛ وذلك لقرب تناولها ويسر الاتصال بها ، وسهولة الرجوع إليها انئذ . كما أنه لا يفوتنا أن ننبه إلى أننا قد عرفنا بكتاب المحاضرات هذا في كتابنا « تحقيق وتقديم ديوان أبي علي اليوسي » فليراجع .

(2) المحاضرات : 2 - 5 .

مع شيء من التوسع والتسامح ، ببراعة الاستهلال ؛ وذلك لما فيها مما يقارب التعريف بالكتاب وفحواه والظروف التي ألف فيها .

أما أول الأمرين فيتمثل في إثبات أن هذا الكتاب وليد حافظة صاحبه ، وأنه جاء في ظروف صعبة مرت بمؤلفه حيث كان عندئذ - كما قال - في « سفرة بان بها عني الأهل شغلا وتأنيسا ، وزايلني العلم تصنيفا وتدريسا ، فاخذت أرسم في هذا المجموع بعض ما خطر في ألطاب ، مما أحال فيه أو حان له إرطاب » . ومعنى ذلك - حسبما يبدو - أن هذا الكتاب يحتوى فيما يحتوى عليه ، على ذكريات أثارها حالة الإنزعاج التي هو عليها ؛ إذ كان بعيدا عن الأهل ، وبعيدا عن الجو العلمي . فأراد أن يقيد فيه « فوائد وطرفا ، وقصائد ونثقا ، مما اتفق لي في أيام الدهر من ملح ، أو لغيري مما ينتقى ويستملح . ولا أذكر نادرة فيها معنى شريف الا شرحته ، ولا لطيف إلا وشحته . وذلك هو لباب الكتاب . وفائدة الخطاب » . غير أن ما جاء في الكتاب لم يقف عند ما أراده المؤلف . فتجاوزه إلى أخبار عصره مما هو في المستوى التاريخي الذي حمل لنا صورة مصغرة من جوانب متعددة لهذا العصر قد وشاها بانطباعاته في كثير من الأحيان شرحا وتعليقا ، علاوة على الترجمة الذاتية له والتي جاءت غصون الكتاب . وبذلك تكون المقدمة قاصرة عما اشتمل عليه الكتاب ، مما قد يجعلنا نتوقع أنها كتبت لا على غرار ما يقع في نظائرها من المقدمات عادة .

أما الأمر الثاني فهي العوامل التي حركت الرجل إلى تأليف هذا الكتاب ، والتي بموجب انعكاساتها الذهنية والنفسية تطبع الكتاب شكلا ومضمونا بطابعها الخاص . فعدد اليوسي من تلك العوامل أمورا ذكرها متتابعة ومتلاحقة إلا أمرا واحدا منها حاول إخفائه بالتعرض إليه بعيدا عن بقيتها تلميحا وتلويحا ضمن الحديث عن تسمية الكتاب حيث قال : « وسميته المحاضرات ، ليوافق اسمه مسماه ، ويتضح عند ذكره معناه . وفي المثل : خير العلم ما حوضر به » . وذلك ، لما في الذي تحمله لفظة المحاضرة من معنى المغالبة والمكابرة والمكاثرة (1) . وهو المعنى الذي

(1) ابن منظور ، لسان العرب : مادة « حضر » ، ص 249 .

حاول إخفائه عن الأنظار تصريحاً ، فبان لها تلويحاً ، والذي ملأ قلبه ونفسه منذ تغريبه إلى فاس ، ووقوعه فيما وقع فيه بها . فهو يحاول الرد إذن بكتابه هذا على ما حاول استنقاظه به أهل فاس . خصوصاً منهم أبا زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي ، كما نبه إليه صاحب فهرس الفهارس عندما قال : « وكتابه (أي اليوسي) المحاضرات عجيب في بابه ، غريب في تربيته وأسلوبه . وكأنه في ترجمة نفسه . ألفه بسبب ما كان وقع بينه وبين أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي رحمه الله لما افتتح التفسير بالقرويين » (1) .

فاذا استقام لنا هذا الذي ذهبنا إليه يكون هذا الكتاب ثاني كتابين له . كان من أهم ما حفزه على إبرازهما لحيز الوجود اقامته البرهان لهؤلاء المنتقسين له على جدارته بالتقديم ، وتسفيهه من حاول استنقاظه في علمه والغض من شأنه . أما أول هذين الكتابين فهو كتابه « زهر الأكم في الأمثال والحكم » .

أما بقية العوامل التي حملته على هذا التأليف فقد صرح بها هو في هذا الحديث بقوله : « وإنما حملني على الأخذ فيه أمور منها : ابتعادي من البطالة التي هي مدرجة الجهالة والضلالة ، ومنها إفادة جاهل أو تنبيه غافل ، ومنها تخليد المحفوظ لئلا ينسى وتفصيله نوعاً وجنساً ، ومنها استمطار علم جديد عند الاشتغال بالتقيد ؛ فإن العلم كالماء نباع ، وبعضه للبعض تباع ... ، ومنها تحليل النفس ببعض الأنس ؛ فإن النفس ترتاح للاحماض وتستشفى بروحة من الانضاض ، ولا سيما مثلي ممن ترامت به الأقطار وتباعدت عنه الأوطان والأوطار » .

الحديث الثاني (2) :

أما الحديث الثاني فيتعرض فيه إلى ما جرت به عادة المؤلفين من التسمية في كتبهم وما تنجر عن ذلك من فوائد . ومن أجل ذلك رأى أن يسمى في

(1) فهرس الفهارس لعبد الحي الكناني : ص 470 ؛ نشر المثاني لمحمد القادري : ج 2 ، ص 145

(2) المحاضرات : ص 5 - 12 .

هذا المجموع ، مضيفا إلى ذلك ما اتفق له من كنية ، وما أدرك من نسب متخلصا من هذا إلى تقسيم الإسم العلم إلى ثلاثة أقسام : اسم وكنية ولقب معرفا للاسم ، ذاكرا لما يقع من التفاضل والتطير بالأسماء ، موضحا ما في المنقول منه من ملاحظة مدلوله الأول الحقيقي أو المجازي زيادة على تعيينه للمسمى الذي تسمى به ، مخبرا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفال الحسن ، وكان يغير من الأسماء ما لا يرضى ، وكان يقول : « إذا أبردتم إلي بريدا فأبردوه حسن الوجه حسن الإسم » .

وينتقل بعد ذلك إلى الكنية واللقب . فيذكر أنهما « يعتبران بوجهين : الوجه الأول : نفس إطلاق الكنية واللقب . وهما في هذا مختلفان . فان الكنية الأكثر فيها ، إذا لم تكن اسما ، أن يراد بها التعظيم . وينبغي أن يعلم الناس باعتبارها ثلاثة أصناف : صنف لا يكتنى لحقارته ... وصنف لا ينبغي أن يكتنى لاستغنائها وترفعه عن مقتضاها ... وصنف متوسط بين هذين وهو الذي يكتنى تعظيما ... وأما اللقب فيقصد به كل من المدح والذم وغير ذلك ...

الوجه الثاني : إلى مدلولهما الأصلي مستشهدا على ما تعرض إليه بأشعار الشعراء ووقائع وقعت للعرب القدامى ، في نفس طويل شيق ينتهي به إلى قوله : « فأقول : أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عمر بن يوسف ، وهو أبو القبيلة ، ابن داود بن يدراسن بن يلتن . فهذا ما يعد من النسب إلى أن دخل بلد فركلة في قرية منه تسمى حارة أقال . وهي معروفة الآن . والكنية أبو علي ، وأبو المواهب ، وأبو السعود وأبو محمد » رابطا بين هذه وبين ما وقع التمهيد به له من ذكره لفوائد التسمية . فيحمد الله ويشكره ؛ إذ جعل إسمه حسنا . ويسأله أن يجعل كذلك فعله وخلقه وحظه في الدارين منه حسنا . ويحمده كذلك إذ حسن اسم والده فجعله مسعودا . ويسأله سبحانه أن يجعله كذلك في الدارين ، ويجعل والده مسعودا . ويذيل هذه الخاتمة ، لما جاء ذكره قبل هذا ، بحوادث له تتصل باسمه وبكنيته في أسلوب طريف ظريف ، ونثر تتخلله أشعار من الفصحى والملاحون يستغرق ما يقارب الصفحتين .

الحديث الثالث (1) :

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث الثالث فيستهله بقوله : « وأما اليوسي فأصله اليوسفي . كما مر من أن يوسف هو أبو القبيلة . ويسقطون الفاء في لغتهم ... » آخذاً في شرح ما دعاه إلى ذكر نسبه من الفوائد التي منها معرفة من يقف عليه من ذوي القرابة للتوصل إلى صلة الرحم . ثم يتعرض بعد ذلك إلى الفرق بين سكنى القرى والمدن ، وأن ساكن المدن ينتسب إليها وإلى القرى لا إلى الأنساب وذلك لتعسر انتسابه إليها وإلى الأقوام ، منتقلاً إلى الوقوف على الأسباب الداعية إلى الحنين إلى مسقط الرأس ، واقفاً على أشعار القدماء من أمثال المجنون في تعلقهم بالديار ، مشيراً إلى أن « من انتسب إلى البلد ذهب قومه وتنوسيت أسلافه ... » ، واصلاً به الحديث إلى عناية العرب بالأنساب ، وأن ذلك ليس خصوصية فيهم كما كان يتوهم اليوسي ، وإنما لهم في هذا الباب مزيد اهتمام . فلقد باحث قومه في شأن الأنساب فتبين له خطأهم وأنهم على خلاف ما كان يظن ؛ إذ وجدهم يحفظون أنسابهم ، وأن لهم نسابين على نحو ما كان للعرب . ثم يتعرض إلى نسب الإنسان وأن نسبه الأصلي هو الطين مستشهداً على ذلك بما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبوية من أمثال قوله صلى الله عليه وسلم : « أنتم بنو آدم وآدم من تراب » . ثم يذكر أن لكل فرد منه بعد آدم أصلاً آخر وهو النطفة . ومن ثم لا فضل لإنسان على آخر في نفسه باعتبار أصله لاستواء الجميع فيه ، مستعرضاً في ذلك آيات وأحاديث وآثاراً وأشعاراً ، محللاً ومعللاً ، مشيراً إلى أن الإنسان يشرف بخصوصية تزداد على جسمه الطيني كالعلم والعقل والدين . ومن هنا كان خطأ إبليس في موقفه من آدم ، مبيناً أن لخطئه هذا أوجهاً عديدة استوقفته لشرحها وتحليلها طويلاً ، منتقلاً إلى أن المزايا التي يشرف بها الإنسان حتى يشرف بشرفه من انتسب إليه كثيرة ، منها الدينية ومنها الدنيوية ، وبعض ذلك حسي وبعضه معنوي ، والبعض وجودي والبعض عدمي ، ضارباً لذلك أمثلة عديدة ، مستغرقاً في التحليل والتوضيح والتقسيم والسبر والاستقصاء ، مبيناً التشابه في الأصل

بين الأجرام الترايبية وما توالد منها ، موضحا مزية الناميات الثلاثة التي هي المعدن والنبات والحيوان حتى ينتهي إلى الإنسان الذي هو نوع حيواني فيعرفه ويبين تفضيله وأوجه ذلك التفضيل وما خصه الله به في خلقه وفي أرزاقه وخلقه ولباسه وركوبه ، مبطلا ادعاء انتسابنا إلى عبد آدم ، مبينا أوجه الشرف الحاصل لآدم عليه السلام ، وكيف أن هذا الشرف يتسرب إلى أبنائه بانتسابهم إليه ، ذاكرًا درجات الشرف لمن يتنسب إلى الأنبياء ، وكيف يعظم هذا الشرف بالانتساب إليهم حتى يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن من بعده له شرف أعظم ، وأن آدم يكنى به فيقال له : « أبو محمد » ، موضحا أن الإنسان كما يفتخر بنسبه قد يفتخر بنفسه . والأول العظامي لافتخاره بالعظام الرفات . والثاني هو الفخر العصامي المنسوب إلى عصام صاحب النعمان . والذي كان يقول :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقــــدام .

مرجحا أن أعظم شرف وأبلغه ما كان منه بالنفس ثم بالنسب ، حتى لا تغمط حقوق الآباء والأجداد . أما الاكتفاء بهم فهو المنقصة المذمومة ، منتهيا في حديثه هذا إلى أن الناس بالنسبة إلى الشرف ثلاثة رجال : رجل كان أصيلا ثم قام هو أيضا يشيد بنيانه على ما بنى أسلافه . وهذا أكرم الناس وأولاهم بكل مفعرة . والذروة العليا في هذا الصنف هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فهو الكريم ابن الكريم كما قال هو عليه الصلاة والسلام . ورجل لا أصل له ينتمي إليه . فانتفض هو في اقتفاء المآثر . ورجل له تالد أصل وقديم شرف . فأضاع ذلك ولم يجدده .

الحديث الرابع (1) :

ويأتي الحديث الرابع فإذا به حديث قصير يتحدث فيه صاحبه عن الغاية من ذكره للكني ، منبها إلى أن شيخه وقودته وأستاذه أبا عبد الله محمد ابن ناصر الدرعي هو الذي كناه بما اشتهر به من الكنى وهو أبو علي .

(1) المحاضرات : ص 28 - 29 .

أما بقية كناه فقد ذكر أنه كناه بها فضلاء من الإخوان في رسائلهم . وهكذا ينهي حديثه عن الاسم واللقب والكنية ، وما جره إلى التوسع في ذلك بالتعرض إلى أبحاث فقهية وأحاديث نبوية وآيات قرآنية وأشعار للقدامي ، وبالتعرض أيضا إلى أبحاث منطقية ، وإشارات أصولية ، محوما حول الأنساب متعرضا إلى الروابط المدنية . ينساق إلى كل ذلك بأدنى سبب في نثر سهل مرسل هو إلى النثر العلمي أقرب . ليس فيه من السجع إلا ما تدعو إليه مناسبات معينة بدون اغراق ولا تكلف .

الحديث الخامس (1) :

ثم يشرع في حديثه الخامس قائلا : « ولما كان القصد في هذا الموضوع إلى ذكر المحاضرات بنوادر الفوائد مما اتفق لي خصوصا ولغيري عموما ، وجب أن ينخرط في سلك ذلك ما وقع في شأنه حال الولادة . فأرجو أن أكون رؤيا والدي ودعوة أستاذي » . ويجره هذا الكلام إلى الحديث عن والده وأنه أمي متدين مخالط لأهل الخير ، محب للصالحين زوار لهم ، وأنه « أعطي الرؤيا الصالحة وأعطي عبارتها . فيرى الرؤيا ويعبرها لنفسه فتجيء كفلق الصبح » . ويستعرض بعد ذلك رؤيا لوالده في شأنه استخلص منها أنه سيرزق ولدا له شأن عظيم ، إذ رأى في منامه عيني ماء إحداهما له والأخرى لأخيه ، وأن العين التي كانت له أقوى ماء وأكثر فيضا . ثم يعقب اليوسي قائلا :

وولدت أيضا . وقد كان لي أخوان أسن مني . فماتا أميين رحمهما الله . فأرجو أن أكون تلك العين » . وأما دعوة أستاذه فهي التي كان يدعو له بها عند سفرته للحجة الثانية زمن إقامة اليوسي في الزاوية البكرية . وهي قول شيخه : « اللهم اجعله (أي اليوسي) عينا يستقي منها أهل المشرق وأهل المغرب ... » . ثم ينبه بعد ذلك إلى أن هذه المواطأة بين الدعوة والرؤيا قد ذكرته بجواب النبي صلى الله عليه وسلم

حينما سأله أصحابه بقولهم : « أخبرنا عنك . فقال لهم : « أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام ورؤيا أُمِّي » .

ثم شعورا منه بدقة المسلك الذي سلكه ، وبأن مثل هذا قد يثير عليه الانتقاد اللاذع الذي قد يجر إليه السخرية به حاول أن يقرر أن هذا الذي ذكره لم يكن نزوعاً منه قصداً إلى المحاكاة والمزاحمة ، موضحاً أن الله سبحانه وتعالى - وهو الذي لا مثيل له ولا نظير - قد شرع لعباده التعلق بأسمائه الحسنى . ثم شرع لهم أيضاً التخلق بها في الجملة . ويواصل اليوسي تقريره هذا متعدياً إلى وقائع لبعض الصوفية شبيهة بهذه التي وقع فيها اليوسي نفسه بحكايته التي قصها علينا في كتابه هذا ، مشيراً إلى أن من تشبه بقوم فهو منهم ، خاتماً هذا الحديث بالبيت المشهور :

لم أكن للوصال أهلاً ولكن أنتم للوصال أطمعتموني :

الحديث السادس (1) :

أما الحديث السادس فقد اتخذه صاحبه مناسبة للكلام على أحوال ابن آدم وتعرضه للمصائب وتقلبات الدهر . فحلل ذلك مستعينا بأحاديث نبوية وآيات قرآنية وأحداث استمدّها من كتاب أحياء علوم الدين للغزالي ، منبهاً إلى أن المؤمن معرض إلى المصائب والبلاء والمحن وأنه يحسن به أن يتسلح بالصبر الجميل ويتعلق بالآيمان الثابت .

الحديث السابع (2) :

ثم يأتي الحديث السابع وفيه يتعرض اليوسي إلى عادات مغربية في المبالغة في التبرك بالصالحين إلى درجة المغالاة ثم موقف العلماء من ذلك مبينا رأيه وموقفه هو أيضاً من كل ذلك . فينقل لنا مشهداً من مشاهد حياة أهالي سجلماسة الدينية التي تتعلق باعتقاداتها العامة وما فيها من خرافات

(1) المحاضرات : ص 33 - 36

(2) المحاضرات : ص 36 - 38

يتقبلها الناس ويقبلون عليها . فيذكر أنه بسجلماسة أيام رحلته إليها للقراءة
 زمن الصبا شجرة غريبة الشكل دائمة الخضرة ؛ ولذلك يقال لها الشجرة
 الخضراء ، فريدة من نوعها وليست من شجر البلد . وكانت مشهورة في
 تلك البلاد وفي سائر بلاد القبلة . وكان أهل سجلماسة يزورونها ولا سيما
 النساء منهم فيكثرون عليها من تعليق الخيوط ويطرحون الفلوس أسفلها
 وربما تبالغ النساء في تعظيمها والتنويه بشأنها حتى يسميها باسم امرأة
 صالحة ؛ فلهذا بعث أحد علمائها الأستاذ الفاضل أبو زيد عبد الرحمان
 ابن يوسف الشريف بجماعة من الطلبة لقطعها . فقطعوها . وكان الناس
 يتأسفون لذلك ويقولون : « ما فعلت لكم المسكينة » . ثم يذكر معقبا
 على القصة بقوله : « فذكرناها نحن للتنبيه على ذلك . فان عوام الناس
 أكثروا عليها منذ عقلنا حتى كانوا ينسبون إليها من ترهات الأراجيف
 نحو قولهم : قالت الشجرة الخضراء : هذا زمن السكوت من قال الحق
 يموت . فليعلم العاقل أنها إنما هي شجرة لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر
 ولا تسمع ، ومثلها أحق أن يقطع » . ويردف هذه القصة بشبيهة بها بقرب
 ناحية مقام الشيخ أبي يعزى حيث كانت شجرة أخرى من هذا المعنى
 وكُدس من حجر يقال له : البقرة . ثم يعقب عليها بقوله : « وكل ذلك
 حقيق بالإزالة . غير أن العالم يسفه لسانه . وما وراء ذلك إنما هو لأهل
 الأمر ، ومن له القدرة على الأمر . نعم ، التبرك بآثار الصالحين مع صحة
 العقيدة لا بأس به ، وله أصل في فعل الصحابة رضي الله عنهم ... » ثم
 يورد لنا ما رآه في بلاد المصامدة ، وخصوصا بلد رجراجة من هذا الذي
 « بقي عندهم موروثا خلفا عن سلف عندما يدورون على صلحائهم زائرين »
 ويذكر أنه حضر معهم في الورد في سفرته التي بدأ فيها هذه الأوراق
 وذلك سنة خمس وتسعين وألف . فلم يوافقهم في كثير مما يفعلون من
 ذلك مخافة أن يتخذة العوام حجة فيتغالون في ذلك . « ومع ذلك لم أخل
 نفسي من التبرك بأمور قريبة لا بأس فيها ... » . ويصل بهذا إلى التحدث
 عن مواضع في بلاد ملوية حيث مدفن الشيخ أبي الطيب بن يحيى الميسوري
 كما يذكر منها أيضا رباط شاكر « وهو مشهور . وكان مجمعا للصالحين
 من قديم ، ولا سيما في رمضان يفدون إليه من كل أوب » .

الحديث الثامن (1) :

ثم يأتي الحديث الثامن وهو امتداد لما قبله لا يفرق بينهما الا ما اعتاد اليوسي أن يفرق به بين الحديث والحديث . وهو فاصل غير طبيعي ، خصوصا بين هذا والذي قبله ؛ إذ لا داعي له لا سيما وأن هذه الأحاديث ليست بلجالس تتحكم فيها الظروف الخاصة بها عادة .

والظاهر أن اليوسي أراد أن يضرب لنا بما انساق فيه من هذا الحديث أمثلة على أنواع الفساد الذي تسرب في عصره إلى صفوف أهل الطريق والخير باندساس عناصر مفسدة أعمتها العاجلة وما فيها من متع وملذات . فيذكر أن رجلا طلع على سجلماسة افتتن به أهلها بما فيهم أمير البلاد وطلبة العلم أمثال اليوسي نفسه ، إذ اغتر به الجميع وأقبلوا على خبائه يتبركون به ويقبلون منه اليد وينصرفون « وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة . فقبلناه وانصرفنا » . ثم تبين بعد ذلك أنه رجل مصاب كان يشتغل باستخدام الجن . ويعقب اليوسي بعد هذا بقوله : وانما ذكرنا ذلك ليعلم ويتنبه لمن هذا حاله . فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الأغمار .

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبته خضرة الدمن وقد يشايعه من هو على شاكلته من الحمقى والفجار . وشبه الشيء منجذب إليه . إن الطيور على أجناسها تقع . فيغتر الأغبياء بذلك الا من عصمه الله » . أما المثال الثاني فقد جرت أحداثه في جبل من جبال هسكورة عندما صعد اليوسي إليه في أعوام الستين . وذلك أن رجلا نزل عليهم واشتهر بالفقر وأقبل الناس عليه بالهدايا والضيافات . وكان يتردد عليه في خبائه فتى يبيت عنده . فاكشف بعض طلبة الجهة أنه عندما يعسس الليل يقوم الرابط إلى الفتى ويشغل معه بالفاحشة . واما افتضح أمره مرة بعيدا عن تلك الجهة » . وأما الحادثة الثالثة فقد كانت بسجلماسة . ذلك أن رجلا جاءهم .

« واشتهر باسم الصلاح ووقع الإقبال عليه . فكان يأتيه الرجل فيعده بأن يبلغه مكة ويحج به طرفه عين » . ثم تبين بعد اختباره وافتضاح أمره وطرده من هناك أنه يهودي من يهود معروفين في ناحية الغرب من البلاد الغربية . وهنا يقول اليوسي : « فالحذر مطلوب ، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح ، والهوى على الحق ، والبدعة على السنة إلا من خصه الله . وقليل ما هم » . ثم يتخذ هذه المناسبة ليتحدث على فساد الزمان ، وأن الذي يأتي بعده هو أسوأ مما انقضى منه ، ولينصح من يقف على هذا الحديث « بحسن الظن بعباد الله ولا سيما من ظهر عليه الخير ، وبالتغافل عن عيوب الناس » فان « من تتبع عيوب الناس تتبع الله عيوبه حتى يفضحه في عقر بيته . فلا اعتراض بلا موجب جناية . واتباع كل ناعق غواية » .

الحديث التاسع (1) :

والحديث التاسع حديث حول التكرم استعرض فيه صاحب الكتاب بعض أشعار اللقدا من الشعر المستملح في هذا الباب ، والذي يتضمن ما في نفوس أصحابها من توفيق إلى المجد بما يقدمونه لأقوامهم من حسن المعاملة ووفرة البذل وحماية الأعراض .

الحديث العاشر (2) :

ثم يأتي الحديث العاشر فيكون كامكلاً لسابقه . فلقد وضعه اليوسي في سطور تعرض فيها إلى ما وصف الناس به صعصعة بن صوحان وقد سأله معاوية بن أبي سفيان ذلك . ثم يقسم المؤلف الناس إلى ثلاثة أنواع حسبما يراه هو : . عالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج ورعراع أتباع كل ناعق .

(1) المحاضرات : ص 40 - 41 .

(2) المحاضرات : ص 41 - .

الحديث الحادي عشر (1) :

ثم يستهل الحديث الحادي عشر بما كان ينشده لهم أستاذهم أبو بكر بن الحسن القطافي في التنويه بالعلم ، شارحا معنى ذلك الشعر الذي يتضمن أن المدن والقرى قد تعرف بنسبة المعروف لها من العلماء وغيرهم كالحسن البصري وابن عامر الشامي وغيرهما ، موضحا أن بقاع الأرض كأفراد الناس . « هي كلها مشتركة في كونها أرضا » . وتفاوتها بالمزايا والخصوصيات التي تمتاز بها أما من ذاتها وأما من عارض كأن تكون محلا لخير كمكة والمدينة . ثم يسلمه هذا للتنظير بين الناس والبقاع في الفضل عاجلا أو آجلا ، ظاهرا أو باطنا ، كثيرا أو قليلا ، مستعرضا أقوال بعض الشعراء في بلدانهم كما قيل عن أمثال تونس وفاس ، وكما قاله ابن حمديس الصقلي في بلده ، متعرضا إلى الحنين إلى المنازل والبلدان . ذلك الذي قد يكون من أجل ما فيها ، مستعرضا أشعارا كثيرة قيلت في ذلك من شعراء عديدين .

الحديث الثاني عشر (2) :

ويخص الحديث الثاني عشر للكشف عما له من بذخ علمي أدبي ؛ إذ تأخذه في هذا الحديث نشوة عجيبة تهزه للكشف عن مدى ما يتمتع به من حفظ لأشعار متنوعة الأغراض ، مع التحليل والشرح والبيان . وكأنه يفعل ذلك ليظهر لخصومه وحسدته شخصيته الأدبية التي لا تتناسب مع ما عومل به في فاس فيتعرض مثلا إلى أبحاث بيانية لغوية أدبية ، ممهدا لها بقوله : « مما علق بحفظي من أشعار المعاني عند العرب قول الشاعر :

فجنبت الجيوش أبا زنيب وجاد على مسارحك السحاب .

(1) المحاضرات : ص 41 - 45 .

(2) المحاضرات : ص 45 - 47 .

ويشرح هذا البيت مبينا أوجه الاحتمال فيه . كما يشرح أبياتا أخرى قريبة من هذا المعنى ، متعرضا إلى ما جاء ذكره في شعر القدامى من جمود العين ، ومن استعماله في مجرد عدم البكاء ، كما يستعمل حين يراد البكاء ولا تسمح العين بالدموع ، متناولا بيانه شرح ما في تلك الأبيات من الألفاظ الصعبة أو الغريبة ، متوقفا على النكت البلاغية لاستكشافها بأسلوب لا يتعد عن المحاضرات الجامعية في عمقها ، في مستوى أدبي رفيع ، مع تنوع النكت والنوادر ، وما عند الجاهلية من قصص وحكايات .

الحديث الثالث عشر (1) :

ثم يذكر في هذا الحديث أنه دخل قرية في أرض دكالة في أعوام الستين والألف فوجد رجلا مسنا ملازما للمسجد مقطعا عن الناس فجلس إليه . فوجده يعظم العلم وأهله . وكان يحدثه ويصبره على الغربة ويذكر له أشعارا من الملحون ، في شأنها وفي مدح العلم ، لا تخلو من حكم ونصائح وتوجيه وتربية .

الحديث الرابع عشر (2) :

والحديث الرابع عشر شبيه بالذي قبله من حيث أن مثاره تعرضه إلى ما حصل له في أعوام التسعين والألف عند خروجه من مراکش متزعجا . فلقى أعرابيا من هواراة في شبه حالة اليوسي . فهو متزعج أيضا عن وطنه في السوس الأقصى . فقص عليه ما نال أحمد بن عبد الله بن مبارك الأقاوي من أذى ، سببه حسد قومه له حتى أخرج عن وطنه إلى وادي السوس . فذكر له شعرا ملحونا جاء فيه : « نصبر لأحكام المولى حتى تتقاضى » . فتستهويه الأبيات والمناسبة والتشابه بين مواقف ثلاثتهم ، ذاكرا أن ما جاء فيها « هو أدب العبد . وهو الصبر لأحكام الله تعالى والسكون تحت مجارى

(1) المحاضرات : ص 47 - 48 .

(2) المحاضرات : ص 48 - 53 .

الأقدار . وتأتي « كلمة أحكام الله تعالى » في معرض الكلام فتكفي لجره إلى أن يتحدث عن الأحكام التكليفية والأحكام التصريفية ، وعن جول النفس للأولى كرها أو استلذاذا ، وعن تلقيها الثانية بالشكر والصبر ، بينا أن الحاصل حاصل لا محالة ، منتقلا إلى بيان أن نفس الإنسان سبب هلاكه بإذنه تعالى إلا من عصمه الله ، محلا ما جاء في شعر ملحون لأعرابي يتحدث عن علة ابن آدم وأنها نفسه لا الشيطان ، مبينا أن هذا الأعرابي القائل لهذا الشعر « وقع على حجة برهانية وقياس منظوم في النفس » معطلا لتأثير العدوى ، مبطلا لذلك بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، محلا تركب الإنسان من أخلاط وما يفتقر إليه بموجب مزاجه من وجوده الشخصي ووجوده النوعي ، وأن ميله إلى الشهوات بالطبع لا بشيء آخر ، فكان مطبوعا على حسب المال وحب النساء . وهذا الميل منه هو المعبر عنه بالهوى . وهو طبع في الإنسان الذي يتعرض في الواقع إلى العوارض الدنيوية ، وأن النفس في تقاضيتها لشهواتها لا يوقفها حد . فاحتاجت إلى مساعدة العقل . وهو بدوره وبموجب قصوره ووقوعه في الخطأ كثيرا في حاجة إلى ما يرشده . فكان الإلهام والتربية والوحي السماوي . ومن هنا جاءت الأحكام ، وشرعت الشرائع ، منتقلا بعد ذلك إلى بيان عداوة إبليس للآدمي ، وأنه ألد أعدائه ، وأنه يتسرب إليه من ناحية نفسه . فإذا كان الشيطان يسعى لإهلاك الإنسان بدافع البغض والعداوة فإن النفس تجره إلى المهالك بدافع الطبع جهلا وخطأ لا عن قصد وتعمد . « ومن أجل ما ذكرنا بين النفس والشيطان من اختلاف الوجه وتباين القصد فرق أئمة الصوفية رضوان الله عليهم بين الخاطر النفساني والباطن الشيطاني بعد اشتراكهما في الحظ على السوء في الجملة . وهو كما رأيت عقلي تحليلي استنتاجي . قد دعم بتبحر علمي واطلاع واسع واستخدام لما عند الرجل من معرفة في تنقيب واستغلال لطاقتي العقل والنقل معا .

الحديث الخامس عشر (1) :

هذا الحديث قد استوحاه اليوسي من بيت خطرت له ، فوجدها قد احتوت على كل من الحقيقة والشرعة . وهي قول امرئ القيس :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل
فالشرط الأول مشتمل على باطن الشرعة . ومعفاده أن من طلبته بالله فأنت منجح فيه . وهذا ينتهي بالإنسان إلى التسليم لله في كل شيء عن عقيدة راسخة بوحدانيته ، وأنه هو الفاعل المدبر النافع الضار .

والشرط الثاني يتضمن الشرعة كلها من حيث إن البر خير ما ادخر العبد . ثم ينطلق مبينا أوجه البر ومتعلقاته . ويستخرج من هذا أن الله يجري الحكمة على لسان من يشاء . وهو تفسير لقوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن » . كما يمكنه هذا البيت من فهم قوله صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة » . ويسوقه الاستطراد بعد ذلك إلى بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ويستفرغ القول فيه وفيما اشتمل عليه من معان ، وما ينتهي منها حتى يأخذ في استعراض أبيات للحطبة وطرفة بن العبد وغيرهما ، تشتمل على حكم على غرار بيت لبيد ، آتيا على كثير من القدامى والاسلاميين . ثم يعقب على تلك الأبيات لبين ما اشتملت عليه من الأمثال . ثم يذكر من الأبيات ما فيها مثلاً ، وما فيها مثل واحد . ثم يأتي بعدها على أبيات يشتمل الجزء منها على مثل من الأمثال العربية أيضاً . وينبه بعد كل ما استطرده من الأبيات على أن هذه الأنواع لا يأتي عليها الحصر ، وأنه قد أودع منها كتابه « الأمثال والحكم » قدرا صالحا ، خاتما كلامه هنا بقوله : « ولنفترض على هذا القدر هنا خوف الملل » .

الحديث السادس عشر (1) :

ثم ابتدأ الحديث السادس عشر بنقل أخبار عن الرئيس الأجل أبي عبد الله محمد الحاج ابن محمد بن أبي بكر الدلائي وهو في سفرته إلى الحجاز ونزوله مصر ولقائه بأبي العباس أحمد بن محمد المقرئ . ويذكر أن المقرئ كان معنيا بالأخبار على غرار عناية الشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي ، وعلى خلاف ما هو معروف عن المغاربة ؛ إذ « غلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية . وفيما سوى ذلك لاهمة لهم » . ويسوقه الحديث إلى ما يقع غالبا بين العلماء من التحاسد فيما بينهم . حتى أفتى بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض لهذا المعنى . ثم يبين أن أرباب المناصب كالقضاة لم يزالوا متسلطين على أهل الدين . ويستشهد بوقائع معينة تقوم دليلا على هذا المدعى . ثم يسوقه الحديث إلى من اشتهر باستجابة دعائه ، كالأئمة الثلاثة : الشيخ عبد السلام مشيش ، والشيخ أبي يعزى ، والشيخ أبي سلهم من صلحاء المغرب . ولعله يريد أن يؤكد هذا الكلام ، وأنه لا يجد فيه ما يدعو للتوقف والتردد ، فيورد عقب ذلك قوله : « وقد شاهدت المولى ادريس رضي الله عنه أيام مقامي في مدينة فاس ترياقا مجربا في كل ما أنزل به من حاجة » . ثم يورد ثلاث قصص في هذا المعنى . واحدة منها حدث بها « بمراكش الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي بكر الهشتوكي » . وقد قضيت له حاجته . والآخران حدثتا في حضرته . أحدهما لزوجه أيام كان بالزاوية البكرية وقد تراخت عنها الولادة . فأصبحت ذات يوم وقد رأت في المنام أنها ذهبت إلى مقام بعض الأولياء فوجدته جالسا وكانت عطشى ، فأمرها بالنبش قربها ، فخرج الماء فرويت . ثم هي طلبت من زوجها أبي على الزيارة والاطعام ، ففعل . فولدت ولدها محمدا الكبير . وثانيتها حصلت لما نزل اليوسي وأهله بالزاوية المرة الثانية قافلين من مراكش ؛ إذ كانت له بنية عاجزة عن النهوض . . « وهي في سن من يمشي » . فظنوها مقعدة . فذهب بها الخدم وزوروها . « فقامت بالقور على رجلها تمشي » . ثم يقول عقب هذه القصص : « وأمثال هذه الأمور لو تتبعنا منها ما رأينا وما سمعنا

لما كنا بها الدواوين . نعم ، رأيت لبعضهم أن الولي إذا مات انقطع تصرفه من الكون . وما يحصل لراثه مثلا إنما يحصل له من يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولي . والله تعالى أعلم . ثم يذكر اليوسي بعد ذلك ما اتخذه مناسبة للحديث على النساء وشؤونهن وخيرهن وأحسنهن . ويتحدث عن أصحاب الآلات وما يستخرجه الصالحون من معان عند سماعهم لها ، في شرح وتحليل وتصرف وبيان يستهوي من يقف عليه ، خاتما هذا الحديث بالتعرض إلى كرامات الأولياء وما شهده بنفسه منها .

الحديث السابع عشر (1) :

وفي هذا الحديث ينقل اليوسي ما ذكره له أبو عبد الله محمد ابن المرباط الدلائلي من أنه سمع وهو في حجته مع والده عجوزا أعرابية تنطق بالفاف المعقوفة عوضا عن القاف المعروفة . ويردفها بقصة أخرى شبيهة بهذه . كل ذلك فيما يقارب الصفحة من الكتاب .

الحديث الثامن عشر (2) :

وفي الحديث الثامن عشر يذكر اليوسي أنه قد استوقفته في تقييد وقع بين يديه كلمة الكسكسون بثبوت النون خلاف ما ينطق به الناس . فينطلق وراءها ويروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شوهده في المنام ، ونطق بها هكذا ، على خلاف المتداول بين الناس . ولما كان الأمر يتعلق باستعمال الكسكس للتداوي يأخذه الحديث إلى تأويل عدة . من بينها ما تقرر من أن دواء الجسم عادته . ويذكره هذا بحدثين اثنين وقعا له بفاس ؛ إذ أصابه إسهال في الأول - وكان ذلك سنة تسع وسبعين وألف - وأعشى الطبيب دواؤه حتى أحضر له طعاما مما كان يعتاده فشفي . وفي المرة الثانية كان قد أصابه إسهال . فأشار عليه السلطان رشيد بن الشريف بسويق الشعير . ثم هو لا يكتفي بهذا الذي ساقه . فيذكر أمثلة واقعية أخرى . كما يحاول أن يشعر من يقف على كتابه هذا أن الذي ذهب إليه من الأطعمة المعتادة

(1) المحاضرات : ص 65 - 66 .

(2) المحاضرات : ص 66 - 68 .

وما اختصت به كل جهة من جهات المغرب كان مشهورا ، حتى لدى المداحين في الرحبة بمدينة مراكش . فيذكرونه ضمن ما يأتون به لمن يتحلقون بهم . وقد شاهد اليوسي ذلك بنفسه .

الحديث التاسع عشر (1) :

ويتبدى هذا الحديث بالتعرض إلى ما ذكره في قصر الزيارة من قولهم : « ما أدري أسلم أو ودع » . يتخذ ذلك جسرا للعبور عليه إلى ما قاله الشعراء في ذلك من أمثال العباس بن الأحنف ومحمد بن أمية الكاتب ، والحسن الضحاك ، وما قاله هو بمناسبة زيارته لأخت له ، وهو موجود في الديوان . ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث على أمور الدنيا ، وأنها مشوب خيرها بشرها وحلوها بمرها ، متبدلة متغيرة ، مثبتا لحكمة ذلك أمرين اثنين : أولهما حدوثها ، وهو يقتضي تغيرها . وثانيهما كونها مقدمة للآخرة . ثم يذكر حوادث شاهدة على تغير الدنيا وتقلبها حصلت للعظام من الناس ، منتهيا إلى بعض الحكم التي لها مساس بالموضوع ، منتهيا إلى أن الواجب يقتضي من الإنسان أن لا يتعلق إلا بما لا يتغير ولا يتحول ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

الحديث العشرون (2) :

لقد تناول اليوسي في هذا الحديث جانبا مهما من حياته العلمية والفكرية فسجل بذلك ما حدث له عند ترحيله من الزاوية البكرية ، إذ خربت سنة تسع وسبعين وألف على يد السلطان رشيد بن الشريف . فدخل فاسا . وأقبل الطلبة عليه وتخلف البعض ممن غلبهم ما هو المألوف من الطبع الآدمي في أمثالهم . فاتفق له أن خرج لزيارة صلحاء الساحل . حتى انتهى إلى مقام الشيخ أبي سلهم . وجلس على شاطئ البحر فأثار فيه ذلك ما أنعش الفؤاد ونشط الشاعرية . فكتب ارتجالا ما دار في خاطره من الأشعار

(1) المحاضرات : ص 68 - 72 .

(2) المحاضرات : ص 72 - 76 .

« بحسب ما اتفق غثا وسمينا ، ورخيصة وثمينا ، وجدا وهزلا ، وصدقا وأزلا » . ثم ذكر أنه عندما حاول تسجيل ما له من الأشعار وجد أن أكثره قد ضاع . وهذا الإهمال لشعره هو ما كان منه عند شبابه . فلم تبق نفسه مطوعة لقول الشعر ؛ إذ قد بلغ مرحلة الجذ . فتعدى « عن قول الشعر بمراحل ، وعن سبيل اللهو التي هي أفراس ورواحل » . ومع ذلك ، فقد كان عامل الغضب على أهل فاس قد نشطه لهجومهم بهذين البيتين :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمي ، ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا راعي السنين إلى الغمام الصيّب

ثم يذكر أنه اطلع بعد مدة على ما يشعر أن للبحرّي في هذا المعنى شعرا ذم به بغداد ، مما لم يقف هو عليه بعد ، ولم يطرق سمعه حين قال شعره هذا في فاس . ولكنه رأى أبا العلاء المعري يشير إليه منتقدا عليه ؛ ولذا فإن ما حصل بين الشاعرين ليس من قبيل الأخذ والتقليد . وإنما هو من توارد الخواطر ، كما يؤكد ذلك اليوسي نفسه . وكأنه يشعر بالندم مما صدر منه من الهجو فاستدرك قائلا : « وإنما استسهلت ، وأستغفر الله التمدح والافتخار ؛ لأن ذلك مباح في الشعر ، مسلوكة في سائر الأعصار والأمصار » . ثم أراد أن يبين عوامل عدم الانصاف له . فحصره في الكبر والحسد « وهما الداء العضال الذي هلك به إبليس » . وهو معجون في طينة الآدمي ، خاتما ذلك ببيان فضل الحسد ؛ إذ به تعرف منزلة المحسود وما له من مزايا يحسد عليها . ويأتي بأشعار كثيرة في مدح الحسد . ثم يعقب على ذلك بأن الناس ما زالوا يتخوفون من الحاسد . وقد قال الله تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد » (1) . ومن أجل ذلك لم يجد بدا من محاولة التوفيق بين هذين الموقفين المتقابلين . ويختم هذا الموضوع باستعراض لأبيات قالها الكميت الأسدي ، وأخرى لعروة بن أذينة وغيرهما كأبي نواس وأبي تمام . وهي أشعار تستحسن الحاسد . وينتهي بنصيحة يقدمها لمن ابتلى بالحسد فكان حاسدا .

(1) الفلق : 5 .

الحديث الواحد والعشرون (1) :

وفي الحديث الحادي والعشرين يكشف صاحب الكتاب عن مظهر من مظاهر جانب مهم من جوانب نشاط الطلبة المغاربة واهتماماتهم في أعوام السبعين والألف . فيذكر أنه بينما كان في طريقه لزيارة شيخه وقدوته محمد بن ناصر مارا بسجلماسة إذ وجد فتنة ثارت بين الطلبة في معنى كلمة الاخلاص وهي : لا إله إلا الله . وهي ، لما دار فيها من جدل ونقاش شارك فيه اليوسي تصويبا وتوفيقا ، كانت سببا لتأليفه كتابه « مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص » . ثم إنه في زيارة أخرى مر بسجلماسة أيضا فوجد فتنة أبشع وأشنع ثارت بين هؤلاء وعامة المسلمين وخاصتهم هناك فيما يجب على المسلمين الاشتغال به في علم التوحيد حتى يصونوا إيمانهم وثبت عقائدهم . وانتهى أمر هذه الفتنة إلى بلبله في صفوف المسلمين حتى غالى البعض فكفر من لم يشتغل بهذا الفن ، ولم يأكل من مذبوحات من لم يتأكد من معرفته بذلك من العوام معرفة على غرار ما يشتغل به العلماء جدلا ونقاشا . وهكذا شاع بسبب هذه الفتنة بين الناس تكفير من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقرره هؤلاء . كما « شاع عندهم أن من لم يعرف : « لا إله إلا الله » أي النفي والاثبات على التقرير الذي يقرره العلماء فهو كافر » . حتى كان دخول اليوسي إلى البلد . فجاءه الناس أفواجا يشتكون . فبين لهم أن المقصود معنى الكلمة لا هي ؛ إذ هي عربية والأعجمي مثلا لاحظ له في دلالتها ، وإنما هو مطلوب بمضمونها فيعتقده . « فكان ذلك باعثا للطمأنينة في نفوس العوام » .

الحديث الثاني والعشرون (2) :

ويتحدث في الحديث الثاني والعشرين عما اعتاده قومه من فرارهم من السواد وتشاؤمهم من كل أسود ، مما يدخل ضمن تحكيم الأمور العادية وعلاقتها بأعمال الانسان وتأثيرها كسبب مشر لتتائج معينة . حتى أنهم

(1) المحاضرات : ص 76 - 80 .

(2) المحاضرات : ص 80 - 86 .

كانوا لا يلبسون ثوبا أسود ، ولا يركبون فرسا أدهم . ويتخلص من قصته التي استهل بها موضوعه ، إلى شرح قضية عقائدية تتعلق بالأمور العادية مبينا أن « هذه الأمور يضل فيها العامة والقاصرون من الخاصة » ، شارحا لحكمة الله تعالى في ترتيب الأشياء على ما يظهر أنها مسبباتها ، في حين أن وقوعها في الواقع والحقيقة عندها لا بها . حتى يصل إلى حديث « لا عدوى ولا طيرة » ، وإلى حديث « فر من المجنوم فرارك من الأسد » ، فيحللها ويشرحها بما يوفق بينهما ، خاتما ذلك بتقرير الحقيقة التي أفرغها في ما يلي : « إن الأمر العادي ، كما أنه لا تأثير فيه إلا لله تعالى ، كذلك لا ارتباط فيه عقلا . وإنما هو أثر يجعله الله تعالى . وتستمر عادته تعالى به اختيارا منه . ومتى أراد أن يخرقه خرقه . كما شوهد ذلك في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء » .

الحديث الثالث والعشرون (1) :

وفي هذا الحديث يذكر صاحب المحاضرات أن سفرته التي كتب فيها هذا الكتاب كانت زمن البرد ، وأنه أثناءها قدمت له فاكهة الشتاء . فكان كل ذلك ظرفا لما قاله من أشعار بالمناسبة حمدا لله ، وتسجيلا لحكمته التي استخلصها اليوسي مما حدث له وشاهده فيها . فأنطقه بما يجري مجرى الحكم . وهو قوله : « سبحانه من جعل رحمته في عذابه أي النار ، وجعل عذابه في رحمته أي المطر » . وبذلك تكون الأمور التي يياشرها الانسان ذات وجهين نافع وضار . كما أن الله سبحانه وتعالى يجعل كل ما هو نافع ضارا وبالعكس .

الحديث الرابع والعشرون (2) :

ثم يتعرض في الحديث الرابع والعشرين إلى سقوط الزاوية الدلالية اثر معركة بين السلطان رشيد بن الشريف وجيوش الرئيس أبي عبد الله محمد

(1) المحاضرات : ص 86 .

(2) المحاضرات : ص 86 - 98 .

الحاج الدلائي ببطن الرمان فهزمهم ، وذلك أوائل المحرم فاتح سنة تسع وسبعين وألف . فدخل على محمد الحاج ، الذي تخلف عن المعركة لكبر سنه ، أولاده وإخوته وأظهروا جزعا شديدا « فلما رأى منهم ذلك قال لهم : ما هذا ؟ ان قال لكم : حسبكم . فحسبكم . يريد الله تعالى » . ويتخذ اليوسي هذه المقالة ليقيد بحثا نفيسا صوفيا يجعل الدنيا مائدة لعباد الله وكل له دوره عليها . ويسوقه هذا إلى الحديث عن الحكم ، وأنه يستقيم مع الكفر ولا يستقيم مع الظلم والجور ، ضاربا لذلك مثلا بفرعون في عدله رغم كفره . ثم ينقل كلاما لأرسطا طاليس ، وللفرس ، ولسيدنا على كرم الله وجهه يتعلق بأن العدل هو كل شيء في سياسة الحكم . ثم يذكر الحديث الشريف الذي جاء فيه : « صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس : الأمراء والعلماء » . وينقل في هذا المعنى كلاما مأثورا عن أبي بكر وعمر وعمر بن العاص وغيرهم ، مبينا أن الحكم بلية يبتلى بها الانسان . فقد يكون قصده الاصلاح ، ولكن ينساق بوسوسة الشيطان إلى الهاوية . ولعل ذلك حسد من الشيطان لبعض أبناء الطريق . « ومن ابتلى بهذا قريبا أحمد بن عبد الله بن أبي محلى (بضم الميم وفتح الحاء وفتح اللام المضغفة) وكان صاحب ابن المبارك التستائوتي في الطريق » . وكان معاشر لابن أبي بكر الدلائي . وكان البلد اذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت . فراوده ابن أبي محلى على الخروج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فلم يساعفه الدلائي ؛ « لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر » . فانطلق إلى ذلك ابن أبي محلى بمفرده فوقع في شر وخصام أداه إلى فوات الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل . ثم انه لم ينته إلى أن ذهب إلى بلاد القبلة ودعا لنفسه . وادعى أنه المهدي المنتظر . ويجر اليوسي ادعاء الرجل أنه المهدي المنتظر إلى أن يتحدث لنا عن دعوى الفاطمية ، وعن أول من تظاهر بالتشيع ببلاد المغرب فيما علمه اليوسي ذاته وهو مهدي الموحدين . ويقص علينا بداية أمره . ويتحدث لنا عن موقف الفقهاء من دعوى الطائفة التومرتية المهدوية . ثم يتحول للحديث حول الرئاسة والشهرة وشهوة النفس لذلك ، والارتباط بالمصلحة والمفسدة ومراتب الممتحنين في ذلك ، في تحليل فلسفي عجيب يذكر فيه أمر عمر بن عبد العزيز . كما

يتعرض إلى موقف مالك من المقاتلة عن الامام لما سئل : « أيقاقل عن الامام . قال : ان كان كحمر بن عبد العزيز فنعم . والا فدعه ينتقم الله من الظالم بالظالم حتى ينتقم من الظالم » .

الحديث الخامس والعشرون (1) :

ويستهل حديثه هذا بإيراد قصه حول بعض الزهاد أنه أخبر بعض الصالحين بوقوع حرب بين قوم مقيمين بعيدا عنه ببعض المراحل . ولما سئل هذا الفقيه هل جاء أحد من هناك . « قال : لا ، ولكن أخبرني بذلك قلبي . وقلبي لا يكذب علي . فقد جربته » . ويتخذ اليوسي هذه القصة مناسبة ليتناول موضوعا دقيقا وشائكا يتعلق بالصالحين والأولياء ، والمريدن والعارفين . كما يتعلق بالانباء بالغيب بالرؤى وبالمشاهدة ، وما يقع في ذلك من كذب ومن استخدام للجان وغيره . فيقسم الغيب المدعى الاطلاع عليه إلى قسمين : قسم للعقول وصول إليه ، وقسم مرجعه الموهبة ولا مجال فيه للعقول . ثم يتناول ما يسمى بالكشف عند الصوفية بالتحليل والشرح ، موضحا العوارض والأسباب التي تجر إلى الخطأ فيه ، متعرضا إلى إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وفي الغيبة ، وأنه مع ذلك لا يعول على من يحدث بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ونحوه ولو كان المحدث صديقا . وأما ما يكون منه في اليقظة فالغلط فيه أيضا ممكن ، محذرا أن يغتر الانسان حتى ولو في حق نفسه ، وأن لا ينخدع لغيره . ثم ينتقل في حديثه إلى ما يقع لبعضهم من الغيبة وما يقع من وجد السماع ناصحا بتجنب ذلك ؛ إذ قد يكون من دسائس الشيطان لما في تلك الحالة من غياب العقل إلا ذلك الذي يتواجد بالسماع لا عن اختيار فأمره غير هذا . وهكذا يستمر في هذا الموضوع ماسكا بأطرافه ، واقفا على جزئياته ، مساعدا على توضيح كل ما يمس به ، منتهيا إلى أهل الفراسة من الصالحين وأنه قد يقع لهم اختلال فيظن بهم الكذب . وانما يؤتون من عدم تمام التجلي أو من غلط في فهم خطاب أو نحو ذلك .

ويأتي بوقائع وقصص تناسب المقام بدون أن يعلق عليها . ولكن لهجته فيما كتب لهجة المقتنع الهاضم المصدق ، حارصا على أن لا يفسر ما كان من هذه الأشياء التي تتصل بالغيب على خلاف الشريعة والحقيقة فلا قدرة ولا تصرف إلا لله ، وأن ما يتوهم أن للولي امكانية تحويل مقدور الله من أن يحصل بقظة إلى حصوله مناما بدعاء ذلك الولي مثلا فانما هو وهم وباطل لا يكون . فان علم الله ومقدوره الأزلي لا يتغيران . ثم يخرج ما ظاهره ناتج عن دعاء الولي بتأويل لا ينبو عن العقل تقبلا وفهما ، مميزا في ذلك ما بين المريد ، وهو الذي يحتاج إلى التوجيه والتنبيه والإرشاد ، وما بين العارف الكامل ، فهو وإن كان غير معصوم ولا مستغن عن التحفظ أعرف بأحواله في كل ما يقع منه . ويستمر في بحثه هذا إلى أن يتسع له المجال للحديث على أبناء الصالحين الذين يغتصبون مراكز آباءهم بالوراثة بعد موتهم فيغررون بالجهلة والعوام حتى يقولوا وهم يتبعونهم : ذلك ما وجدنا عليه آباءنا من قبل ، وأنا خدمة دار فلان إلى غير ذلك . وهو أمر قد نقشى في عصره . كما يتناول بعد ذلك أشياء لا تتجاوز المحيط الذي كان محور هذا الحديث ، في نفس طويل وبيانات واضحة ، وإرشاد وتوجيه .

الحديث السادس والعشرون (1) :

ويتناول في الحديث السادس والعشرين ما اشتهر في بلاد المغرب وشاع في عصره من إقامة الصوفية للزوايا باطعام الطعام خصوصا في البوادي ، فبين أن هذا ما كان معروفا عند المتصوفة الأقدمين . وهو ليس من الأمور اللازمة ؛ إذ لا يعرف له أصل لا في الكتاب ولا في السنة . وإنما هو من قبيل القرى وإكرام الضيف . وهو قدر مشترك بين الناس . والصوفية وأهل القدوة أولى بكل خلق محمود . ويتعرض إلى ما كان من إكرام النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته للوافدين عليهم ، مبينا أنه « لما ظهرت الصوفية لم يعرف من حالهم وجود هذه الزاوية والقيام بكل وارد من الجنس وغير الجنس كما هو اليوم » ، متعرضا إلى الفتوح التي كانت ترد

على شيوخ الزوايا ومنها ينفقون على السواردين والمقيمين ، منتها إلى القول بأنه « لا يمكن الاعتراض على من أكل ولا من ترك ، ولا من أطعم ولا من ترك ، ولا من اشتهر ولا من اختفى » .

الحديث السابع والعشرون (1) :

وينقل في الحديث السابع والعشرين جواب أحد الطلبة عن لوم وجه له على إقامته في قرية أهلها أهل سوء فأجاب بقوله : « قد رأيت كل ما ترون من مساويها . وعلمت منها ما تعلمون أو أكثر . ومع ذلك فأجد قلبي غير نفور منها . فأحمد الله تعالى إذ قضى على الإستقرار فيها ولم ينفر قلبي عنها . فلو قضى بها ونفر قلبي عنها فكيف يكون العيش عند ذلك ؟ » . وإذا باليوسي يتخذ من هذا التعليل منطلقا لشرح ما أراد ذلك الطالب من قوله هذا ، موضحا ما أودع الله في طبع الآدمي من الميل إلى الشيء أو النفور عنه . وهو ما يسمى بالملائم والمنافر ، مقسما لهما شارحا لمقتضاهما ، موضحا إمكانية أن يجعل الله في قلب الشخص ميلا إلى غير الملائم . ذلك أن الإنسان قد قدر الله عليه قبل أن يوجد كل ما يلقاه من هذه الأشياء ، وأن مرد ما يشعر به من النعيم والعذاب إلى تحكيم القلب فيه . ولا عبرة بالمحسوس إلا بما فيه من التأدية إلى ما في القلب ، مرجعا ما جاء في الحكم من أن النعيم وإن تنوعت مظاهره فأنما هو لشهوده واقترابه ، وأن العذاب وإن تنوعت مظاهره فأنما هو بوجود حجاب . « فسبب العذاب وجود الحجاب . واتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم » ، مرجعا إلى هذا المعنى كل ما يذكر من الحنين إلى الأوطان والبكاء على المراسم وذكر الأحباب النازحة والأيام الصالحة ، ومن مرارة الفراق ولوعة الاشتياق . ثم يأخذ في الاتيان بأشعار كثيرة تناسب هذا الموضوع ، وبقصص تقرره وتؤكد ، منتها إلى ما كان منه وهو نازل « بخلفون » على نهر « أم الربيع » من ذكر من كان معه في الزاوية الدلائية وما أثار فيه ذلك من أشعار الحنين والشوق ، وما كان منه وهو بمدينة مراکش سنة ثلاث

وتسعين وألف . « وقد بقيت الأملاك في « خلفون » ، والكتب وما معها في « مكناسة » ، وبقيت العلائق في « جبال فازاز » ، والقبيلة في « ملوية » . فكان كل ذلك مثيرا لما قاله من أشعار كلها قد أثبتت في الديوان مع بيان مناسباتها غالبا .

الحديث الثامن والعشرون (1) :

أما الحديث الثامن والعشرون فهو الذي استمده مما أورد ذكره عن المرباط الخير أبي عبد الله محمد بن أبي بكر العياشي من أنه يجنح إلى الخلوة والابتعاد عن شرور الناس . فيجعل موضوع حديثه هذا الاعتزال عن الخلق طلبا للسلامة لاجفاء واستيحاشا ، مستعرضا أشعارا عبر فيها أصحابها بأساليبهم عن تفضيل هذه العزلة والميل إليها . فيتعرض إلى ما قاله أبو العتاهية والامام الشافعي ، وطرفة بن العبد ، وأبو فراس ، ومحمد بن تميم وأبو العلاء وأبو الطيب المتنبي . وبعد الإنتهاء من ذلك يأخذ في شرح سبب تبرم الناس بالناس واستيحاش بعضهم من بعض ، واستنقاص البعض للبعض . حتى إذا ما انتهى من ذلك ، تحول إلى بيان أن فساد الزمان وأهله لم يكن خاصا بزمان دون آخر . غير أن الانسان — لكونه لا يدرك الشر والأذى في من لم يدركهم من الناس أو أدركهم ولكن في أخريات حياتهم وليسوا من معاصريه — يتخيل أن الزمان الماضي أحسن من زمانه ؛ ولذا « فلا تسمع إلا : فسد الزمان ، وذهب الناس » . وهنا ، يستعرض أشعارا كثيرة تتغنى بهذا الوهم كأنه حقيقة ثابتة مقطوع بصحتها . ومن أجل ذلك يرى أن الأكمل للانسان الرضى بوقته . فانه بذلك يفوز بالأدب مع الله تعالى وبحمده وبشكره ؛ كما يفوز براحة قلبه والسلامة من التشوق والتطلع ، وبسلامة الصدر نحو أهل زمانه ، والقيام بحقوقهم واعتقاد الخير في أهله والانتفاع بهم . ولكن كل هذا لا ينسي اليوسي أن يرى أنه « لا بأس بذكر الماضي من صلحاء الإخوان والحنيين إلى الأوطان وأن ذلك يعد من حسن العهد » ، خاتما بحثه هذا بالتعرض إلى حكم ما وقع من

استنقاص الزمان واستنقاص أهله وسبّ الدهر بحسب النظر الشرعي أصلا وفرعا ، منتهيا إلى أن هذا الذي يصدر من الاستنقاص والسب غير مقبول ، وإن كان غير محرم إذ لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لا يكون التعيين . ولكن الأولى الامساك عن ذلك إلا ما يصدر منهم من المناكر تنصبصا عليه بقصد الاحتراز مع الانصاف . فان ما يكون من ذلك هو نافع ومفيد ، كما فعل أبو العباس زروق في النصيح الأنفع وفي عهدته المريد . « غير أنه صعب مفتقر إلى تحقيق في المدارك وتضلع في العلوم وتجربة تامة . فان الأمور قليل منها ما يكون أمرا حقيقيا يذم من كل وجه أو يمدح . وأكثرها إضافي اعتباري . يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد والأزمنة والأمكنة والأحوال »

الحديث التاسع والعشرون (1) :

ثم خصص هذا الحديث لشرح رأيه وطريقته في مخالطة الناس ومخالقتهم وليبين طباعه معهم ، وكيف يلزم أن تقع معاملتهم للحفاظ على المودة ومكارم الأخلاق . فيعمد لذلك إلى قصة واقعية تتعلق به ، حصلت فصولها لما خرج من فاس أيام الحصار في رفقة من الطلبة والفقراء والتجار . فمروا على « جبل زروال » ، ووافوا رجلا من أهل محبتهم كان يتصرف لليوسفي في أموره وأمور من معه من الناس . وكان الرجل أدرد . وكان كلام أهل تلك البلاد متغلغا عن القادمين لا يكادون يفهمونه . فكان الرجل يراجع اليوسفي ويناجيه فيما يعرض له من الأمور . « حتى إذا فرغ من حديثه رفع رأسه وقال : هكذا يكون الكلام ، مفصحا بها . فكنت في هذا أباسط أصحابي ، فأقول لهم : إن هذه الجملة من كلامه وقع فيها حكم بطريق القصر . وهو موقوف على أشياء قبله لم يحصل واحد منها » . ويتعرض إلى تلك الأشياء . ثم يبين أنه كان يستبشر عند محادثته الرجل له موها إياه أنه قد حصل ما ذكره له وأنه قد استصوب رأيه . ثم يقول اليوسفي : « فكنت أسأله وأتركه بحاله رفقا به وجبرا لخاطره وتقللا من الشغب » . ويختم كلامه هذا بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن « مداراة الناس صدقة » .

(1) المحاضرات : ص 138 - 141 .

الحديث الثلاثون (1) :

ثم يذكر في الحديث الثلاثين ثلاثة أحداث له استفاد منها أموراً تتعلق بالعلم وطريقة الاستفادة منه ، وأن العلم كله حسن محتاج إليه بما في ذلك ما يتعلق بخدمة اللغة وقواعدها ، وأن طريقة النحاة في ضبط القواعد من اللغة العربية أمر صحيح بين ؛ إذ قد علم « كيف كان أئمة العربية القدماء يستقرون النحو واللغة من أفواه العرب ويضبطون لغة كل قبيلة في ذلك » . أما القصة الأولى فهي التي ذكر فيها أن سفرته إلى « جبال الزبيب » وسفراته في زيارته للشيخ عبد السلام بن مشيش قد مكنته من ضبط لغة أهل تلك الجبال الذين كانوا يكسرون آخر الموقوف عليه بتتبعها واستقراءها وبيان غلط أهل الآفاق الذين يريدون محاكاتهم بدون وجه ولا فهم . وأما القصة الثانية فيذكر أنها وقعت له أيام الشباب عند دخوله الزاوية البكرية الدلائية فوجد شيخه أبا عبد الله محمد بن محمد المرباط قد جمع خطباً تقدم بها « إلى أهل الوقت ليكتبوا عليها تقریضاً » . فساهم اليوسي في ذلك . ووقعت لفظة « القطائف اللطائف » الواردة في تحريره موقع النقد من طرف الشيخ المذكور . فرام هذا الأخير تبكيته . فأجابه أبو علي اليوسي بما استفاده من مقامات الحريري من استعمالها وكيفية استعمالها . فتلون وجه الشيخ وخجل ، ولم يراجعها بكلمة . وأما الثالثة فكانت أيام طلبه للعلم في بلاد القبلة حتى أخذ بطرف من العربية . فحدث له انتقال إلى ناحية مراکش . « وذلك في دولة السلطان محمد الشيخ » . وأخذ في فنون أخرى كالأصول والمنطق والكلام وترك العربية . فلما دخل السوس الأقصى واتصل بشيخه أبي فارس عبد العزيز أحمد الرسموكي وجد أهل تلك البلاد يشتغلون بتصريف الأفعال « ويستحضرون معها النصوص من الخلاصة ونحوها » . فحضر معهم . فاذا بأبيات الخلاصة تشذ عن فكره لطول العهد بها . فاضطر إلى أن يجتمع مع الطلبة ممن أحب أن يسمع الخلاصة بعد العشاء الأخير بساعة أو أكثر ، يقطعون الليل كله في المجلس . وينقل هو كل ما في شرح المرادي بأكمل التقرير والتحرير .

وختموا ذلك في نحو شهر وعشر ليال . وفي ليلة ختم الكتاب رأى فيما يرى النائم كأن العذرة تخرج من جوفه على فمه « كحالة القيء متصلة حتى انفصلت » عنه . فلما انتبه وقع في فكره أن ذلك هو الجهل بذلك الكتاب أو ذلك العلم خرج عنه . فسر وفهم من تصوير ذلك بصورة النجاسة « أن الجهل قبيح وأن العلم كله حسن محتاج إليه » .

الحديث الحادي والثلاثون (1) :

أما الحديث الحادي والثلاثون فهو حديث حول تأخير الأذان وتأخير الصلاة عن أول الوقت وما وقع في ذلك مع العلماء ، ضاربا الأمثلة بالبعض منهم ، ساردا الوقائع التي حصلت لهم ، مبينا حكم التأخير بإيجاز ، ومعددا الأعدار المقبولة لتأخير الصلاة عن وقتها .

الحديث الثاني والثلاثون (2) :

ويتحدث في الحديث الثاني والثلاثين عن الذرائع وسدها وفتحها ضاربا لها مثلا بما استفاده من معاملة أبي بكر الدلائلي للعكاكرة أولاد عبد الحق بن منزول حينما نزلوا بساحته هاربين من بلادهم ، وكانوا جباعا ووجدوا زرع زاويته . فأذن لهم بدرسه وأكله . فأنكر عليه ذلك ولده الكبير أبو عبد الله محمد بن أبي بكر « وقال : إن هؤلاء فساق أو كفار . ثم هم ظلام محاربون . فكيف تعينهم وتبيع لهم زرع المساكين ؟ » . فأجابه والده بأن ما فعله لم يكن إلا من أجل المساكين ؛ إذ بهذا الصنيع قد اتخذ عند العكاكرة يدا . فاذا استلبوا مسكينا يوما واشتكى له . كتب إليهم فلا بد أن يراعوا هذا الخير . ثم يذكر اليوسي أمثلة من هذا الباب للمواق والقاضي اسماعيل بن حماد في مجاملة الحكام ، ذاكرا جواب الإمام مالك وقد عوتب عن تركه الجماعة عندما يدعوه السلطان فيسرع إليه . « فقال لهم : لو لم أفعل هذا لم تر بهذه البلدة سنة قائمة » ، متوسعا

(1) المحاضرات : ص 143 - 145 .

(2) المحاضرات : ص 145 - 148 .

في هذا الموضوع ، منتقلا من الذرائع وسدها إلى تقرير ما هو مقرر في أصول الشريعة من أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح .

الحديث الثالث والثلاثون (1) :

ثم يخصص هذا الحديث بالتربية الصوفية وماذا يحسن أن يلقي للعوام ، وماذا يلزم لترويض النفس وترغيبها والتدرج بها حتى لا تصطدم فيقع الانتكاس . يتناول هذا الموضوع بمناسبة قصة من بعض الفقراء عن شيخ له من أهل العصر للتصدي لصحبة المريدين . وذلك حينما سأله وارد عليه يريد السلوك والولاية . فأجابه الشيخ بقوله : « لا ، أقل من أن يطلب أو يترجى الولاية » . فوضع الفقير يده على جبهته ثم انصرف . كما جره لذلك أيضا حديث حول استحلاء الطاعة وما قاله الواسطي رحمه الله من أن استحلاء الطاعة سموم قاتلة . فحاول بهذا الحديث أن ينبه إلى أنه ليس كل كلام يلقي لعوام المتوجهين ؛ إذ إن ذلك غلط في التربية « إما جهلا وقصورا وإما تمويها وتظاهرا بالنهايات » . ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن طريق التدرج في العبادة والانتقال بالنفس من مرحلة حظوظها إلى مرحلة تتجه فيها للعبادة من أجل عبادة الله مخصصة له الدين ، موضحا معنى تأليف القلوب ، ومنها إلى ما جاء في القرآن العزيز من ذكر لنعم الآخرة وأن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، متبسطا في الموضوع ، معالجا هذه القضية معالجة صوفية دقيقة تكشف عن مدى تعرفه على ذلك وأنه أهل للخوض في مثل هذه المواضيع رغما عما جاء في خاتمة الحديث من قوله : « وقد تكلمنا في ما لساننا من أهله . وتعدينا طورنا . فنستغفر الله تعالى ، وبالله تعالى التوفيق » .

الحديث الرابع والثلاثون (2) :

ثم يشرح في هذا الحديث جانبها مهما من جوانب العقل البشري وصلته بالوجود فهما وإدراكا ، وما يستطيع أن يستخرجه من المعاني والعلوم

(1) المحاضرات : ص 148 - 153 .

(2) المحاضرات : ص 153 - 161 .

والمعارف التي يتغذى بها . فيقوى بها وتلطف طاقته للفوز منها بالجديد . وهذا الإستعداد للعقل من الموجودات قد شهدت له الآيات القرآنية . ثم إن العقل هذا بقدر فطنته وجموده من ناحية ، وباختلاف مواهب الله وفتوحه من جهة أخرى ، يفوز بما لا يدركه الآخرون ، ويستفيد ما يستغربه أهل الجمود . « ومن هذا ما وقع للحكماء في البراهين وفي الفلسفة ، وفي الهندسة وفي أنواع الصنائع والحرف وأصناف الحيل وضروب الغرائب في الأفعال والأقوال . ومن رزقه الله تعالى فهما من لدنه ونورا كان أقوى وأكثر . حتى لا يكاد يطير طائر إلا استفاد من طيرانه أو يصر باب إلا استفاد من صريره ، أو يتكلم متكلم إلا استفاد من كلامه ما لم يرده المتكلم ولم يخطر له على بال . وهذا مشهور عند أهل الطريق من العارفين والمحبين والمريدين الصادقين رضي الله عنهم » . ثم يورد أمثلة من ذلك في أشعار الشعراء كأبي نواس وهو يتحدث عن الخمر وقد جاوز شهر شعبان العشرين منه فيحدث أبو نواس الشاربين على أن يتناولوها بالقصاع الكبار . « فقد ضاق الزمان على الصغار » . فصار هذا الذي أشار إليه أبو نواس عند أهل الطريق « موعظة في الاكثار من العمل الصالح والتشمير للتزود للمعاد ولا سيما عند إيناس قرب الأجل وخشية فوات الأمل » . ويعضد هذا الحديث بأمثلة من هذا القبيل « تتضمن ما قاله هو أيضا من أشعار تتحمل علاوة على معانيها الظاهرية ما يستطيع استخراجها أهل الطريق من المعاني الباطنية .

الحديث الخامس والثلاثون (1) :

وفي الحديث الأخير من الأحاديث المتنوعة التي اشتمل عليها الكتاب قبل أن ينتقل إلى الخاتمة والأبواب وهو الحديث الخامس والثلاثون يتناول اليوسى الرد على من انتقده من قضاة العصر في تلقيه للأوراد . ذلك أنه بعد وفاة أستاذه المحقق السني أبي عبد الله بن ناصر لم يزل يسعى في نفع الناس بتعليمهم ما يحتاجون من دينهم ، وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار ،

منبها إلى أنه كان يفعل ذلك « على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة ، وعلى وجه التعليم والإرشاد ، لا على وجه المشيخة ولا على وجه التربية » . فانتقده في ذلك بعض القضاة المتصدين للتدريس بقوله : ما ألبأ فلانا — يعني اليوسي — إلى تلقين الأوراد . فهل رأيتم مريدا بشروط الارادة قط ؟ « فتصدى له اليوسي في هذا الحديث بالرد والإفحام ، منبها إلى أن « انتقاص الزمان وانتقاص أهله لا يوجب انقطاع الدين ولا ارتفاع النصيحة » . ثم يواصل رده بشرح مستفيض لما أصبح عليه الزمن وأهله وأن حكم الله تعالى جار في كل بحسب حاله ، وأن الدين مستمر ، والحق ظاهر . ثم إن هذا الذي هو حاصل من المريدين حاصل في طلاب العلم سواء بسواء . ومع ذلك فليس موجبا لتعطيل التدريس ولا للاعراض عنه .

وبانتهاء الحديث السابق يتغير مسلك اليوسي في كتابه هذا . لا من حيث الشكل فقط . ولا من حيث المضمون فحسب ؛ إذ نجد الرجل يغير طريقته التي سار عليها منذ البداية في فصله بين الحديث والحديث . فبينما كان يستعمل عند نهاية كل موضوع يتناوله كلمة « لله الأمر من قبل ومن بعد » ، ايدانا بأنه أوقف تحريره وأنهى كلامه ، نجده الآن يستعمل كلمة « باب » للفصل بين الموضوع والموضوع . وأما من حيث المضمون فائنا نجد الرجل فيما سبق من الجانب الأهم من كتابه هذا شخصية علمية منتجة جمعت فيما أنتجته بين الأخبار والأحداث التي ألت به أو مر بها أو سمع عنها في عصره أو قبله ، وبين البحوث العلمية والتحليل العقلية والمنطقية راسما انطباعاته مستخدما علومه ومعالجا مواضيع متنوعة الأغراض والفنون من التصوف إلى الفقه ، والكلام واللغة والأدب . أما فيما بعد ذلك وعند انتهائه إلى هذه المرحلة بالذات فائنا نجد اليوسي يقف موقف المستهلك لما عنده من المعارف غالبا . فيكتفي بالجمع والعرض لأشعار حفظها أو ساعدته الظروف على ضبطها وتقييدها وذلك في سبعة أبواب تلتقي حول محور واحد هي الملح الادبية مع بيان ما اشتمل عليه وطابه من غزارة ما اطلع عليه وألم به واستوعبه . ولعل هذا الجزء من الكتاب مع ما تقدم متفرقا هو الذي أراد منه بالخصوص أن يؤكد لمن لم يعرف قدره من منافسيه ومخاطبيه أن له باعا لا يدرك ، وأن له شأنا لا ينتهي إليه . وحسبه

من ذلك أنه عرض في أبواب محدودة العد ومعينة الأغراض ما لا يبعد كثيرا عن مائة صفحة من أقوال وأشعار السابقين والقدامى من حكماء وعلماء وأدباء ، موشحا ذلك في بعض المناسبات بما عنده من إنتاج أو رأي أو ملاحظة لا تنزل عن ذلك المستوى الذي عند من حشر نفسه في زمرةهم ممن سبق الالماع إليهم .

الباب الأول : (1)

يتوج كامل تلك الأبواب بالبواب الأول الذي يعقده للتحديث عن الغرض الذي من أجله عقد هذه الأبواب ، وللتنبية إلى ما عسى أن قيل أو يقال عن الشعر والشعراء وذم ذلك مما توحى به الآية القرآنية الكريمة . فبين المسوغات التي بها يرتفع الضير والخرج من قول الشعر على قائله وذم ذلك منه . فهو يقول في هذا الباب من الأبواب السبعة التي أتى بها في المرحلة الثانية من مرحلتي تأليفه للمحاضرات : « رأيت أن ألم بملح من الأدب تلميحا للكتاب ، وإمتاعا لذوى الألباب . فان النفس ملول والأذن مجاجة . وفي التلون والانتقال تطيب لها وتنشط ... وذلك كله مما يصلح للمحاضرات ، ويوافق شروط الكتاب ... » ، مواصلا حديثه على هذا النسق مستشهدا بكلام فحول الفكر العربي على لزوم ترويض الذهن والقلب بالتنوع ، وعلى الحاجة إلى طرائف الحكمة ، مثبتا لأشعار كثيرة في أغراض مختلفة لشعراء جاهليين وإسلاميين ، ومن آثار الفقهاء والخلفاء الراشدين لينتهي إلى أن قول الشعر لا منقصة فيه ولا ضير . وها هو النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصحابه يقولون الشعر فيقرهم ولا ينكر عليهم .

الباب الثاني : (2)

ثم يعقد الباب الثاني لعرض نبذة من كلام الأذكياء مما شأنه أن يصدر عن ذكي ولو صدر عن غيره . « فيدخل في هذا ما يقع للحكماء ، وما

(1) المحاضرات : ص 162 - 180 .

(2) المحاضرات : ص 180 - 193 .

يصدر عن غيرهم كالصبيان والنساء وجفاة العرب . وتدخل الأجوبة المسكتة ونحو ذلك » . فينتقل كثيرا من الحكم والأمثال عن الحكماء العرب . ثم رباعيات مختلفة كقوله : « أربعة لا يثبت معها ملك ... » وثلاثيات كذلك كقوله : « ثلاثة لا يستغنى عنها ... » كما يذكر للقمان الحكيم ولأكثم بن صيفي ولبرز جمهر الفارسي وغيرهم .

الباب الثالث : (1)

ثم ينتقل في الباب الثالث إلى نبذة من أبيات المعاني والألغاز العربية مشيرا إلى ما بين البابين السابق واللاحق من مناسبة ، آتيا بأشعار لشعراء مختلفي الطبقات والعصور ، من الجاهلية إلى ما بعدها ، حالا للألغاز شارحا للمعاني ، مثبتا لبعض المساجلات الشعرية وغير ذلك مما قال عنه : « انه لا ينحصر » وإنما أشار إلى ما وقع منه للعرب .

الباب الرابع : (2)

ثم ينتقل إلى الباب الرابع فيخصصه « للمضحكات وكل ما تنبسط به النفس من الملح منبها إلى أن هذا النوع للعقل فاكهة كما أن الحكمة غذاؤه وقوامه . ثم هو يستعرض هذه الملح بأسلوب سهل واضح يتنوع شعرا ونثرا من مختلف العصور والطبقات .

الباب الخامس : (3)

وينتقل في الباب الخامس إلى أخبار الثقلاء الذين هم « أشد الخلق ضررا على العقلاء ، وأثقل من رواسي الجبال على قلوب النبلاء » ، مستعرضا في هذا الباب شيئا مما قيل حول الثقلاء من أقوال وأشعار غير متعرض إلى ما صدر عنهم إلا قليلا :

(1) المحاضرات : ص 193 - 198 .

(2) المحاضرات : ص 198 - 210 .

(3) المحاضرات : ص 210 - 215 .

الباب السادس : (1)

ويخصص الباب السادس لبذة مما علق بفكره في الوقت من الأوليات فيعرض فيه إلى الأول في بابه من أحداث حدثت أو أمور وقعت أو أقوال قيلت . فيقول مثلاً : « أول نبي ورسول آدم عليه السلام ... أول من سخرت له الخيل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ... الخ » .

الباب السابع : (2)

ثم يأتي إلى آخر الأبواب . وهو الباب السابع الذي ختم به هذا الجزء من الكتاب . فيفرده ببذة من المواعظ والوصايا ، ذاكرًا في ذلك ما روي منها عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم . ثم يستعرض مجموعة من الحكم التي جمعت لعلي رضي الله عنه على حروف المعجم . فيأتي بالحكم المبدوءة بحرف الألف ثم الباء وهلم جرا إلى أن يأتي على جميعها . فيختم بحرف الياء منها ، منتقلاً بعد ذلك إلى ما قيل في الوعظ من نثر وشعر لأبي العتاهية وغيره .

خاتمة : (3)

ولعله قد هزته هذه المواعظ والوصايا إلى الجو الصوفي وما يتبعه من التوفية بحقوق من يرى في ذكره منهم تبركا وتأدية لواجب . ومن أجل ذلك يعقد خاتمة الكتاب بقوله : « خاتمة أسرد فيها من حضر الآن في فكري ممن لقيت وتبركت به ممن اتسم بالخير واشتهر بالصلاح تبركا بهم . فانه قد قيل : تنزل الرحمت عند ذكر الصالحين . وقال قائل : اسرد حديث الصالحين وسمهم . فبذكرهم تنزل الرحمت . واحضر مجالسهم تنل بركاتهم . وقبورهم زرها إذا ماتوا . ولم أتعرض لأحوالهم ، لأن ذلك

(1) المحاضرات : ص 215 - 217 .

(2) المحاضرات : ص 217 - 235 .

(3) المحاضرات : ص 235 - 237 .

يطول ، والكتاب غير موضوع له . فاكثفت بذكر أسمائهم » . ويأتي بعدد صالح لا بأس به منهم ومن مشائخه ممن وقع له منهم استفادة علم أو صلاح أو تربية . وبذلك ينتهي كتاب المحاضرات الذي عقدنا العزم على أن نتخذه رائدا لنا في دراسة حالة البلاد المغربية في القرن الحادي عشر الهجري متخذين منه منطلقاً ومن غيره عوناً ومساعداً وسنداً .

المغرب السياسي

التصدع السياسي :

لم تستطع أحلام المنصور السعدي (1) التي تمخض عنها قيام الأباطورية المغربية التي عرفت على يديه امتدادا إلى السودان وترامي أطراف في الصحراء (2) أن تقف طويلا داخل العاصفة الهوجاء التي أثارتها الخلافات الناشئة بين أبنائه (3) عقب وفاته ، والتي غذاها قصر النظر من أهل الحل والعقد من رجالات فاس ومراكش ، وأذكى لهيبها ضعف التدبير وسوء التأويل للنصوص الشرعية (4) التي قد يكون اعتمدها المتحاربون في نصرة الأخوة المتخاصمين على خلافة أبيهم الراحل (5) .

فكان أن تحولت الأنظار والسواعد عن البناء إلى التقويض والهدم وتقلصت ظلال العرش المتصدع . فلم يبق في إمكانه أن يشمل غير بعض المراكز الكبرى أو ما قاربها حتى انتهى مبدئيا إلى مراكش وبعض أحوازها

(1) هو السلطان أحمد المنصور السعدي (986 - 1012 هـ / 1578 - 1603 م) .

(2) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 237 ، ط 2 .

(3) الزاوية الدلائية : ص 21 ، المطبعة الوطنية ، الرباط .

(4) بايع أهل فاس زيدان بن المنصور اثر وفاة هذا الأخير فبايع أهل مراكش أخاه أبا فارس مقابل استبداد الفاسيين بالأمر دونهم واستخفافهم بشأنهم فأفتى الفاسيون بوجوب قتال المراكشيين عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما . (نفس المصدر : ص 22)

(5) كان محمد الشيخ المأمون في السجن عند وفاة أبيه فأخرجه منه أخوه أبو فارس لينوبه في محاربة أخيه زيدان . فلما انتصر عليه في معركة نهر أم الربيع وفر المنهزم إلى تلمسان قلب ظهر المجن لأبي فارس (ن . م . : ص 22) .

من جهة ، وإلى فاس والبعض من أطرافه من جهة أخرى ، ثم إلى الانقراض
والذوبان نهائيا .

هذا الوضع الذي صدع السلطنة السعدية ، فقسمها إلى دولتين (1) ،
أطعم الأجانب (2) في استغلال هذا الثراء وتلك الامكانيات والطاقات
الهائلة التي يتمتع بها المغرب الأقصى ، والتي وفر له الكثير منها المنصور
الذهبي ، كما بعث في الكثير من العناصر الوطنية - بدوافع مختلفة -
الطمع في الفوز بشلو من الأشلاء أو ناحية من النواحي .

فبينما يتقاسم البلاد أبنائها ، يتسابق الدخلاء والأجانب على تخريبها
وعلى اقتطاع البعض من أطرافها وسواحلها .

ف فاز بعض السعديين بفاس والبعض الآخر بمراكش (3) . وفاز
النصارى بملييلة وسبته ، وطنجة وأصيلة ، والجديدة والعرائش والمهدية (4) .
وفاز العياشي بسلا وقد انضمت إليه السهول الغربية من أزموور إلى تطوان (5) .
وذلك تحت إلحاح قومه وذويه خصوصا منهم أهل الزوايا من أمثال امام
الشاذلية آئذ ، وهو العربي الفاسي (6) ، وشيخ الزاوية بتمغروت وهو محمد
ابن ناصر (7) ، وشيخ الدلاء وهو أبو بكر المجاطي مؤسس الزاوية الدلائية (8)
كما فاز ابن أبي محلي (9) فالفقيه الحاحي (10) ثم أبو الحسين السملالي (11)

(1) دولة سعدية بفاس وأخرى بمراكش . (المسألة المغربية : ص 15) .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) مقدمة تحقيق ديوان اليوسي للمؤلف : ص 19 .

(4) المسألة المغربية لمحمد خير فارس : ص 18 وما بعدها .

(5) مجلة دعوة الحق : سن 10 ، عد 4 ، ص : 140 - 143 .

(6) مجلة البحث العلمي بالمغرب : سن 3 ، عد 7 ، ص 13 .

(7) الزاوية الدلائية : ص 57 .

(8) المصدر السابق : ص 43 .

(9) الاستقصاء للناصري : ج 6 ، ص 30 ؛ الزاوية الدلائية : ص 132 . (وهو يفتح
الميم والحاء وكسر اللام المضممة) . وهي رواية مخالفة لما جاء في الحديث الرابع والعشرين
من كتاب المحاضرات .

(10) نفس المصدر السابق : ص 35 .

(11) الاستقصاء : ج 6 ، ص 70 و ج 7 ، ص 13 ؛ ايلين قديما وحديثا لمحمد المختار
السوسي : ص 49 .

بامارات سوس التي عرفت مناطق شاسعة بقيامها صراعا داميا ، وفتنا طويلة عمت سجلماسة ودرعة والمنطقة الجبلية الممتدة ما بين تارودانت وازداغة والقطر السوسي بصفة عامة ، الذي كانت ايليج عاصمة له . وتتاح الفرصة أيضا للخضر غيلان مناصر العياشي ومساعدته للفوز بشمال المغرب (1) . كما تظهر في هذه الأثناء قوة هائلة من الصوفيين الصنهاجيين المجاطيين برئاسة محمد الحاج الدلائي لتفوز هي الأخرى بمناطق شاسعة من المغرب الأقصى (2) .

فاذا أضفنا إلى هذا بعض الانتفاضات والفتن (3) والدسائس والمؤالاة للدخلاء والنصارى (4) ، ثم تبينا مدى الزمن الذي استغرقه المغرب الأقصى وهو في فوضى سياسية واجتماعية خطيرة (5) ، تصورنا إلى أي مدى بلغ التدهور ، وإلى أي سوء انتهت الحالة.

وطبيعي أن تبحث كل قوة من هذه القوى الداخلية المتطاحنة عن سند يعزز جانبها ويأخذ بساعدها عليها تجد فيه نصيرا يمكنها من الغلبة على خصومها ، وهم من اخوانها وأشقائها . وهكذا نجد البعض من هؤلاء يتخذ من الأجانب دعامة تناصره وتؤازره (6) . بينما نجد البعض الآخر يستند على العناصر الدينية فيتخذ منها أهم سلاح وأشد حدة ومضاء (7) . خصوصا وأن الظروف في البلاد قد ساعدت على تهيئة النفوس واعدادها في تحمس لتقبل ذلك بما قد أحس المغاربة به أنفسهم من خيبة الأمل في الحكام الشرعيين الذين استهتروا بالقيم ، وتحذوا الشعور القومي بالمجاهرة

(1) الزاوية الدلائية : ص 217 وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق : ص 157 .

(3) الاستقصاء : ج 6 ، ص 10 وما بعدها .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) أي منذ مقتل المنصور السعدي إلى عهد المولى اسماعيل العلوي .

(6) وذلك مثاما فعل الشيخ المأمون السعدي الذي احتفى بالاسبان وسلم لهم العرائش .

الاستقصاء : ج 6 ، ص 10 وما بعدها .

(7) وذلك بالنسبة لأمثال أبي عبد الله العياشي السلاوي . الاستقصاء : ج 6 ، ص 8 و 50 .

و 52 و 84 ...

بالفساد (1) وبما أعلنوه من تفريط في حقوق الوطن وتمكين للأجانب منه ، وتساهل في اقتطاعه جزءا جزءا ، حتى أخذت أراضيها تضيق منه وتقدم هدية إلى أعدائه النصارى الذين اقتطعوا الحدود البعيدة بالأمس حينما أخرجوا المسلمين من ديارهم واغتصبوا منهم كامل أرضهم بالأندلس التي عمل على انقاذها يوسف بن تاشفين في الماضي القريب (2) . وقد سبق له أن ضرب على يد العابثين من أبنائها . هؤلاء النصارى الذين انتهوا من بعد ، وعلى يد بعض المتسابقين المتراخين على الحكم في عهد الدولة السعدية ، وقبل قيام الدولة العلوية ، إلى حدود البلاد القريبة بالسواحل الشمالية من المغرب الأقصى . فكان هذا مدعاة للتألب على هؤلاء ، ومبررا للدعوة للجهاد في سبيل الله والوطن . وهي الدعوة التي تزعمها الفقهاء وأصحاب الزوايا في الأطراف وداخل الصحراء ، وقد انضم إليهم علماء الأمصار ، بما فيهم علماء عاصمة الأدارسة التي فر منها كثير من العلماء الذين استدعاهم الأمراء المتساهلون لاستخدامهم في أغراضهم ، ولاتخاذهم وسيلة تخدير للامة مستصدرين منهم الفتاوى التي تبرر عمل هؤلاء وما أقدموا عليه من توأطئهم مع النصارى ، وتوليهم إياهم والركون إليهم ، والتي تحول ذلك العمل من مستوى الخيانة إلى مستوى المشروعية ، ومن كونه مفسدة يجب درؤها إلى كونه مصلحة تخدم الاسلام والمسلمين بموجب الحاجة والضرورة المفتعلة . وهي مناورة لا يستطيع الاقدام على تبنيها من له في قلبه ذرة ايمان بدينه ، ولا أدنى حرمة لوطنه وقومه ؛ لما في ذلك من التنكر للأول والمروق منه ، ولما في ذلك أيضا من الخيانة للثاني والمسكر به . فضاعت وراء هذه المساعي خيرات البلاد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا .

الحالة العامة :

فلقد تسبب عن تمزق البلاد سياسيا تدهور اقتصادي هائل ، حيث إن الأنظار قد اتجهت كلها إلى المجهود الحربي . فكانت المضاربات بين

(1) الاستقصاء : ج 6 . ص 6 وما بعدها .
(2) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 60 وما بعدها .

متزعمي الحركات الثورية في المناطق المختلفة من البلاد من جهة ، وبين
نهم النصارى وشره الدول التي استهوتها خيرات البلاد ، فأرادت استغلالها
ثم التأمين على مصالحها ووجودها في الداخل من ناحية أخرى . خصوصا
وهي التي ابتليت بموجب متاخمتها للمغرب وصراعها معه بما ذاقت
من بأس أبنائه في ماضي الزمن ، وبما عرفتهم به من قوة ضاربة في وجه
الصليبية في الجناح الغربي من الأمة الاسلامية .

فكانت الخيرات المستثمرة تصدر إلى الخارج لتوريد البارود والسلاح إلى
الداخل (1) . وكانت كثرة الغارات من البعض على البعض تتسبب في
غالب الأحيان - عن قصد أو عن غير قصد - في إقلاق المحاصيل الفلاحية
الزراعية منها والحيوانية (2) ، كما تتسبب أيضا في عرقلة الحركة التجارية
الداخلية وإضعافها خوفا من النهب والغصب والأتلاف والمصادرة التي
كانت تجري في رابعة النهار (3) . فلا أمن على الأرواح . ولا صيانة
للأموال . ولا ثقة في الرواج .

ولعل هذا من جملة الأسباب التي شجعت على الهجرة من المدن إلى
القرى والجبال التي لا تنالها يد السلطان العاث .

وكان حصادا لهذا أيضا تفكك اجتماعي خطير . فلم تبق هناك
روابط اجتماعية تشد المجتمع بعضه إلى بعض . كما أصبح هوى الناس
موزعا بين الأطراف المتنازعة . وتحولت الزوايا ومعامل المتصوفة - بمقتضى
ذلك - إلى نواد سياسية مقصودة أو غير مقصودة تكتسي حلة دينية .
وانقلب - تبعا لذلك - رجالها إلى زعماء أحزاب تلتف حولهم الأنصار
في حلقات ذكر وأوراد يعلمونهم دينهم من جهة ويحثونهم على الجهاد
لإنقاذ بلاد الإسلام والكشف على الباغين والعابثين من جهة أخرى .

(1) المسألة المغربية : ص 17 وما بعدها ؛ الزاوية الدلائية : ص 178 - 179 و 181 وما بعدها
وكذلك ص 193 و 196 منه .

(2) الاستقصاء : ج 6 ، ص 9 وما بعدها .

(3) نفس المصدر السابق .

وبالجملة ، فإن هذه الحروب بين السعديين بعد المنصور الذهبي قد أفسدت على البلاد المغربية غالب مظاهر أمنها وحضارتها . حتى انتشرت الفوضى داخل المدن والقرى ، وأصبح الناس يشعرون بأنهم في سفينة تائهة تعبت بها الزواجع وتتقاذفها الأمواج فتسوقها نحو نهايتها ، بينما كان نوتيوها يتقاتلون ويتناحرون ويتخاصمون ، فسادت الفوضى وعم البلاء .

وجو مثل هذا خير مناخ للانتهازيين والعابثين والمخربين . فكان طعما مشجعا على ظهور المشعوذين واستفحال أمرهم بمحاولتهم استغلال بساطة العامة والذهماء والذين يسميهم اليوسي بالعوام . أولئك الذين استأثر بخاطرهم هول ما رأوا وما سمعوا . فاستحكم فيهم الخوف والهلع من المصير العاجل المحتوم ، والمنقلب الآجال الذي لا ريب فيه . فهبوا وراء كل ناعق أملا في النجاة ، وحرصا وراء الفوز والسلامة .

فلقد تولد عن هذا الضياع والتهيه ، وهذه الفوضى والفتن ، اشفاق من سوء المنقلب وبحث عن النجاة في الدارين . فوجدوا السبيل إلى ذلك في الاقبال على مدارس القرآن العظيم سردا وتلاوة وحفظا ، لا حذقا وتفهما وتعمقا ، قاصرين عن التعمق والنظر في العلوم ، مكتفين بظاهر العلوم الشرعية حفظا وتقليدا ، لا دراية وتحليلا .

أحس هؤلاء الانتهازيون بما يعتمل في نفوس معاصريهم . فهبوا للاستفادة منه أبعد الاستفادة . وراحوا يخلطون ويغالطون ويوهمون ويوقعون الناس فيما يزيدهم حيرة وذهولا . حتى شوهوا الحركة الدينية الاصلاحية وأبعدوها عن السلامة المرجوة ، وفتنوا أبناء البلاد . لولا قيام بعض الطرق والزوايا التي حافظت على السنة وأحيت الدين ، واحتضنت العلم وراحت ترجع في النفوس الثقة في المستقبل . مما خفف من الكارثة التي كانت تنتظر البلاد . فأنقذها الله منها .

وهكذا نجد تلك الحيرة قد بلبت الأذهان ، وصرفت أولئك العوام - للبحث عن السعادين ومن حيث لا يشعرون - وراء من تجلبوا بالجلاليت

المستعارة فبدت عليهم ظاهرياً مخايل المعرفة والصلاح والتقوى . وما هم في الحقيقة الا أولئك الذين اندسوا في صفوف الدعاة المصلحين كما أشرنا إليه من قبل ، متسترين بتلقين الناس دينهم وبتعليمهم وتربيتهم وتمكينهم من وسائل الاسعاد والفلاح الموهومين . يفعلون كل ذلك ليصلوا إلى غاياتهم وأغراضهم القربية في انتساب إلى الزوايا والطرق أمام أعين الناس . وهم في حقيقة أمرهم — ليسوا الا مشعوذين قد كشفت الأيام عنهم فكشفت عن دجاجة أو عن معتوهين أو يهود أو زنادقة ماكرين . « فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس . فيقع به الاغترار للجهلة والأغمار » . (1) .

ثم كان قيام الدولة العلوية فحاولت لَسَمَ الشعث ، والضرب على يد العابثين ، والقضاء على الفرق الضالة وأصحاب المذاهب الهدامة مما ساعد البلاد على التخلص من الحالة التي انتهت إليها أيام السعديين . وذلك بفضل الحكمة والصرامة اللتين تحلى بهما الأخوان : باني الدولة المولى رشيد ، ومركز أركانها المولى اسماعيل .

الحياة الاجتماعية

عناصر المجتمع :

إنه لبيدو طبيعيا أن تترتب على ما ألم بالمغرب الأقصى من الحروب السياسية التي دارت بادىء ذي بدء بين الأخوة السعديين ثم استمرت بينهم وبين غيرهم بحجة أو بغيرها ، على غرار ما يكون من شأن المتهالكين على السلطة والجاه ، وأن تكون عواقب لذلك تلك الفوضى التي عمرت ما يزيد على نصف قرن وشملت الأمن وغيره من مرافق الحياة ، وأن ينجم عن ذلك ما انتاب البلاد من مظاهر اجتماعية ففرعت أصولها إلى فروع وجذور استقل كل فرع منها بجانب تألفت من مجموعها الحالة الاجتماعية التي نريد التعرف إليها ومحاولة تحليلها تحليلًا ينتهي بنا إلى تحليل جوانب مهمة من مخلفات ذلك العصر مما ظهر على سلوك أصحابه أو آثارهم المتنوعة تنوع الأغراض والجهات .

فالمعروف أن المغرب في ذلك العصر قد تنازعته قوتان اثنتان : ثانيتهما تختفي تحت ظلال الأولى وتستر بها مبينة أبعادا خطيرة في تخطيط بعيد .

أما أولى القوتين فتتمثل في الصراع الداخلي القائم حول الخلافة والسلطة . وهي التي قامت أساسا بين أبناء المنصور السعدي . ثم شملت المغرب قاطبة بما أحدثه الناثرون على السعديين من حروب وفتن (1) .

(1) الاستقصاء : ج 6 ، ص 7 و ما بعدها .

وأما الثانية فهي التي تعمل على اغتصاب التراب المغربي مبتدئة بسواحله ،
ومنتهية إلى ما عسى أن تساعد الظروف على تمكينها منه استيلاء واستغلالا ،
والتي تتمثل فيما أسماه المغاربة بالنصارى مشيرين بذلك إلى جميع القوى
الأجنبية المعادية من أسبانية وبرتغالية وغيرهما . ومن هنا كانت صيحة
شيوخ الزوايا والطرق منادية بالدعوة إلى الجهاد ورد المعتدين المغيرين ،
وإيقاف المتآمرين عند حدودهم . وتبعاً لذلك ، برزت من هنا وهناك قوى
تبنى هذه الدعوة وتعلن موالاتها إلى هذه الزوايا والانتساب إليها متحلية
ظاهرياً بخصال أصحابها ، ومتظاهرة بالظهور بمظهر أربابها حتى تسنى
لكثير من العناصر المشبوهة ، والتي في نفوسها مرض ، التسلل تحت نقع
الغبار وظلام الضباب ، وفي غمرة جلبه الخيل وصهيلها وقعقة الأسلحة وما
تحده دائماً من فوضى يتبعها اختلال اجتماعي شامل يأخذ غالباً بيد ذلك
التسلل ويساعده في صفوف من اتسموا بالخير والصلاح وعرفوا بصدق النية
وسلامة الطوية ليتخذوا لأنفسهم مركزاً بينهم ويدسوا أنوفهم في مجامعهم ،
ويعملوا عملهم الهادف إلى الخراب والتدمير والفساد والافساد (1) .
فليس غريباً بعد كل هذا أن تظهر في الميدان مجموعات مختلفة الأغراض
ومتباينة الأهداف . يلتقى البعض منها حول هدف المصلحة العامة بينما يلتقي
البعض الآخر حول هدف المصلحة الخاصة أو مصلحة الدخلاء .

وهكذا تتشابه المظاهر وتتنافر المقاصد وتباین الغايات ، وتتميز القوى
وتظهر عوامل البدع والخرافات والتخطيط بين الحقائق والأباطيل التي
نجد اليوسي نفسه يشير إليها ويندد بها ويشهر بأصحابها ، ويحذر الخاصة
والعامة من الوقوع فيما يجرون الناس إليه (2) .

فبينما تتفجر الوحدة القومية تحت هذا الضغط عن عصابات نائرة
على الحكم المتداعي ، وتتجلى سابقاً أو لاحقاً في مدعي المهودية وغيرهم
من أمثال ابن أبي محلى والخضر غيلان ، تقوم زعامات دينية تبني مقاومة

(1) الاستقصاء : ج 6 ، ص 60 ، 83 ؛ ج 7 ، ص 13 و 47 علاوة على ما جاء في كتاب
المحاضرات متفرقا من ظهور عناصر تستر بالصلاح وتعمل على نقيضه .

(2) المحاضرات : ص 38 - 40 ؛ تقييد في العسكرة لليوسي : ص 167 - 186 .

النصارى وتدعو إلى الجهاد الشرعي لصد الكفر عن أرض الاسلام ، ورد البغى عن أهل الإسلام . كما تحث الناس على القيام بدينهم تفقها فيه وإقبالاً على عبادة ربهم وتمسكاً بهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم ، والتزاماً بالطاعة والذكر في ظل مشايخ الدين من أهل الطرق والزوايا بما في ذلك من اندس في صفوف هؤلاء وفي غفلة من أعين الناس ، فيتظاهرون بالصلاح والولاية ويعملون في الخفاء على تشويه الصلاح والولاية ، وعلى التخريب والهدم ، والافساد والمغالطة ، وتقشيع التلبيس والتخليط ، وتكدير صفاء الدعوات الدينية الإصلاحية ، ممن ضرب اليوسي بهم مثلاً في كتابه المحاضرات من أمثال اليهودي الذي ظهر بسجل ماساة (1) في ثوب الصوفي المنقطع للعبادة ، والزاهد في الدنيا ، والداعي إلى الهداية والمقبل على التربية والوعظ والارشاد ، وأمثال غيره ممن كان على شاكلته (2) من المعتهين أو الملبسين ، ومن أمثال العكاكزة الذين استشرى خطبهم في كثير من المناطق المغربية (3) ومن غيرهم ممن ليست لهم غاية سوى الانتهازية والظفر بالمتعة والفوز بالجاء في العاجلة على حساب الدين والآجلة ، استغلالاً منهم لسلامة طوية الغافلين والجاهلين والأغبياء ، كما عبر عنهم اليوسي في كتابه المحاضرات أيضاً مما ستعرض بالإشارة إليه فيما يأتي ضمن بحثنا هذا .

وإذا بثأثرى القرن الحادى عشر الهجرى طائفتان متقابلتان في الغايات والمقاصد . ظهرت الطائفة الأولى في شخص عناصر الدجل والاستغلال الذين لا هم لهم إلا افساح المجال للحريات الطائشة المطلقة ، والمتعة الزائفة الباغية التي ليست لها حدود ولا يقف في وجهها رادع ، تسعى للتمكن من بغيتها ولو على حساب العقيدة وافسادها ، وعلى حساب الدين وفتنة المسلمين فيه . واشتملت الطائفة الثانية على عناصر صالحة مصلحة تتألف من الفقهاء المخلصين ومشايخ الطرق الزهراء ، الذين تهتمهم سلامة دينهم وسلامة معتنقيه ، يحرسون على ذلك بما انتهوا إليه من اجتهاد في تحريض

(1) المحاضرات : ص 40 .

(2) المحاضرات : ص 38 و ما بعدها .

(3) تقييد في العكاكزة : ص 67 و ما بعدها .

المسلمين على التمسك بالدين والتفاني في خدمته ، والعمل على سلامة الأخلاق وصيانة الأعراض والترفع على الدنيا والموبقات .

وبين هؤلاء وهؤلاء يوجد الدهماء ومن يعبر عنهم اليوسي بالعوام . وهم الذين باسمهم يكون كل شيء . وهم المحرومون من كل شيء ، اللهم الا ما يسمح لهم به مما يبقيه ينهقون وينعقون ولا يدرون . فما أشبههم بتلك الكرة المقذوفة التي تتجاوزها الرياح العاصفة وتميل بها الأرجل الراكلة ، وهي لا تدري أنها كبش الفداء وميدان السباق وغاية الغايات هـ

الظواهر الاجتماعية :

هذه هي أهم العناصر والدواعي التي تولدت عنها الحالة لاجتماعية التي سادت المجتمع المغربي آثذ فساد معها وانتشر جو قاتم من الفوضى العامة والاضطراب الديني والفساد السلوكي وما تبع ذلك من ظاهرة التفسخ الأخلاقي والانحلال الفكري والكسل العقلي ، والذوق المريض الذي هيمن على الكثير من الأوساط والمستويات الخاصة منها والعامة ، والذي تجلى في كثير من الحوادث التي اشتمل على البعض منها كتاب المحاضرات ، والتي تكشف في الوقت نفسه عن بساطة في الدهماء وسذاجة في كثير من الخاصة ، وغباء تبرم منه اليوسي في لهجة الامتعاض والحسرة ، في جماعة ممن تبدو عليهم مخايل المعرفة والتفقه والتقدم فتنتطلي معه عليهم حيل المحتالين ومكر المخادعين وشعوذة المشعوذين الذين تركوا صاحب المحاضرات يدعو الناس في حديثه هناك إلى الحذر منهم ، وإلى اليقظة والانتباه لحبائلكم فيقول : « ... فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس . فيقع به الاغترار للجهلة الأغمار .

ما أنت أول سار غره قمر — ورائد أعجبتة كثرة السدمن

وقد يشايعة من هو على شاكلته من الحمقى والفجار . وشبه الشيء منجذب إليه . ان الطيور على أجناسها تقع . فيغتر الأغبياء بذلك إلا من عصمه الله ... فالحذر مطلوب ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه

الفساد على الصلاح والهوى على الحق والبدعة على السنة إلا من عصمه الله
وقليل ما هم « (1) .

مغالاة التبرك :

ثم إن من العاهات الاجتماعية التي لا يخفى أمرها في هذا العصر
ما كان متفشيا بين الناس ، خصوصا منهم سكان البوادي والأرياف ،
من الاعتقاد المبالغ فيه فيما اشتهر بينهم بالولاية والصلاح . فنرى القوم
يعتقدون فيما هو من الخرافات والأوهام ، ويقعون فيما هو مذموم
شرعا ومنهي عنه نهيا لا يبعد عن النهي عن مخالفة الدين بالتعلق بالبدع
الرائقة والاعتقادات الباطلة .

يتجلى ذلك فيما هو من قبيل ما ذكره اليوسي في كتابه المحاضرات
عن أهل سجلماسة وغيرها ولا سيما النساء منهم ؛ حيث كان أولئك القوم
يكثرون من زيارة شجرة في تلك البلاد تدعى الشجرة الخضراء . فيعلقون
عليها الخيوط ويطرحون تحتها الفلوس ويعظمونها وينوهمون بشأنها . حتى
إنهم ينسبون إليها الترهات والأراجيف فيقولون : « قالت الشجرة الخضراء :
هذا زمان السكوت من قال الحق يموت » (2) . وقريب من هذا أيضا
ما كان يقع بالقرب من مقام الشيخ أبي يعزى لشجرة أخرى وكدس من
حجر يقال لها البقرة (3) . ومن هذا القبيل أو قريب منه ما كان يجري
في بلاد المصامدة وفي بلد رجراجة بالذات . فلقد نقل اليوسي أنه رأى
هناك كثيرا مما شاهده بسجلماسة وقد « بقي عندهم موروثا خلفا عن
سلف » (4) . غير أنه وإن لم يصرح بهذه الأشياء الكثيرة ولم يتعرض
إليها بالتفصيل والتصريح فإنه قد أشار إلى أنها تقع عند زيارتهم للصالحين
وأنه استقبحها منهم ولم يرض لهم أن يتمسكوا بها ويستمروا عليها حتى

(1) المحاضرات : ص 38 .

(2) المحاضرات : ص 36 .

(3) نفس المصدر .

(4) نفس المصدر : ص 37 .

لا يغالوا فيها . ثم هو لا يرى بأسا في أن يقول مذبلا ومعقبا : « ومع ذلك لم أدخل نفسي من التبرك بأمور قريبة لا بأس بها » (1) . وليس يخفى أن اليوسي نفسه قد عرف بهذه البساطة والسذاجة مع الغلو المفرط في الاعتقاد المطلق فيما يحكي حول الأولياء من غرائب وعجائب تصدر عنهم في حياتهم بل وحتى بعد مماتهم .

فالمعروف عن هذا الامام العالم الصالح أنه رجل زوار للصالحين ، شديد التعلق بهم ، لا يحط رحاله من زيارة لضريح حتى يشد الرحال إلى مقام أو ضريح . ومثل هذا كما هو ظاهر لا حرج فيه ولا نكير عليه . بل هو مما يؤكد زهده وورعه وصلاحه وسلامة إيمانه وتغلب الجانب الصوفي فيه . غير أن الذي يترك الانسان يتعجب ولا يستطيع أن يخفي تعجبه هو ما كان من اليوسي وهو يتحدث عن أشياء يتعب العقل دون أن يبلغ إلى قبولها والارتياح إليها فضلا عن التصديق بها والتسليم بحقيقة أمرها . ذلك أننا نجد الرجل - وهو المثقف ، والامام النابغ المبرز في المعقول والمنقول ، والمتضلع في الشريعة والفائض في بحور الحقيقة - يتحدث عن هاتيك الأشياء حديث المؤمن بها الذي لا يجد حرجا في اثباتها وفي التصريح بثبوتها بل ومحاولة اقناع مخاطبيه بسلامة وجهته فيها ، من ذلك الذي نقصده ونشير إليه ما جاء في جوابه عن سؤال يتعلق بالمرید الذي مات شيخه قبل أن يستكمل عليه التربية هل يستخلف شيئا آخر أو يقتصر على الأول ؟ فأجاب عن هذا السؤال بحديث مطول أثبت فيه ما يشعر أن لبعض المشايخ خصوصية التصرف بعد الموت كالحياة أو أكثر (1) . ومن ذلك أيضا ما أثبتته في كتابه المحاضرات في حديث طويل أيضا حول الأولياء وقضاء الحاجات عندهم . فذكر أن بعض الأولياء لهم هذه الخاصية . وأن المولى ادريس بن ادريس رضي الله عنه قد وجده أيام مقامه « في مدينة فاس ترياقا مجربا في كل ما أنزل به من حاجة ... » (2) .

(1) المحاضرات : ص 61 و ما بعدها ؛ أجوبة اليوسي : ص 207 - 208 .

(2) نفس المصدر السابق .

كل هذا الذي جاء في كتاب اليوسي قد يساعدنا كثيرا على تصور عقلية هذا المجتمع خصوصا من الجانب الروحي فيه ، وعلى ادراك أبعاد معتقداته ، بعد أن تعرفنا إلى وجهة نظر الرجل الذي انتهى به إلى ما يوهم أن الأولياء بعد موتهم تأثيرا في مجرى الحياة العامة . وهو أمر يصعب تصور التوفيق بينه وبين وجوب اعتقاد الوحداية لله تعالى الذي لا يتصرف معه من العباد في ملكه أحد بلغ ما بلغ . علاوة على ما هو معروف من انتهاء صلة الإنسان بالحياة منذ اللحظة التي يفارقها فيها تأثيرا وتكليفًا وعملا .

وليس معنى هذا الذي ذكرنا أننا نرفض منزلة الأولياء وجلالة قدرهم ومكانتهم عند المولى سبحانه وتعالى . ولكننا نريد أن نبين أن الخوض في مثل هذا بمثل ما تقدم من اليوسي في حكمه الجازم أو القريب من الجازم لا يحسن من العلماء المتضلعين من أمثال الامام أبي علي علما وصلاحا وتقوى .

والظاهر أن هذا الذي أثاره أبو علي اليوسي مما كان يجري بسجلماسة ورجراجة لم يكن في الأغلب مقصورا عليهما فقط ، ولا مقصورا على ناحية معينة من البلاد المغربية فحسب ، وإنما هو مثال مما كان يجري بكثرة في ذلك الظرف داخل ذلك المجتمع ؛ إذ لا خصوصية ولا ميزة لجهة دون أخرى .

وليس بعيدا أن يكون من آثار هذه الاعتقادات في الأولياء ما انتشر بين الناس وصار مقبولا ومقطوعا به أن كثيرا من المواضع بالبلاد قد اشتهرت بالبركة وآثار الصالحين ، فأخذوا يقيمون لها المزارات ويحددون لها مواعيد زيارات دورية كل عام تقام عندها الاحتفالات وتذبح من أجل تكريمها الذبائح ويقصدها الناس من كل الجهات الدانية منها والقاصية ؛

أما الامام اليوسي فاننا نجده لا يمالئهم على كثير منها مما جعله يثير هذه القضية في كتابه ولا يستطيع أن يخفي ما أولاها الناس من اعتقاد بها وإقامة الزيارات لها فقال : « وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بآثار

الصالحين ووقع التغالي فيها » (1) . وينقل إثر ذلك - بعقلية غريب أمرها - ما حكاه صاحب التشوف عن رباط شاكر وما كان يلقاه من قبول واقبال فيذكر « عن منية الدكالية رضي الله عنها أنها حضرت ذات مرة في رباط شاكر . فقالت لمن معها : إنه حضر هذا العام في هذا الرباط ألف امرأة من الأولياء . فانظر إلى عدد النساء فكيف بالرجال » (2) .

- يتبع -

(1) المحاضرات : ص 37 .
(2) نفس المصدر السابق .

فهرس موضوعات هذا الجزء (1)

الصفحة	الموضوع
83	تمهيد
87	حياة اليوسي
87	— مولده ونشأته
90	— دراسته
93	— بقية أخباره
102	كتاب المحاضرات
102	— الحديث الأول
104	— الحديث الثاني
106	— الحديث الثالث
107	— الحديث الرابع
108	— الحديث الخامس
109	— الحديث السادس
109	— الحديث السابع
111	— الحديث الثامن
112	— الحديث التاسع

(I) أما فهرس المصادر فسيكون عقب الجزء الثاني إن شاء الله .

112	— الحديث العاشر
113	— الحديث الحادي عشر
113	— الحديث الثاني عشر
114	— الحديث الثالث عشر
114	— الحديث الرابع عشر
116	— الحديث الخامس عشر
117	— الحديث السادس عشر
118	— الحديث السابع عشر
118	— الحديث الثامن عشر
119	— الحديث التاسع عشر
119	— الحديث العشرون
121	— الحديث الواحد والعشرون
121	— الحديث الثاني والعشرون
122	— الحديث الثالث والعشرون
122	— الحديث الرابع والعشرون
124	— الحديث الخامس والعشرون
125	— الحديث السادس والعشرون
126	— الحديث السابع والعشرون
127	— الحديث الثامن والعشرون
128	— الحديث التاسع والعشرون
129	— الحديث الثلاثون
130	— الحديث الواحد والثلاثون
130	— الحديث الثاني والثلاثون
131	— الحديث الثالث والثلاثون

131	— الحديث الرابع والثلاثون
132	— الحديث الخامس والثلاثون
134	— الباب الأول
134	— الباب الثاني
135	— الباب الثالث
135	— الباب الرابع
135	— الباب الخامس
136	— الباب السادس
136	— الباب السابع
136	— خاتمة
138	— المغرب السياسي
138	— التصدع السياسي
141	— الحالة العامة
145	— الحياة الاجتماعية
145	— عناصر المجتمع
148	— الظواهر الاجتماعية
149	— مغالاة التبرك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعبر الأدبي في القرن الحادي عشر الهجري (1)

بقلم الدكتور الشيخ :
عبد الحميد محمد المنيف

انتحال الصلاح (2) :

ولعل هذه الظاهرة التي تفشت بين الناس مما سهل على كثير من المشعوذين والدجاجلة الأقدام على تغليب القوم والدخول عليهم من هذا الباب حتى يسهل عليهم جرهم لحضيرة الإعتقاد بهم والتسليم بصلاحهم ، خصوصا وأن الظروف العامة بالبلاد - في القرن الحادي عشر الهجري - تساعد على ذلك وتدعو له كما سبق أن بيناه . ومن هنا لا نستغرب ما ذكره اليوسي وقد كان هو وأمير سجلماسة من بين ضحاياه .

فلقد ذكر في كتابه المحاضرات أنه قد هزت كافة الناس ، عامتهم وخاصتهم ، الأخبار عن ظهور رجل في المدينة يقال إنه من الأولياء . ثم بعد مدة تبين لديهم أنه رجل مصاب ، وأنه كان يشغل باستخدام الجان . يقول اليوسي في الموضوع : « ومما وقع بسجلماسة قريبا من هذه القصة أنه شاع في البلد ذات ليلة أنه قد ظهر رجل في المدينة الخالية . فأصبح الناس يهرولون إليه أفواجا . وخرجنا مع الناس . فقاثل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقول : صاحب الوقت . فلما بلغنا المدينة وجدنا الناس قد اجتمعوا من كل ناحية على ذلك الرجل . حتى أن أمير البلد - وهو محمد

(1) هذا هو الجزء الثاني من البحث وقد نشر الاول في العدد السابع من النشرة العلمية للكلية الزيتونية 1405 هـ / 1984 م .

(2) تابع للحياة الاجتماعية في الجزء الاول من البحث .

(بفتح) بن الشريف - خرج في موكبه حتى راه . فلما كثر الناس واشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل في قبة هنالك في المقابر . فأخرج كفه من طاق في القبة . فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون . وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة فقبلناه وانصرفنا . ثم بعد أيام سمعنا به أنه ذهب إلى ناحية الغرب وأنه سقط في بئر هنالك ومات . فظهر أنه رجل مصاب . وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك « (1) . ومثل هذا ما شاهده اليوسي نفسه في جبل من جبال « هسكورة » أعوام الستين والألف (2) . ومن نظائر هذه الوقائع وشبهاتها ما حصل من يهودي ظهر بسجل ماسة أيضا واشتهر باسم الصلاح . فوقع الإقبال عليه حتى كاد يفسد على الناس دينهم بالتحريف والتشويه . ثم كشف أمره وارتحل عن تلك الديار بعد أن تبين في النهاية أنه من قبيل المزورين والمبطلين (3) .

هذه بعض الملامح لمظاهر اجتماعية في هذه الفترة تساعدنا على تصور نفر كثير - إن لم نقل جل القوم - وهو يترامى في تهالك على من يدعى أو يظهر عليه بعض الانتساب إلى الدين ، مقبلا عليه بكلياته دونما تحفظ وحيطة أو حذر ، حتى أوقعه هذا الإقبال في حوادث أضعفت من شأنه وقللت من وزنه وأخذت بيد الدارس لتقف به أمام ثغرات الحركة الإصلاحية انثد وأوجه ضعفها . تلك التي ترجع - فيما يظهر - إلى اكتفائها في معالجتها للمجتمع ، توعية وإرشادا وتربية ، بالتربية الفردية الخاصة دون التربية العامة القائمة على التوجه بها إلى المجالس العامة تغشى أسواقهم وملتقياتهم وتسعى وراءهم هنا وهناك . وهو مسلك من الإتصال في التربية لا يتم في نظرنا نهوض بدون اعتماده ؛ إذ به تعم التوعية التي تنتهي إلى إنارة العقول وتسليحها بسلاح النفاذ والعمق حتى تتمكن من تمييز الحق فيتبع ، ثم يتخذ مطية للنهوض والوصول للكشف عن الباطل فينبذ وي طرح . وبذلك تظهر معالم الطريق ويكشف عن أمر العابثين المفسدين .

(1) المحاضرات : ص 38 .

(2) المحاضرات : ص 39 .

(3) نفس المصدر السابق .

انتشار الزوايا :

ومن الظواهر الإجتماعية التي عرفت لدى المجتمع المغربي واشتهر بها كما اشتهرت به ظاهرة قيام الزوايا والسعي للانتساب إليها حتى لا تكاد تجد من ليس له انتساب أو ارتباط بزواوية ما .

ولعل ما قد تولد عند العامة والخاصة من شعور باطنى بما للأولياء من مكانة وقرب ، ومن خصوصيات قد أورث في الناس هذا الارتباط والتقرب إليهم . فلقد سبق أن أبا علي اليوسي أشار إلى إمكانية وجود وجه من خصوصية التصرف للولي بعد موته . وهذا المعنى إذا ما استقر في الأذهان ، فزرع في أصحابها ما يشبه الاعتقاد في أن الولي يضر وينفع حيا وميتا ، نتجت عنه حتما الرغبة الكبرى في حب الانتساب إليه وإلى أمثاله من الأولياء ، كل على حسب ما اشتهر به من تكرامات وخوارق عادات ، أو من استقامة في السلوك والعبادة ، يسارع الناس إلى ذلك ليتم لهم التقرب ، وليأمنوا على أنفسهم شر الغوائل والزيغ والانحراف باعتبار أن هذا الانتساب يساعدهم على الوصول إلى الفوز في الدارين . فينجم عن هذا كله الإسراع والتسابق إلى حضور المجالس للتبرك والعبادة . وهو ما كان قد حصل بالفعل عند الكثير من الناس في ذلك العصر .

ومن هنا أصبح من الضرورات الأكيدة حفظ الأوراد والمواظبة على الأذكار والأحزاب حسبما يقرره شيوخ الطرق وأرباب الزوايا . وتبعا لذلك ، يكون الحرص على المواظبة على حضور اللقاءات والإجتماعات التي تعقد في المناسبات وفي الأوقات المعينة للذكر والتسبيح والتعبد بما يحدده شيخ تلك الزاوية من أدعية وأحزاب وغيرها . ما دام كل ذلك يضمن الرضى وخير الأمل .

وهكذا نشأت حلقات تعقد للأمداح والتغني بها . حتى أصبحت بدع السماع والتواجد والتغني وما يتبعه من شطحات ورقص — عند كثير من الناس وحتى عند بعض الخاصة — أمرا مقرونا بالأذكار ينتظر أصحابه الجزاء عليه .

كل هذا كان متشرا في هذا القرن . يسعى إليه المريدون ويسأل عنه المستفتون الذين ينتظرون من العلماء فيه فتاوى غلب على الكثير منها طابع التسامح والقبول قولاً وعملاً لا طابع الإنكار والنكير على أصحابها . ولعل هذا قد يفسر كثرة المواسم التي يقيمها الناس في الزوايا . ولربما يكون بعض ما يقام الآن من آثار تلك التي كانت في الماضي .

فإذا أضفنا إلى هذا ما أصبحت عليه الزوايا — من كونها مزارات يؤمها الناس فيجدون فيها إ طعام الطعام (1) ، وتوفير المرافق الضرورية بدون تعب ولا مشقة ، وهو من الأمور المحببة إلى النفس طبعاً ، تلك التي تميل عادة إلى الدعة والبعد عن المشقات والكلف ، خصوصاً إذا ما حققت مع ذلك السعادة والبركات ، ونالت درجة القبول والفوز بالأجر والرضى — تبيناً جوانب عديدة أخرى للعوامل التي تشد الناس بالزوايا وتؤلف منهم عناصر يتحمسون إليها ، ويدعون الجماعات للانضمام إليها واللاحق بحلقاتها والدخول في زمرة أصحابها . فتوزعت الزوايا عموم المغرب . ووجدت في الناس العطف والميل . واشتدت شوكتها . وقوى التحام الناس بها حتى كانت أحزاباً أو شبه أحزاب ، لها العصية ، وبها التعلق ، وعليها المدافعة والمغالبة وإليها الانتصار ، مما جعل اليوسي يشعر بخطورة هذا الأمر شعوراً دفعه إلى تحريض المريدين والمنتسبين على أن لا يدفعهم حب مشائخهم إلى التعصب لهم والتقليل من شأن غيرهم ، ومما دعا أيضاً السلفيين ورجال السنة في المغرب الأقصى إلى التصدي بالنكير والتشهير والتحذير من هذه الحركة ومن أبعادها وما قد تسبب فيه من مضار تلحق بالمجتمع المغربي (2) .

والظاهر أن هذا الذي حدث من الصراع القائم بين رجال السنة من جهة ، وبين من يسمون عندهم بالمبتدعة — وهم أصحاب الطرق

(1) المحاضرات : ص 117 ؛ الزاوية الدلائية : ص 45 وما بعدها ؛ وانظر أيضاً دوحة البستان ونزهة الإخوان : ص 334 — 335 .

(2) مجلة دعوة الحق : سن 7 ، عد 3 ، ص 20 — 28 .

والزوايا — من جهة أخرى ، قد ساعد في زيادة التفكك واتساع شقة الخلافات بين عناصر هذا الهيكل الاجتماعي المتداعي وفي تمزيق شمله . حتى كاد أن يأتي على ما أبقاها ذلك التعصب الذي كان سابقا له وموروثا عن الأجداد والذي ازداد تمسكنا في ذلك العصر خصوصا في عاصمة الأدارسة فاس . أعني به التعصب للأنساب وما جر معه من التعصب إلى المدن والقرى . فكان أرضية لمرض مزمن ساعد على سرعة نموه واذكاء لهيبه وتمكنه هذا الذي لحق . وليس اللاحق بأضعف شأننا من السابق .

الطبقية :

فلقد سبق للتعصب للأنساب وما تبعه من التعصب للمدن والقرى ، الذي مازالت آثاره قائمة ومازالت تعبر عنه الأغاني الشعبية إلى اليوم في لهجة ساخرة وعبرة ناقدة هازئة (1) ، أن أثار في القديم السابق ما بقي قائما ومستفحلا في القديم اللاحق ، وفي القرن الحادي عشر بالذات ، من المشاكل والمناقشات الجانبية التي أثقلت كاهل البلاد المغربية بموجب ما تولد عنها من عنصرية وطبقية من جهة ، وما أحدثته من جدل وحوار ألهم الكثير من العلماء في محاولة للتخفيف من حدة مفعوله وبيان مفسده وما يصحبه من أضرار وويلات وخصومات ما أغنى المجتمع عنها ، وما أبعداها عن الدين الإسلامي الذي ينتسبون إليه (2) .

ولعل حدة هذا التعصب هو الذي جعل اليوسي يتبرم مما ورد في رسالة المولى اسماعيل له حينما قال : « فأراك رجلا بربريا » (3) ، وجعله يفهمها على المعنى القائم فيما بين القوم آنثد ، والذي مرده إلى التمييز العنصري والصراع الطبقي الذي فشا فشوا خطيرا وترك في النفوس أثرا يتحكم في السلوك . فكان جواب الرجل على ذلك يكاد يكون منصرفا انصرافا كلياً

(1) من ذلك مثلا الأغنية الشعبية المشهورة : « آنا سلاوى آنا رباطي » .

(2) مجلة دعوة الحق : سن 7 ، عد 3 ، ص 20 - 28 .

(3) رسالة اليوسي جوابا على رسالة المولى اسماعيل : ص 71 .

إلى ذلك المعنى بدون محاولة للانصراف عنه إلى غيره من مدلول لفظة بربري الذي قد يعود إلى معاني أخرى لا ترجع إلى النسب ، ولكنها ترجع إلى مدلول غيره أطلقت عليه هذه العبارة في كثير من المواطن والمناسبات . كل ذلك مما يدل دلالة قاطعة على تفشي هذا المرض الاجتماعي وتمكنه من النفوس ، وشيوعه شيوعاً لا يسمح بصرف المقاصد عنه وتزويه الغير عنه ، وعدم تبادره للأذهان بمجرد الإشارة إليه أو صدور ما يحتمله ويحتمل غيره من المخاطبات والتقايد . فكان جواب اليوسي عن ذلك التحدي بما يشبه التحدي بقوله : « ... فان نسب الإنسان طينه ، وحسبه دينه . أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (1) .

ولعل هذا أيضاً هو الذي جعله يفرد بحثاً كاملاً في كتابه المحاضرات للتعريف بنسبه ، ثم للتحديث عن النسب بصفة عامة (2) . أما ما كان قد تدرج بذكره من الدواعي التي دعت له لذكر الأنساب والتي انصرف بها إلى أسباب علمية وأخرى قومية وقبلية فإنها في نظرنا ليست كل شيء ، وإنما هي — في جانب كبير منها — تغطية لحقيقة في نفسه ومعنى متمكن من الأوساط التي يعيش بين ظهرانيها والتي انتقل من موطنه وقرابته في الدلاء والأطلس إلى الإقامة فيها ، وهي مدينة فاس التي غرب إليها . خصوصاً وقد كان تأليف هذا الكتاب في زمن لاحق لما أصابه من المتاعب التي انجرت له منذ أن حل بها واستقر فيها (3) . ومن أجل ذلك نجد الرجل — وهو يتحدث حديثه هذا — لا يقف عند النسب فحسب ، بل يتجاوز به إلى المقارنة العامة بين العرب والبربر بصفة شاملة ، ثم ما بين اللهجات واللغات البربرية وما فيها من أسرار من جهة ، واللغة العربية وما تضمنته من خصائص وميزات من جهة أخرى ، حتى انتهى إلى إبراز التشابه والتقارب فيما بين البربرية والعربية ، ثم إلى أن العربية لا تنفرد بما كان يتوهم هو

(1) نفس المصدر السابق ؛ والآية سورة الحجرات : 13 .

(2) المحاضرات : ص 10 - 28 .

(3) شرع اليوسي في تأليف كتابه المحاضرات سنة 1095 هـ ؛ المحاضرات : ص 37 .

وغيره من أنها تنفرد به وتتفوق . ثم هو بعد ذلك حاول بحذاقة ولباقة أن يثبت للبربرية قواعد لغوية شبيهة بتلك التي للعربية من قواعد وضوابط ، وأن استخلاص هذه القواعد يرجع أيضا إلى الاستقراء الذي اعتمده العرب كثيرا في ضبط قواعد لغتهم فكان من الممكن إذن أن يستفيد منه البربري في لغته كما استفاد منه العربي أيضا في لغته (1) .

التداوي بالمعتاد :

هذا ولقد عرف المغرب فيما عرف من الظواهر الاجتماعية ظاهرة أخرى ما أظن أنها من مستحدثات هذا العصر فقط ، إلا أنها كانت معروفة فيه بكثرة . تلك هي ظاهرة ما اشتهر من التداوي بالشيء المعتاد الذي نشأ عليه الإنسان أو عايشه في حياته اليومية من أطعمة وغيرها . فلقد تعرض إلى هذه الظاهرة أبو علي اليوسي في كتابه المحاضرات وأولاهها عناية كبيرة حتى إنه أفرد لها بحديث طويل تناول جوانب منها تبرز أهميتها وأن لها أصلا في التاريخ ، مستعينا في ذلك بقصص عديدة تدور حولها محيلا شيئا مما يتعلق بها على كتاب المدخل لابن الحاج (2) . كما أنه أشار ، ضمن هذا الحديث ، إلى أن التداوي بالشيء الذي اعتاده الإنسان من طعام في حياته لا يدخل في معتقد الطبقات الشعبية فقط . فهذا هو السلطان رشيد العلوي يشير على اليوسي ذاته بالتداوي بما اعتاده في حياته ، وبأن يتخلى عن شراب الريحان الذي كان قد صنعه له الطبيب المعالج له بموجب ما اعتراه من إسهال أضناه . وها هو الطبيب الذي عاجله مرة أخرى غير الأولى - لما دخل مدينة فاس عام تسع وسبعين وألف وأصابه إسهال مفرط وطال به وأعا ذلك الطبيب أمر علاجه - يلتجئ هو الآخر إلى هذا الدواء ويأمر عيال الشيخ أن يحضروا له ما كان اعتاده في بلده من طعام (3) . ثم هاهي الحلقات التي يقيمها المداحون في رحبة مراكش والذين يشتغلون بالأشياء المضحكة

(1) المحاضرات : ص 141 .

(2) المدخل لابن الحاج : ج 4 ، ص 137 وما بعدها .

(3) المحاضرات : ص 66 - 67 .

وغيرها يتعرضون إلى قريب من هذا الموضوع بطريقة هزلية لا تخلو من فكاهة وضحك قصدا للتسلية وغيرها (1) ، غير أنها على كل حال تعبير عن أثر من آثار ما يعتمل في الباطن مما تعودته الناس في تربيتهم وتكوينهم . ومثل ذلك يظهر عادة في سلوك أصحابه وتصرفهم وفي مختلف أحوالهم وظروفهم جدا وهزلا .

وبهذه المناسبة ، ونحن قد ذكرنا هذه الحلقات التي يُحلّقها المداحون وغيرهم ، والتي كانت قد استوقفت اليوسي في رجة مراکش كما جاء في كتابه المحاضرات (2) بدافع حب الاطلاع أو الترويح على النفس ، والتي نفل لنا عنها طرائف تمس هذا الموضوع ، لا يحسن بنا أن لا نثير الانتباه إلى ما يوحى به هذا الذي تعرض إليه الرجل مما يتعلق بالظواهر الإجتماعية في ذلك العصر . فنحن بهذه الإلتفاتة قد نستفيد أمرين هامين ثنين :

أحدهما ما تقدمت الإشارة إليه حول الاعتقاد فيما ذكره اليوسي من التداوى بالأشياء المعتادة لدى الناس والتي قد يكون أو لا يكون لها أساس في المجال العلمي ، وأن هذا الاعتقاد هو سار لدى الطبقات الشعبية وغيرها كما تقدم في هذا المجال وفيما هو قريب منه مما يتعلق بأهم الدواعي التي بها يكون إقبال بعض الناس على أصناف من الأطعمة قد لا يستطيعها الآخرون .

وثاني الأمرين هو أمر تحليل الحلقات الذي نجده إلى الآن شائعا في البلدان المغربية من أمثال مراکش والدار البيضاء والرباط وغيرها من المدن الكبيرة أو الصغيرة ، وأن هذا الذي نشاهده حتى الآن وفي المدة الأخيرة ونحن بالرباط إنما هو امتداد لذلك الماضي الذي انتشر فيه نشاط

(1) المحاضرات : ص 68 .

(2) نفس المصدر السابق .

المداحين وغيرهم من المشعوذين والعاطلين الذين اتخذوا من الغفلة عنهم وعدم الحذر منهم خير ظرف للاندساس في صفوف الصالحين والمشائخ الفضلاء ، فأفسدوا عليهم الأمر وحق المكر بالجميع فيما أتت به الأيام من بعد .

وفي موضع آخر من كتاب المحاضرات يتعرض اليوسي إلى ظاهرة اجتماعية لا نستطيع أن نتأكد من مدى انتشارها أو عدم انتشارها . فهل هي على صعيد المجتمع المغربي عموما ، أم على الصعيد الخاص الذي يتعلق بقوم اليوسي دون سواهم ؟ تلك الظاهرة هي ظاهرة التطير التي قد تؤدي في بعض الأحيان إلى التمييز العنصري ظاهرا . ذلك ما جاء ذكره في حادثة الحال التي جرت له والتي نقلها لنا اليوسي في كتابه هذا . وهي في ذاتها حادثة ظريفة لولا بعض عناصرها . إنها نتجت عن تعامل الإمام أبي علي مع رجل أسود وقد وقعت بعض أطوارها بمحضر رجل من قومه ، فجرت بينه وبينه ما كشف النقاب على هذا الذي كان سائدا لدى قومه من التطير من كل ما هو أسود ، وكان من الرجل أن عبر عن هذا الأسود الذي تعامل معه اليوسي بأنه من الغربان . ثم صرح صاحب المحاضرات ، بعد ذلك الذي جرى بينه وبين الرجل من قومه لوما وانكارا، صرح بأن أفراد عشيرته « كانوا يفرون من السواد فلا يلبسون ثوبا أسود ولا يركبون فرسا أدهم وهكذا » (1) .

الجدل العقائدي :

ومن الطريف حقا ما نقله الإمام اليوسي عن اشتغال العامة بما هو من شأن الخاصة ومتعلقاتها اشتغالا غريبا ألهى الناس عن المهمات متحولا بهم إلى المشقة والوقوع بهم في الفتنة والبلوى . ذلك أن صاحب المحاضرات يتحدث لنا في كتابه هذا عن اشتغال كثير من الناس حتى العوام منهم

(1) المحاضرات : ص 80 .

الذين لا يشتمون للعلم رائحة ، فيرددون بأفواههم ما تناقلته أسماعهم واستقر في مخيلتهم أنه من الأمور الدينية التي لا يستقيم إيمان بدونه ولو لم يكن منها . فيتحدث لنا عن اشتغال هؤلاء بمسائل معقدة من أصول الدين مما هو بعيد عن أذهانهم وغريب عن عقولهم ، مهتمين بالأمور الجانية في تلك القضايا والتي لا فائدة لهم تنتظر من وراء خوضهم فيها إن لم تتولد عنها أضرار وشبه قد تفسد عليهم دينهم .

ولعل الذي جر الناس إلى ذلك شبه الفراغ الذي تحياه مجموعة لا يستهان بها من طلبة العلم في ذلك العصر من جراء سوء فهمهم للمشاكل العلمية وما يراد منها ، حتى أنهم أحدثوا فتنًا بالغة أثارها المماحكات الكلامية والمناقشات اللفظية التي كانوا يدبرونها حول عقيدة الناس وماذا يلزم على العامة معرفته من الضروريات التي لا بد منها في نظرهم وما لا يلزم لتسلم لهم تلك العقيدة ويكتمل لهم الإيمان صحيحًا لا شائبة فيه . فنجمت عن ذلك فتن ومشاكل أفلقت راحة الخاصة وكدرت الحياة على العامة .

وهذه الظاهرة يبدو - من خلال ما نقله لنا الكتاب - أنها أمست عامة في بعض الجهات على الأقل بعد أن ابتدأت خاصة وفي الأوساط التي تنسب إلى المجالس العلمية . ذلك أن هذا الجدل المتحدث عنه ، والنقاش المشار إليه ، قد قام بادية ذي بدء بين مجموعة من العلماء قديما وفي عصر الهبطي بالذات (1) . ثم نبش عليه البعض من الطلبة فقام فيما بينهم أولا ثم فيما بينهم وبين العامة ثانيا .

فلقد اشتغل بعض العلماء طويلا بقضية العلم النبوي ، وهل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اطلع على كل شيء قبل أن يقبض أم لا ؟ (2) .

(1) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي المتوفي سنة 963 هـ ؛ النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 251 .

(2) الدر المنضد الفاخر : ورقة (218 - 1) .

كما اشتغل الطلبة بما أثار فتنة بينهم بسجلماسة وفتنة أخرى بمراكش . وذلك باختلافهم في معنى كلمة الاخلاص (1) . وهل المنفي المستثنى منه هو المعبود بحق سبحانه وتعالى أم هو غيره مما سواه ؟ (2) . ثم اشتغل العوام تبعا لذلك بما أثاره الطلبة فيما بينهم من القدح في عقيدة من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقرره الطلبة للعوام باعتبار أن تارك الاشتغال بذلك كافر ، وأن من لم يعرف كلمة الاخلاص على حقيقتها ولم يعرف مصب النفي فيها على أي يكون فهو كافر أيضا . كما أشاعوا أن عوام المسلمين لا تؤكل ذبائحهم ولا يناكحون . وذلك مخافة أن لا يكونوا عارفين بالتوحيد على النمط المطلوب السابق الذكر . حتى أن البعض منهم كان يرفض أكل اللحوم المعروضة عليه خشية أن يكون الجزار الذي ذبح الذبيحة لا يعرف التوحيد على المنهج المطلوب أيضا (3) .

واستبدت الفكرة بكثير من الأوساط ولم تهدأ بسهولة رغم المحاولات التي قام بها العلماء النابھون من أمثال اليوسي والشيخ محمد بن ناصر وغيرهما . بل إن هؤلاء العلماء أنفسهم الذين حاولوا لفھام العامة وإقناع أولئك الطلبة الذين تسببوا في إثارة هذه الفتنة عن بلادة وجھل أو عن كيد ومكر ، بوجوب إقلاعهم عن هذا الذي صنعوا كادت أن تلتھمهم نار هذه الفتنة أو على الأقل أن تؤذیھم إذایة كبرى (4) .

وما كان كل هذا ليحصل لولا الإضطراب والبلبلة والفوضى التي عمت البلاد في تلك الحقبة من الزمن . فاشتغل الناس بما يفھمون وبما لا يفھمون . واختلط على العوام أمر معاشھم فأصبحوا في غمرة من الجھل دفعتمھم إلى القلق المستمر في الحياة . حتى أنهم لا يميزون بين ما تفرضه علیھم هذه الحياة من متطلبات دنیویة وواجبات أخرویة وما هو بعيد

(1) وهي شهادة أن « لا إله إلا الله » .

(2) المحاضرات : ص 76 .

(3) نفس المصدر : ص 76 وما بعدها .

(4) المحاضرات : ص 77 وما بعدها .

عن مشاغلهم بل وما هو منهى عنه معالجة واهتماما فيتركونه وينصرفون عنه إلى ما تستقيم لهم بموجبه ذنباهم ، وتنبعث فيهم طمأنينة واطمئنان على الحياتين ، العاجلة منها والأجلة .

الأخلاق والسلوك :

ولئن كانت الحركة الدينية في البلاد المغربية آنئذ قائمة على قدم وساق جادة في التربية والتوجيه والذكر والوعظ والإرشاد ، فإنها لم تستطع أن تؤثر تأثيرها المطلوب على الأخلاق والسلوك عند العامة من جهة ، وعند رجال الحكم من جهة أخرى . فلقد نقل إلينا اليوسي في كتابه المحاضرات وفي مواطن عديدة منه ما يدل على انتشار هذا الفساد على اختلاف مظاهره في ذلك العصر بالذات . فعم طبقة الحكام وأوساط العامة ، في غير ما مكان من البلاد ، كما شمل سلوك بعض العلماء وغيرهم (1) .

أما فيما يخص العامة فإن اليوسي عندما تعرض لظهور أمر أحمد ابن عبد الله بن أبي محلى الذي تولى الإمارة بعض الزمن في بلاد اليوسي (2) تحدث لنا عن علاقة هذا الرجل بالشيخ أبي بكر الدلائي ومعاشرته له ، وما كان بينهما من تقارب في السلوك والانتساب ، وما كان عليه من الإستقامة والدعوة إليها ، إلى أن عرض أولهما على ثانيهما ذات ليلة أن يترافقا في غدها للخروج إلى الناس ، ودعوتهم إلى الخير وإلى طريق الهداية مما يتصل بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . غير أن الدلائي أعرض عن ذلك ولم يساعف صاحبه لما دعاه إليه . فحاول ابن أبي محلى أن يقوم بالأمر وحده . إلا أنه قد أتعبت هذه المهمة غاية التعب ورجع إلى صاحبه في المساء منهوك القوى ومضيقا للفرائض وواقعا فيما هو أعظم مما اتجه إلى الناس من أجله ، باخلاله بواجباته الدينية عبادة وذكرها ، وبتخلفه عن

(1) المحاضرات : ص 106 .

(2) قام ابن أبي محلى في سنة 1019 هـ . ومات في اثنين وعشرين بعدها ؛ انظر المحاضرات : ص 91 .

داء المفروضة في وقتها ولم ينهض بشيء . وهنا يسجل لنا اليوسي في غير ما بخل ولا تردد ويصرح بما كشف به الحالة التي كان عليها البلد من انحراف فيقول : « وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت » (1) . ثم هو لا يقف عند هذا فحسب ، بل يتعرض إلى بيان السبب الذي من أحله تخلف الدلائل بموجبه عن القيام بواجبه الذي شعر به صديقه وأحجم هو عنه قائلا : « فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتقادم الشر » (2) .

وما هو أيضا لا يهمل الإشارة إلى هذا الفساد الذي استشرى أمره في جهات مختلفة من البلاد عند بعض أحاديثه في الكتاب ، وهو يتوقف أمام معنى ورد على لسان أحد الطلبة وقد لامه البعض من الأصحاب على بقاءه مقيما في إحدى القرى المغربية التي عمها الفساد حتى اشتهرت به وأصبحت مضرب الأمثال بمقتضاه . فما كان من ذلك الطالب إلا أن حمد الله تعالى على أن حبيبها إلى قلبه ، وقد كانت تلك الإقامة قضاء من الله بها عليه ولم يكن من كسبه واختباره ، ولا مفر له من قضائه . ويستهل اليوسي هذا الحديث بما يعبر به عن هذا الفساد واستفحاله في ذلك المكان فيقول : « كان بعض الطلبة من أصحابنا في قرية ، وكانت القرية قرية سوء ، وأهلها كذلك ... » (3) .

أما فساد الحكام فقد اشتكى منه في غير ما مكان من رسائله (4) ، علاوة على ما جاء به إجمالا لا تفصيلا في كتابه المحاضرات من أمثال قوله : « ... أما الزمان فلا تسأل عنه . وقد مر في الحديث : صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : الأمراء والعلماء . وقد فسدا معا . وإلى الله المشتكى . وكان الأمر يصلح بأئمة العدل وفقه الفقهاء وأدب الصوفية وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداينة والبدعة . ففسد الدين بهم

(1) المحاضرات : ص 90 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) المحاضرات : ص 121 .

(4) مثلا : براءة اليوسي للمولى اسماعيل : ص 23 - 27 .

أولا والدنيا ثانيا « (1) . كما تعرض إلى ذلك في موضع آخر من الكتاب وهو يعقب على حادثة ذلك اليهودي الذي ظهر بسجلماسة وتظاهر بمظهر الرجل الصالح ، فغرر بالناس هناك ملبسا عليهم دينهم . حتى افترض أمره ، فقال في خاتمة حديثه هذا : « ... فالخذر مطلوب . ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق ، والبدعة على السنة إلا من خصه الله . وقليل ما هم » (2) . وإذا كان حديث اليوسي في هذا الموضوع مجملا لا تفصيل فيه ، فإن ما ورد في عديد من المصادر التي تحدث لنا عن هذا الزمان من الأحداث والوقائع يبين لنا ما ورد هنا مجملا (3) . فإذا أضفنا إلى هاتيك المصادر ما جاء فيما خلفه اليوسي من رسائل توجه بالبعض منها إلى السلطان اسماعيل العلوي ، فعدد له فيها ما جدّ أو تفاقم استفحالا من فساد أعوان ورجال السلطنة ومن المنكرات التي غمرت الأوسال العامة ، مشتكيا له مستغيثا به وهو وضحا له أن الأمور قد ازدادت خطلا وسوء عما كانت عليه قبل في جوانب عديدة من مرافق الحياة العامة ، إذا أضفنا هذا إلى ما سبق تجلّى بوضوح أن ذلك العصر قد شاهد ما يدعو إلى الإشفاق عليه من سوء الحالة التي انتهت إليها ، وأن التسارع إلى مساعدته والنهوض به من كبوته تلك ، أمر لا محيد عنه وموقف تدعو الضرورة إليه بالخاص .

وهكذا يتوفر لدينا مما خلفه اليوسي فقط — وهو يتحدث عن أهل زمانه — أن الفساد بأنواعه قد انتشر في تلك الربوع ، وأن الحاجة ماسة للإصلاح والعمل على إنقاذ البلاد من الوهدة التي سقطت فيها . حتى أن الرجل أخذ يتتبع السقطات ويعلن عما قد لا يجد بعض الكتاب الشجاعة الكافية للتعريض على ذكره في جانب قومه فضلا عن الوقوف أمامه وقفة المتحدث عنه حديث التفصيل والتصريح ، مجاهرا بحوادثه مشهرا بعناصره ،

(1) المحاضرات : ص 106 .

(2) المحاضرات : ص 39 .

(3) انظر ما جاء في الاستقصاء بعد وفاة المنصور الذهبي إلى قيام الدولة العلوية من الجزء السادس .

مستفظعا لوقائعه . وذلك مثل تشهيره بتلك الفعلة الشنعاء التي ارتكبها أحد المرابطين الوافدين على بلدة في جبل من جبال هسكورة مع فتى كان يتردد عليه ليلا في خبائه ويبيت عنده حتى افترض أمره معه ولاذ بالفرار لما علم أن ما كان يصنعه بالفتى في خلوته تلك شاع شهرة ولم يبق خافيا على أحد . ثم يأتي اليوسي في خاتمة القصة بما يشعر أن هذه الحادثة ليست فلتة من الفلتات أو نادرة من النوارد ، وإنما هي على العكس من ذلك . وهو ما جاء في قوله : « وبلغ الخبر إلى إخوة الفتى فتبعوه (أي المرابط النحرف) . ولم أدر ما كان من أمره . ومثله كثير » (1) .

العكاكرة :

ثم يتعرض اليوسي إلى صنف آخر من العاهات الإجتماعية التي قد انتشرت في بعض القبائل . وهي التي أفرد لها الرجل تقييدا مستقلا كاملا فصل الحديث فيه تفصيلا عرف به أصحاب هذه العاهة التي هي نوع من الالحاد في العقيدة ونوع من التفسخ في الأخلاق ، والتي قد تعرض إليها في كتابه المحاضرات هذا في إشارة له عن الطرق التي كان يتوخاها بعض المصلحين من المشائخ دفعا للشروع وتأليفا للقلوب . ذلك التأليف الذي قد ينتهي غالبا إلى استصلاح ما أفسده الزمن في الناس ، وإلى الإنتهاء بهم إلى سواء السبيل أو على الأقل إلى الوقوف في وجه عبثهم بإبطال شرهم والحيلولة دونه ودون أقوامهم ، فلا ينالهم منهم أذى ولا تصيبهم منهم بلية .

أما تلك الإشارة فقد وردت في القصة التي قصها عن أبي عبد الله الشرقي الدلائي الذي ذكر عن والده الشيخ أبي بكر أنه عامل العكاكرة أولاد عبد الحق المتزول بالإكرام والترحيب لما هربوا ونزلوا بساحته وهم

(1) المحاضرات : ص 39 .

جياع . فسمح لهم بدرس ما هو من محصول الزاوية والأكل منه عند الحاجة مساعدة لهم منه وإسعافا . فأنكر ذلك عليه ولده الكبير أبو عبد الله محمد بن أبي بكر « وقال : ان هؤلاء فساق أو كفار . ثم هم ظلام محاربون . فكيف تعينهم وتبيع لهم زرع المساكين ؟ فقال أبوه : إني أريد أن أتخذ عندهم يدا . فإذا استلبوا مسكيننا يوما وجاء إلي يشتكي كتب إليهم كتابا ، فلا بد أن يراعوا هذا الخير فيردون عليه متاعه . فأنا إنما فعلت هذا لحق المساكين » (1) .

وهذه القصة قد تشير إلى ما يعانيه المصلحون من العناصر الذين داخل الكثير منهم الفساد ، وانتشرت في البعض منهم البدع وفي البعض الآخر ألوان من الأخلاق والمنكرات . فأعيا أمرهم رجال السنة من مشائخ المغرب ومن كان على شاكلتهم بعض مشائخ الزوايا ، وأعجزهم ما انتهوا إليه وما استمرؤوه من البغي . فكانوا يتخذون طرقا مختلفة وأساليب متنوعة لمعالجتهم أو لاتقاء شرهم وإيقاف عدوانهم ودرء مفسادهم كما هو الأمر بالنسبة لما جاء في قضية الحال .

وهؤلاء العكاكزة الذين انعقد بسببهم هذا الحديث الذي أشرنا إليه ونقلنا جزءا منه ، هم طائفة مبثوثة « ببعض أقطار المغرب الأقصى كبنى عمير بتادلة ومن يضاهيهم ويجاورهم من بنى ملال وبعض الكوودة (2) بزغير قرب الولي الصالح سيدي أبي يعزى (3) وكبنى سبر (4) بقبيلة زمور (5) بجبل فزاز ، وكبعض القبائل ببني أزناسن (6) قرب تلمسان ، وكبعض الغنانمة بصحاري سجلماسة وتوات وما قرب إليهما (7) .

(1) المحاضرات : ص 145 .

(2) بفتح الكاف والواو الأولى والبدال وسكون الواو الثانية

(3) بفتح الياء والزاي .

(4) بكسر السين وسكون الباء .

(5) بفتح الزاي وتضعيف الميم المضمومة .

(6) بكسر الهزة والسين .

(7) هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام : ص 71

لقد عثت هذه الطائفة في الأرض واستشرى الفساد على يد أصحابها الذين انتحلوا لهم مذهباً خرجوا به عن دين الإسلام وانتحلوا لأنفسهم رسولا غير رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ونسبوا له كتابا ادعوا أنه منزل على رسولهم هذا غير القرآن الكريم ، وابتدعوا الموبقات وأفشوا الشرور وكانوا بحق وباء على البلاد المغربية . حتى أغرى اليوسي بهم السلطة القائمة أيام المولى اسماعيل وأصدر ضدهم فتوى بوجوب قتلهم ، محرضا عليهم السلطان حتى ينفذ فيهم حكم الإسلام وحتى لا تأخذهم فيهم رافة ولا شفقة . فهم قوم مارقون لا تقبل منهم توبة ، وإن كل من يتسب إليهم تكثيرا لهم وجبا في المتعة التي أباحوها وشرعوها وميلا إلى التفسخ الأخلاقي الذي عرفوا به ، يجب أن يعامل معاملتهم وأن يقتل مثلهم ويلقى مصيرهم (1) .

خاتمة :

وعلى كل حال فإننا قد نستخلص من جميع ما تقدم أن الحالة التي كانت عليها البلاد المغربية اجتماعيا في هذا القرن ليست بأقل سوء منها سياسيا . بل ان هذه الأخيرة كانت في أقل من المأزق الذي تردت فيه الأخرى في حين أنها هي التي تسببت في الكثير من هذه الفوضى وهذا الإنحلال ، مما جعل المجتمع المغربي يشتمل على شبه المتناقضات التي يعسر أن تجتمع في صعيد واحد إلا في مثل ما انتهت إليه البلاد مما يدعو إلى الإشفاق عليها من هذا الإنحلال والذوبان .

فبينما نجد في مغاربة ذلك العصر رجالا مصلحين يعملون على إصلاح وطنهم وذويهم فيقيمون المراكز العلمية والدينية منها بالخصوص ، ويعملون « على نفع الناس بتعليمهم ما يحتاجون من دينهم وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار التي يتزودون ويتحibون بها إلى ربهم ويتقربون عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة ... وعلى وجه

(1) العكاكزة : ص 167 - 187 .

التعليم والإرشاد» (2) مثل أبي علي اليوسي وهم كثرة ليست بقلة ،
أو على وجه المشيخة والتربية أمثال الشيخ ابن ناصر شيخ إاوية تمغروت
ومن كان على شاكلته من شيوخ الزوايا الموقفين فى مناهجهم ، والصادقين
فما هم بصدد القيام به نحو الدين ونحو أقوامهم وأبناء جلدتهم ، نجد
أقواما آخرين يعيشون فى الأرض فسادا فيجرون الوبال على بلادهم ويعملون
على نشر الفوضى والتفسخ الأخلاقى وما ينجر عنه من مقومات العبث والفجور
والمروق من الدين .

والذى يبدو أنه لو لم تكن هناك أصالة قديمة وعراقة مكنية فى
التعلق بالدين والتفقه فيه والغيرة عليه ، ولو لم يساعد هذا الذى سبق قيام
المجموعات الدينية من رجال الزوايا وطرق نزهاء ومن علماء وفقهاء
ينتسبون إلى السنة والجماعة أخلصوا لدينهم ولوطنهم فجاهدوا فى الله حق
جهاده ما استطاعت البلاد أن تتخلص بسهولة مما وقعت فيه بسبب تلك
الفتن التى أتت على الأخضر واليابس فى المغرب الأقصى أيام السعديين
بعد وفاة المنصور الذهبى .

ولعله قد يتبادر إلى الذهن مما تقدم أن الفساد قد عم كل شبر شبر
وكل بيت بيت بل وكل عنصر عنصر من عناصر هذه الربوع فى تلك
الحقبة من الزمن ، وهو ما لا نقصده بحال . ذلك أننا حينما تعرضنا إلى
الحالة التى حللناها واستخلصنا منها ما اجتهدنا مخلصين فى استخلاصه
كنا معتمدين فى كل ذلك الذى استخلصناه وانتهينا إليه ، على ما تمكنا
من الإطلاع عليه من المصادر التى كتب أصحابها على ذلك العصر ، ومن
بينهم الإمام أبو علي اليوسي الذى أثبت جل ذلك تصريحاً أو تلميحاً فى
كتابه المحاضرات الذى منه كان منطلقنا وعليه كان جل اعتمادنا فى
بحثنا هذا .

(2) المحاضرات : ص 161 .

والحقيقة التي لا جدال فيها أن البلاد ما عدت إذ ذاك الفحول من العلماء والمخلصين من المجاهدين والعاملين الصادقين ممن أجمعوا أمرهم على النهوض بأقوامهم والأخذ بيدهم وإنارة السبيل أمامهم وقد جاء ذكرهم ضمن هذا الفصل للحديث حول الحالة الاجتماعية للبلاد في هذا القرن . فكانت هاتيك العناصر المتقدمة الذكر هي نواة غراس آتت أكلها فيما بعد ، لما خلصت البلاد من ربة أمراء الطوائف ، وانتقلت شؤونها إلى رعاية الدولة العلوية التي أمسكت بتلابيب الأمور ، وقضت على الكثير من الفساد آنئذ بالشدة التي لا هوادة فيها والتي جاءت على يد السلطان اسماعيل الذي استطاع أن يرجع المياه إلى مجاريها وأن ينشر الأمن بالربوع المغربية وأن يقلل من الفساد بقدر ما شجع على الأخذ بيد العلم والعلماء وتمكين المغاربة من الكرع من المنهل الصافي للمعرفة والثقافة تمهيدا لمن جاء بعده من خلفائه فخفف من وطأة الجدل الكلامي واستصدر الظواهر للإصلاح العلمي بتقديم الأصول على الفروع والاشتغال باللباب لا بالقشور (1) .

(1) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 274 .

الحياة الثقافية

الطابع الثقافي العام :

لقد كان للحالة السياسية السيئة التي بات عليها المغرب الأقصى والتي انزلت فيها الدولة السعدية وهي تقترب بخطى حثيثة نحو انقراضها تأثير بالغ الخطر على النشاط العلمي والثقافي هناك . ذلك أن الفتن والحروب قد تولدت عنها مضايقات تجاوزت النيل من الأموال والأبدان إلى المساومات والمغالطات على حساب الدين والعقيدة مثل ذلك الذي حصل على يد الشيخ المأمون السعدي وهو يسلم بلدة العرائش المغربية إلى حلفائه الأسبان . فكان منه أن راود العلماء على مشايعته في أمره هذا مستصدرا منهم فتوى في مشروعية ما أقدم عليه . فنفروا أيدي سباً وفروا بأنفسهم مختفين أو مهاجرين (1) .

وتبعا لذلك ، فرت الثقافة من أهم العواصم والمدن التي اختصت بها قديما دون غيرها واشتهرت باحتضانها لها دون سواها ، وذلك لفرار أصحابها منها ، وانتقلت بموجب ذلك معهم من تلك المدن إلى البوادي

(1) مجلة البحث العلمي بالمغرب : سن 3 ، عد 7 ، ص 13 .

والصحاري مستقرة هناك ، متأثرة بأحوالها الجديدة ، مستجيبة لمتطلباتها ، خادمة لأهل تلك النواحي وعقلياتهم ، ملية لرغائبهم مسائرة لأفكارهم وحاجاتهم حتى طبعت بهم عمقا وأسلوبا .

ولعل هذا هو الذي دعا الإمام اليوسي وهو يتحدث على الحركة الثقافية بسجل ماسية عند إقامته بها إلى أن يقول : « ... غير أن علوم الصحراء قاصرة . إنما هي ما قرب من فقيهاً ونحويات . ولا يترقون إلى ذروة العلم ولا يخوضون في لجج العلوم العقلية والنقلية ... » (2) . ولعل هذا أيضا هو الذي مال بهم إلى العناية بالفقه فروعاً لا أصولاً ، في بعد عن الإجتهد والإبداع إلا ما يبدو من محاولات نسبية داخل المذهب المالكي تبدو في فتاوى لجزئيات معينة وقضايا نزلت ومسائل أثارها حاجة العامة في باب من أبواب المعاملات أو فرع من فروع العبادات . كما نشط أيضا الجانب اللاهبي العقائدي في حركة جدلية يشوبها تعلق بالنصوص واشتغال بظواهرها ، ويخدمها المنطق الجدلي لمساعدة التخريجات والمباحكات والمناقشات اللفظية . ولعل هذا أيضا هو الذي يفسر لنا العناية آنثذ بالقواعد اللغوية ، والحفظ للدواوين الشعرية القديمة ومقامات الحريري حتى تتوفر اللغة التي قد تساعد على نظم المدائح النبوية وتغذي الشعر التقليدي منه والتعليمي .

فليس هناك تطعيم للفكر المحلي المقيم هنا وهناك ، والموزع على الأرياف والشعاب ، رغما عن الرحلات العديدة التي كان يقوم بها المغاربة سواء منها تلك التي تتوجه إلى المشرق العربي لأداء فريضة الحج أو تلك التي وردت مع الأندلسيين الوافدين على المغرب في هجرتهم التوديعية لأوطانهم ونزوحهم النهائي عن أراضيهم ، أو تلك السفارات التي كانت بين المغاربة والبلاد الأجنبية والتي لم تحمل همم هؤلاء السفراء إلى البلاد الأجنبية على الاستفادة مما تقع عليه أنظارهم أو بلغ إلى مسامعهم أو التقى بهم في طريقهم

(2) رسالة اليوسي جوابا على رسالة المولى اسماعيل : ص 15 .

ذهابا وإيابا وإقامة . حتى أن الذي يعود إلى مخلفات ذلك العصر من تأليف في الرحلات لا إخاله يجد ما يشبع نهمه من الوقوف على الجديد الذي يحمله أصحابها فرضا وتقديرا ويستفيدون به من رحلاتهم تلك ، اللهم إلا ما يكون منه عرضا وعن غير قصد دونما إثارة أو تنبيه أو تحليل . ثم لا يمكن أن نغفل أن البلاد المغربية تربة خصبة انتشرت عليها حقول الإيمان والحفاظ عليه والتعلق به مع المحافظة على السنة النبوية والتبرك بآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . حتى أن جل الدول التي تزعزعت فيها اعتمدت في دعواتها إما على الحركات الدينية والدعوة إليها والإقبال على الجهاد لصيانتها والذود عنها ، أو لما لها من رصيد الانتماء إلى البيت النبوي الشريف فتلقى من المساندة والمناصرة ما يركزها ويقوي دعائمها ويشيد بنيانها .

كل هذه العناصر الروحية والتقلبات السياسية ، مجتمعة أو متفرقة ، تؤلف ما يفسر انتشار الرباطات المغربية ثم كثرة الزوايا من بعدها ، حتى كان نزوح الكثير من العلماء أيام الدولة السعدية غب وفاة أحمد المنصور الذهبي معتمدين بالمناطق النائية عن فاس ومراكش العاصمتين اللتين شاهدنا أكثر من غيرهما التعسف والإنتهاك للحرمان حتى شملتتهما الفوضى وأمسك بتلابيبهما الخراب والدمار . فجاء ذلك النزوح متمما لتلك العوامل ومنشطا للروح الثقافية الدينية التي تؤدي إلى الإبقاء على ذلك التمسك بالسنة والحفاظ على السلفية المعروف بها مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

فكان من الطبيعي أمام هذا التشتت والتفرق أن لا يجد اليوسي ما يكفيه من التزود من المعرفة عند رحلته لطلب العلم في مركز واحد من المراكز التي انتقل إليها وهو يطلب المعرفة يبحث عن الثقافة . فنراه يتنقل لتلك الغاية في ربوع المغرب هنا وهناك باحثا عن العلم وأهله وآخذا من كل مركز شيئا يبل به غلته ؛ إذ يذكر أنه تحول إلى سجلماسة ودرعة وسوس ومراكش وبلاد القبلة ودكالة والقبائل السوسية وجزولة وجبل دمنات والزاوية الدلائية وتارودانت . وهي مراكز جاء ذكرها عند اليوسي فيما

خلفه لنا من حديثه عن نفسه في رحلته لطلب العلم أعوام ستين وألف هجرية .

يؤكد ما ذهبنا إليه ، من أن دائرة المعرفة ضاقت كثيرا في تلك الفترة من الزمن بالبلاد المغربية ، ذلك التشابه القوي فيما بين تلك المراكز في العلوم وطريقة تدريسها ومدى ما يصل إليه دارسوها من الاكتفاء بمعرفة ظواهرها والوقوف على مبادئها الأولية دونما تعمق ولا إحاطة شاملة مع بذل المجهود في النقاش حولها شرحا وتخريجا واعتراضا ونقضا في حدود التقليد ومساهمة ما انتهى إليه المجتهدون من قبل .

وهذا الذي أشرنا إليه ربما شعر به اليوسي عندما أخذ يتحدث إلى المولى اسماعيل عن النشاط الثقافي بسجلماسة وما انتهت إليه هناك مجالس العلم آنئذ من الحركية والنشاط والإقبال المتحمس ، إلا أنها مع ذلك كانت قاصرة في كمها وكيفها لا تتجاوز ما هو معروف من العلوم الشرعية واللغوية مما يعبر عنه بالمقاصد والوسائل .

ولعل شعوره بالتفوق على أقرانه في تلك الحقبة من الزمن فجعله يتحدث عن نفسه حديث المعجب بها والمغالي في إطرائها بمثل قوله : « ... ولا تظن أنني كعلماء زمانك . كلا . ولكن كعصبة الدين وفخر الدين وسعد الدين وحجة الإسلام . ولا تظن أنني أقلدهم فيما أنقله عنهم بل إن تبينت لي حجة واتضحت عندي محجة قبلته وإلا نبذته بالعراء وطرحته بالورى » (1) ، لعل هذا الشعور الذي جره إلى مثل هذا الحديث عن نفسه لم يكن في الغالب بدافع التباهي بها . كما أن مرجعه فيما يظهر ليس التبرجع بالنفس أو الغرور الذي يعتري المدعين غالبا كما توهمه البعض ممن كتبوا عن الرجل (1) . وإنما هو في نظرنا لإقرار من جهة بحقيقة أحسها

(1) الدر المنضد الفاخر : ورقة (217 - أ) وما بعدها .

(1) نفس المصدر السابق .

ولمسها ، وإشارة في الوقت نفسه إلى ما بينه وبين غيره من الفوارق فيما انتهى إليه هو وما وصل إليه غيره . كما أنه من جهة أخرى لوم وتوبيخ وتقريع غير مباشر لأولئك الذين لم يعرفوا له حقه ولم يقدرُوا له منزلته بدافع الحسد الذي قد لا يتنزّه عنه البعض من العلماء الذين يسوءهم قصورهم أمام نبوغ غيرهم فلا يتقبلون بارتياح تفوق معاصريهم عليهم فيركبون في جانب هؤلاء مركبا صعبا للغض منهم والغمط لشخصهم والنيل من مواهبهم . ومع ذلك فلننا نجد اليوسي الذي قد تسرع في الرد على حاسديه من أهل فاس بالبيتين اللتين سار بذكرهما الركبان وتناقلتهما الألسن والمجالس واللتين هما :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصَبَّوْا إليّ كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيب

نجدّه يندم على ما صدر منه بسبب ذلك التسرع الذي أظهره في مظهر التمدح والمفتخر والذي يخشى أن يتسبب له في الإثم والخرج . وهو الحريص على طاعة مولاه والمتعلق بحبه ورضاه . فيتوجه إليه مبهلا ونادما ومعتذرا فيقول : « وإنما استسهلت . وأستغفر الله التمدح والإفتخار ، لأن ذلك مباح في الشعر مسلوكة في سائر الأعصار والأمصار » (2) .

ثم إن هذا الطابع الثقافي العام الذي سبقت الإشارة إليه ، وإن هذا المستوى الذي عليه اليوسي مما هو نادر عند معاصريه قد يرجع سببه الأهم إلى عدم وجود نبع فياض من العلم متفجر على عيون متعددة ومتنوعة في مركز واحد من المراكز الثقافية . فترتب على ذلك أن من قبع في مركز واحد واكتفى به لم ينته إلى ما انتهى إليه صاحب المحاضرات بموجب تنقلاته العديدة في غالب تلك المراكز ، فيأخذ من البعض ما قد لا يجده في البعض الآخر ، وبموجب ما كان له من الاستعداد للاستفادة مما اطلع عليه فيها . وفرق بين القابع والمتنقل ، وبين الراكد والجاري .

(2) المحاضرات : ص 74 وما بعدها .

والظاهر أن الأكثرية الساحقة من هذه المراكز ، وما اشتملت عليه من الدروس والمدرسين ، لها أهمية علمية وثقافية محدودة سواء من حيث المادة أو من حيث الأسلوب . ومن أجل ذلك ساد الاعتقاد وتردد على الألسن أن العلم كاد ينقطع من المغرب في القرن الحادي عشر لولا ثلاثة من العلماء يعدون في نظر القوم أساتذة العصر وشيوخ الجماعة وهم : السيد محمد (بفتح الميم) بن ناصر الدرعي بتمغروب ، والسيد محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء ، والسيد عبد القادر الفاسي بفاس .

وهذا ما يبدو أنه خامر اليوسي ضد إقباله على العلم فاضطر إلى التنقل في ربوع المغرب جريا وراء الاستفادة الكاملة والاطلاع الواسع والترود الكافي . وهي الغاية التي سبق أن أشرنا إليها . كما يبدو أن هذا الإحساس بما كان يهدد العلم مع ما هو عليه من الضحالة في جل المراكز الثقافية متفرقة ، وأن هذا الشعور بمكانة أولئك الثلاثة لم يبتدىء من اليوسي لينتهي عنده . ولكنه كان شعورا سائدا عنده وعند غيره من الناس مما جعلهم يعبرون عنه في كتبهم وهم يكتبون عن هذا العصر بقريب مما أثبتناه قريبا (1) .

وإذا ضمنا ما ذكره اليوسي وهو يتحدث عن مشائخه وما أخذ عنهم إلى ما ورد في بعض المصادر من أن الوطن السوسي كانت تعج قراه بالكتائب لتلقين القرآن وما يتصل به من مبادئ اللغة وشيء من الديانات ، ثم عممنا ذلك على باقي المناطق المغربية بحكم الجوار وتشابه الظروف وتقارب الحياة العامة تحت تلك السحابة القائمة التي تعم البلاد بسبب الظروف السياسية الشديدة التي تجتازها ، وهو ما تكاد الكتب التي كتبت في أعقاب تلك المرحلة عن ذلك العصر تتظاهر عليه وتؤكد حوله الإجماع ، انتهينا إلى أن العناية كلها كانت منصرفة إلى الحفاظ على كتاب الله العزيز حتى تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل خشية على ضياعه وارتفاعه من بين

(1) طلعة المشتري : ص 133 .

ظهرائهم بارتفاع أهله وقبضهم ، وخشية من تلاشي جمعهم وانفراط عقدهم في خضم هاتيك المعارك والفتن ، وإلى أن العقول المتكاسلة التي أخذت بموجب ما يحيط بها من الأجواء في الركود والوقوف على ما عندها تحول الاستفادة مما بقي بين أيدي القوم من تراث العلوم الدينية والقلة القليلة من العلوم العقلية ، وتعمل على خدمته وتنميته - واهمة - بالماحكات الجدلية والمناقشات اللفظية شحا وتحشية واعتراضا وجوابا على الطريقة المتبعة والسنن المعروفة عن الحركات العلمية واللغوية في ظروف الركود وسيادة البلبلة والإضطراب وما يعترئها من الخوف الذي يتولد عن السكسل الذهني والجمود العقلي ، حتى أننا نجد العناية بالمقامات الحريرية في ذلك العصر تكاد لا تقل عن العناية بالبقية الباقية من الفقهيات وما يتعلق بظواهر الديانات ، ولا تبلغ شأوها العناية بغيرها من أمهات ا دب واللغة العربية والمصادر الأصلية للشريعة الإسلامية تشريعا واعتقادا .

وهذا الذي ذكرناه نجد اليوسي نفسه يتعرض إليه في كتابه المحاضرات تلويحا لا تصریحا . فيتحدث حديثا مطولا عن فتنين مر بهما وهو في طريقه إلى سجلماسة حول اشتغال العامة بالتوحيد على غرار معالجة الطلبة والعلماء والدفع بهم إلى اقتحام ذلك ، حول كلمة الهيلة (1) ، وما دار فيها بين طلبة العلم هناك فيما بينهم ، ثم فيما بينهم والعامة ، مذكرا بما حدث في عصر مضى من الجدل حول ما أثاره كلام العلامة الهبطي في الموضوع (2) . ثم هو بعد ذلك يدفع ليشارك القوم ببيانه وتحقيقه في الموضوع فيشبع المسألة تحليلا وشرحا وتوضيحا ، مشيرا على هؤلاء الطلبة بما يجب عليهم تجاه العلم وتجاه طريقة تمكين الناس منه بما يخدم الآخذ والمأخوذ معا . فيجلب المصلحة ولا يوقع في المفسدة . وهي نفس الطريقة التي استفادها من أستاذه ابن ناصر وسار عليها هو عند تصديره للتدريس وتلقين العلم للناس . فيميز بين العامة الذين يكففي معهم بالمبادئ خالية من النقول

(1) المراد بالهيلة كلمة « لا إله إلا الله » وهي كلمة لإخلاص . راجع فصل الجدل العقائدي من هذه الدراسة .

(2) مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص : ص 69 وما بعدها .

والتفاصيل العلمية العميقة بما يتناسب مع أذهانهم ويكون في مستوى بساطة عقولهم ومداركهم ، وبين الطلبة المختصين فيتجاوز بهم تلك المبادئ إلى ما هو أعقد وأعمق مما يناسب الرسالة التي تنتظرهم (1) . ولعلها لا تبعد كثيرا عن طريقة الغزالي في المضمون به على غير أهله والتي انتهت إليها بعد عصب ما مر به في حياته الثقافية الروحية . ثم هو لا يطوي صفحة حديثه حول كلمة الهيلة إلا بعد أن استوفى الإشارة إلى أهمية هذه القضية بما استوجب منه تقييدا مطولا شاملا أخرجه فيما أسماه من تأليفه بكتاب « مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص ، أو مناهج الخلاص من كلمة الإخلاص » .

ثم يتعرض اليوسي أيضا في كتابه المحاضرات إلى حادثة قريبة من التي سبق تعرضه إليها تكشف عن عقلية العصر العلمية التي تميل إلى الجانب الجدلي والمسامة والتقليد وما لا يتجاوز هذا المعنى مما يظهر أنه بات المقصد الأسمى من السعي إلى العلم ، والغاية القصوى التي يلزم الوصول إليها من طرف المشتغلين به والمتصدرين له . فيذكر المناظرة التي وقعت بينه وبين الشيخ أبي عبد الله المرابط الدلائي الذي « جمع خطبا وعظية وتقدم إلى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عليها تقریضا » (2) . فيفيدنا عن قصد أو عن غير قصد فائدتين اثنتين :

إحداهما هي التي تتمثل في الكشف عن مظهر من مظاهر تجميد العقول وتوفير دواعي تكاسلها بتعويدها على الاعتماد على الغير بما يعجزه لها مثل جمع الخطب الوعظية في كتاب ليأخذها الخطيب الواعظ ويسردها ميتة سرد الناقل لا المشي . وفي ذلك ، زيادة على الميل بها إلى الكسل والجمود ، ترويض للنفوس على البعد بها عن فهم مغازي الشريعة الإسلامية ومقاصدها في أحكامها وما يتعلق بها مما يتصل بأمثال الخطب التي تلقى في المناسبات

(1) الدرر المرصعة : ص 326 .

(2) المحاضرات : ص 141 .

الدينية كالجُمعة وغيرها . فيقع البعد عندئذ عن الغاية التي من أجلها فرضت أو دعي بها إليها .

وثانيتها هي التي تتجلى في الحوار العلمي الهامشي الذي جرى في تلك المناظرة بين التلميذ والشيخ وما انتهت إليه مما تولد عنه شعور بالانتصار والغلبة من جانب ، وبالإنكسار والإنقباض من الجانب الآخر .

ويختم اليوسي هذه الإشارة التي كانت منه وهو يتحدث عن قضية الهيلة ، بقضية العلم النبوي وما انتهت إليه من خلافات وأثارته من مشاكل في الأوساط العلمية المغربية (1) . الأمر الذي نتج عنه تحريك أعلام العلماء تعريضا فيما بينهم وإثارة للضغائن في نفوسهم .

وإذا ما التفتنا إلى ميدان الأدب والفن الكلامي من جوانب الثقافة وجدنا حركة أدبية متممة في عمومها للآطار الفكري الذي تحلى به هذا العصر ، والذي طبعت جوانبه بطابع التقليد وما يتبعه من الكلل الذهني وعدم القدرة على ما يناسب الحياة من تجديد وابتكار أو تحرر واستقلال . ذلك أن الحركة الأدبية التي تظالعا في القرن الحادي عشر بالمغرب — فيما علمنا — حركة لم تستجب لما يجري داخل المجتمع ، ولم تخدم غرضا ولا مظهرا ولا مطلبيا من شؤون ذلك العصر ، كما نجدها قد جانبت كل ما يدور في ذلك العصر داخل الميادين السياسية وغيرها ، كأنها لم تكن منه ولا ينتسب إليها ، منشغلة بمعالجة دوواين الأقدمين والمقامات حفظا وتحليلا وشرحا ، أو مهمة بمعالجة النظم الذي لا يتجاوز الشعر التعليمي والأمداح النبوية بما هو معروف ومتداول بينهم وما هو خال من الجوانب الفنية التي تهز المشاعر غالبا . كما لا يتجاوز الإخوانيات أو المديح وغيره من الأغراض الشعرية التقليدية في ثوبها القديم . ولعلنا ننبين هذا أيضا مما يشعرا به اليوسي في كتابه المحاضرات وهو ينشر هنا وهناك من محفوظاته شعرا غزيرا بمناسبة أو بغيرها حتى عقد أبوابا كاملة ، ختم بها كتابه هذا ، تكشف عن حفظه

(1) نشر المثنائي : النصف الثاني . ص 146 ؛ الدر المنضد الفاخر : ورقة (218 - أ) .

الوفير للشعر القديم ، فيشعرنا من خلال ذلك بما يعلمه من تقدير قومه لهذا الطابع الأدبي والعلمي المغرم بالحفظ والإستعراض اللذين يبلغ التقدير والإعجاب والإقرار بالنبوغ والمعرفة عندهم لمن يتوفر على أكثر نصيب منهما مبلغ التقديم والتفضيل والإمامة . ومن أجل هذا أيضا يضطر إلى قضاء شهر ونصف الشهر في المذاكرة والمراجعة كامل الليل مع مجموعة من الطلبة حتى لا تبقى أبيات الخلاصة (1) تشذ عن فكره ، وحتى لا يبقى الوحيد الذي لا يستحضر النصوص منها دون غيره من أهل السوس الأقصى الذين قدم عليهم وقتئذ فوجدتهم يشتغلون بتصريف الأفعال مع استحضار النصوص من تلك الخلاصة (2) .

وليس معنى ذلك أننا لا نعثر في ذلك العصر على عينات أدبية رفيعة أو تأليف علمي رفيع ، ولكننا نريد أن نقول : إن هذا الذي ذكرنا هو الطابع العام الذي يحياه العصر والذي تولد عن الحركة الثقافية بالمغرب في ما بعد المنصور الذهبي بالخصوص إلى أيام المولى اسماعيل العلوي ، إذا ما استثنينا القلة القليلة الموزعة فيما بين الدلاء وغيرها من المراكز المشهورة اللامعة آنئذ . حتى أن الحركة الصوفية نفسها - وهي الحركة النشطة المنتشرة في ذلك الوقت والتي طبع بها هذا العصر - نجدتها هي الأخرى حركة تقليدية . ذلك أنها لا تتجاوز الأذكار والأوراد والحرص على الدعوة للمواظبة على القيام بالعبادات والتزام ما يتصل بها مما يمس التقوى والإقبال على الله إقبالا شخصيا يخدم العامة ولا ينشط الخاصة . لا تتجاوز هذه الحركة ذلك إلى معالجة المشاكل الروحية والماورائية التي تحرك المواهب وتعمل على تفتيق الأذهان وتعميق الأفهام ، سعيا وراء البحث عن تحديد للحركات الإصلاحية ومساهمة في الفلسفات والنظريات العقلية .

غير أن الحق الذي ينبغي أن يلاحظ وأن لا يهمل بحال ، هو أن هذه الحركة على ما اعترافها من ضعف وطبعت به من تقليد وصبغة جدلية

(1) وهي ألفية ابن مالك في النحو .

(2) المحاضرات : ص 142 .

خالية من الابتكار والتجديد قد خدمت ذلك العصر خدمة كبرى ، لا من الناحية السياسية وحدها ولا من الناحية الاجتماعية مفردة ، ولا من الناحية الثقافية مستقلة عما دونها ، ولكنها خدمت كل ذلك ، مضافة إليه خدماتها لمظاهر القومية المغربية بصيانتها لشخصية الأمة في دينها ولغتها وحضارتها ؛ إذ نجدها قد وقفت في وجه التدخل الأجنبي الذي عمل على القضاء على الشخصية المغربية بمحاولته لتفكيك الوطن والهيمنة عليه واستعمارها استعمارا مباشرا يأتي على الأخضر واليابس فكرا وروحا ومادة . كما نجدها قد أذكت الشعور الديني وحافظت على الطابع الإسلامي في تلك الربوع أيام أن حاول الكثير من المشعوذين اليهود وغيرهم التلبس على المغاربة في دينهم ومعتقداتهم ، وساهمت مساهمة كبرى في العمل على الإبقاء على اللغة العربية من جهة ، وعلى العلوم الدينية من قرآن وحديث وفقه من جهة أخرى . فلم تستطع الأيام أن تقضي على ذلك وإن استطاعت أن توقف الحركة التجديدية والتقدمية في ذلك الميدان عند مغاربة القرن الحادي عشر الهجري .

والخلاصة أن الثقافة المغربية في هذا القرن قد صبغت ، علاوة على مظاهر التقليد وعدم التقدم العلمي والحضري ، بل وعدم القدرة على الإحتفاظ بما خلفه الآباء إلى الأبناء ، بالصبغة الدينية الصوفية ، وأن الذي استأثر بهذه الثقافة من الوطن المغربي أكثر من غيره هي المناطق القروية والريفية النائية ، مبتعدة عن المدن والعواصم اقترابها من الصحاري والجبال ، متشابهة تشابها واضحا في النوع ، ومتقاربة تقاربا بينا في المنهج .

ولعل الوقوف على أهم ما اشتهر في ذلك الوقت من مراكز العلم والمعرفة اشتهارا جعلها مقصودة من أصحاب الهمم ممن لهم رغبة قوية إليها يحدوهم التفقه في الدين وينشطهم الإلمام باللغة العربية وآدابها ، ولعل الوقوف أيضا على ما يجري فيها من حركية وحيوية وسلوك ومنهج يعطينا صورة متكاملة ، بتكامل عناصر هاتيك المراكز وانضمام بعضها إلى بعض ، على الجو الثقافي المغربي الذي حاولنا شرح جوانبه وتحليل معطياته

وتعليل مظاهره في هذا الذي قدمناه ، تمهيد للوصول إلى الصورة الحقيقية التي كان عليها وتجلي فيها .

المراكز الثقافية الهامة :

أما المراكز التي نعنيها بالذكر ، والتي نريد التعرف إلى الثقافة المغربية من خلال ما يجري فيها فهي : فاس ، ومراكش ، والزاوية الدلائية ، والزاوية العياشية ، وسجلماصة ، وايلنج ، والزاوية الناصرية بتمغروت .

فاس :

أما فاس فإن أهم ما فيه من معاهد علمية هو معهد القرويين والزاوية الفاسية بالقلقلين والزاوية الفاسية بحي المخفية (1) والتي غلب عليها الطابع الصوفي فعرفت به ؛ إذ لم يكن لها شأن يذكر في الميدان العلمي الذي كانت لها فيه مشاركة محدودة غير ذات بال .

فإذا استطاعت الفتن أن ترحزح معهد القرويين عن شهرته التي كانت له في القديم ، فأذبلت منه الفتيل وقللت من أهميته حتى كاد يخلو مما عجز به في الماضي من حلقات علمية في مختلف الفنون ، وانتهت به في بعض الأوقات إلى أبعد من هذا الحد مجاوزة به ذلك في غير ما مرة إلى تعطيل الفريضة جماعة وتعطيل التراويح بل وتعطيل الجمعة والأذان به ، وتعطيل ليلة القدر أيضا ، وهي التي تعتبر في نظر المغاربة من أعظم الليالي التي تقام في المساجد أين يجتمع الرجال والنساء والأطفال والشباب قياما على الصلاة إلى طلوع الفجر ، وهي السنة المتبعة إلى اليوم في كبريات المساجد داخل المدن هناك ، وإذا ما تمكنت أيضا من أن تصرف الكثير من الطلاب عن فاس فيتخلفون عن متابعة ما هو مألوف بهذا المعهد من علوم ومعارف من جراء

(1) يفتح الميم وسكون الخاء وكسر الفاء وتضعيف الياء .

ذلك وبموجب غياب غيايب الخاصة والشيوخ وابتعادهم عن عرصات التدريس به أيضا ، خصوصا أيام فتنة محمد المأمون السعدي وهو يبحث له عن سند يقوى به ليضفي على ما أقدم عليه من تسليمه للعرائش إلى حلفائه الأسباب من مشروعية باستصدار الفتاوى الشرعية لاستساعة هذا العمل الفطيع منه كما سبق أن وقفنا عليه ، فإنها لم تستطع أن تعطل فاسا مما لها به الصدارة والشهرة إطلاقا . كما لم تستطع أن تأتني على ما قام تلبية لحاجة العصر وخدمة للدعوة إلى الجهاد التي نادى بها رجال الزوايا في الآفاق واستجاب لها الناس هنا وهناك .

فليس غريبا بعد هذا إذن أن تتحول المجالس إلى المراكز الجديدة التي أسست على يد الرجال الذين ينتسب إليهم أهل الحل والعقد في هذه المرحلة العصبية من الحياة المغربية والذين يتزعمون تلك المراكز التي تركزت حولها الأنشطة لتبنيها ما يستجيب لرغبة الأمة في إنقاذ البلاد من الوهدة التي تردت فيها فحيل بينها وبين شخصيتها الدينية والثقافية ، وبينها وبين كيائها السياسي أو كاد ذلك .

ومن أجل ما تقدم ذكره نرى نشاطا متزايدا ، والتفافا ملحوظا ، حول زاوية القلقلين التي أسسها عبد الرحمان الفاسي للذكر وخدمة التصوف ، والتي استجابت من بعده وعلى يد تلميذه وحفيده أخيه شيخ الجماعة عبد القادر الفاسي إلى خدمة العلم دونما إهمال لما كانت تقوم به من قبل على يد مؤسسها الأول فنشطت في الميدانين نشاطا حفظ لها ذكرها ورفع من شأنها حتى عدت ثلاثة ثلاثة التي احتضنت المعرفة والتي لولاها لاتقطع العلم بالمغرب .

فلماذا نحن قد تعرفنا إلى فحوى العلوم التي تدرس بفاس عموما ، والتي لاقت إقبالا ورواجا بين الطلاب هناك ، أمكننا بعد ذلك تصور الحركة العلمية التي تجري بين عرصات هذين المركزين وداخل حلقاتهما ، وتصورنا مع ذلك الآفاق التي يمكن لها تلك العلوم أن تفتح إليها أذهان روادها والمترددون عليها ، خصوصا إذا أسعفنا بالإطلاع على أسلوب هاتيك الدروس في الإلقاء والتبليغ .

أما هاتيك العلوم التي كانت تدرس بين جدران هذين المقامين ، والتي كادت تتظافر أقوال الباحثين والمؤرخين للثقافة الفاسية عليها فإنها لا تتجاوز الفنون التقليدية والتي ليس للأذهان بعيد عهد بها من فقهيات وعقائد وأصول ونحو ، وقراءات وبيان ومنطق ولغة ، وتصوف وحديث (1) . فتتجه مدارس القوم لها إلى العناية بحفظ متونها ومختصر نصوصها للتحقيق فيها والتعليق عليها في معالجة لعبارتها شرحا وتحليلا ، ومقارنة وموازنة ، وتخريجا لما فيها من معان يثور حولها الجدل اللفظي .

ونحن عندما نرجع إلى النشاط العلمي في تأليفه المؤلف آئذ ، وعندما نقف على ما ذكره بعض الطلبة وهو يتحدث عن بعض المجالس التي كان يحضرها نزيد تأكدا من أن الدراسة آئذ كانت كثيرة العناية بالشروح والحواشي وحل مغلق التراكيب والمختصرات (2) . وهي الطريقة التي لا تثمر غالبا أكثر من القدرة على الجدل والتصرف في العبارات والألفاظ التي تعالج أكثر ما تعالج مؤلفات العلوم دون العلوم نفسها ؛ ولهذا لا تكون هذه الطريقة مجدية في تقدم العلوم والإضافة إلى بنيانه والخدمة له إنتاجا وتشيدا . وهذا ما كان ظاهرة هذا العصر في الحركة العلمية والأدبية القائمة بمعاهد فاس تحت ظل العهد السعدي الأخير .

مراكش

وأما مراكش فلم يكن حظها بأسعد من حظ فاس في غمرة هذه الفتن وما جرته عليها من محن ومصائب شملت جميع أوجه النشاط التي من بينها الوجه الثقافي الذي يعد بحق وجه البلاد وعنوانا عليها .

-
- (1) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 19 وما بعدها .
(2) هذا الطالب هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي المتوفي سنة 1072 هـ . ينقل لنا سماعه البخاري على الفقيهين أبي القاسم بن أبي النعيم وأحمد المقرئ فيقول : « سمعت عليهما معا صحيح البخاري نحو ست ختمات . كانا يجلسان بمجلس واحد بجامع القرويين . ويحضر مجلسهما جميع أعيان طلبة فاس وغيرهم من العلول والعامة ويحضررون شروحا وحواشي عديدة ... فاستفادوا وأفادوا ... وذلك كله بقراءة شيخنا محمد بن محمد البوعناني » . مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 20 .

ومعلوم أن مراکش التي هي إحدى العاصمتين الهامتين بالمغرب الأقصى قد عرفت في تلك الفترة فتورا ثقافيا ملحوظا ومهولا في آن واحد . فلقد تركها جمع غفير من العلماء في اتجاه إلى مسقط الرأس أو في اتجاه للبحث عن موطن يضمن هدوء البال ، والبعد عن العواصف في حالة من الهلع والفرع عظيمين تولدا عما انتابها من ويلات ناتجة عن الكر والفر بين أبناء المنصور فيما بينهم أولا وفيما بينهم وبين من نازعهم الملك والسلطان ثانيا ، من أمثال الحاحي وابن أبي محلي من رجالات سوس .

ولعلنا لا نستطيع أن نغفل ما لحق المكتبة السعدية التي لاقت من المنصور الذهبي من العناية ما جعلها كمترا ثمينا لا يضاهي ، لما اشتملت عليه من النفائس والذخائر ، ولما ضمت من النوادر التي قل أن توجد في غيرها من المكتبات الكبرى ، والتي لاقت من بعد المنصور على يد ابنه زيدان وهو يسلمها إلى أيدي الدخلاء الأجانب من المرتزقة تأمينا منه لهم عليها لنقلها عند وقوع إجلائه قسرا عن عاصمته الحمراء إلى مأمّن بعيد عن صروف الدهر وغوائله ، ما حولها فريسة سائغة للنهب والقرصنة قدمت إثر هذه العملية هدية سائغة إلى مكتبة الاسكوريال بمدريد لتستقر نهائيا فيها (1) .

وليس أدل على ما انتاب مراکش من الكساد الثقافي آنئذ من حرص زيدان السعدي ، وقد هاله الفراغ العلمي الذي يعيش فيه هو وعاصمة ملكه ، على استجلاب العلماء لها ومحاولة حملهم على الإستقرار فيها بإغرائهم بالمال (2) . كما أن خطة قضاء مراکش أثناء تلك الفترة الصعبة التي مرت بها قد تداولها علماء سوسيون تتلمذ عليهم اليوسي هناك (3) . وهم : عيسى السكتاني صاحب التآليف الفقهية والكلامية المشهورة (4) ، وقد

(1) نفس المصدر السابق : ص 22 .

(2) نفس المصدر السابق : ص 23 .

(3) نفس المصدر السابق .

(4) نفس المصدر السابق .

أسند إليه السلطان زيدان السعدي قضاء الجماعة في حاضرتة (1) ، ومحمد المزوار الرسموكي السوسي وقد تولى منصب القضاء بمراكش كما تولى الوساطة إلى الوليد بن زيدان (2) - وبإذن منه - لدى الدلائين¹ عند نزوع محمد الحاج الدلائني إلى الحكم (3) ، ومحمد بن ابراهيم الهشتوكي وقد تولى هو الآخر قضاء مراكش أيضا (4) . وثلاثتهم أساتذة اليوسي كما ذكرنا . التقى بهم وأخذ عليهم عند زيارته لمراكش في رحلته لطلب العلم (5) . ولعلها تلك التي جاء ذكرها في كتابه المحاضرات وأرخ لها بأنها كانت أيام السلطان محمد الشيخ ابن زيدان (6) المتوفي سنة (1064 / 53 - 1654) (7) .

والظاهر أن هذا الذي حدث من تولية قضاء مراكش لأمثال هؤلاء العلماء من أبناء سوس من جهة ، ومن كون علمائها في أغليتهم الساحقة من غير أبنائها من جهة أخرى ، يقوم دليلا آخر على شroud العلم وأهله من البلاد حتى أصبح مستوردا في أشخاص العلماء الطارئين أو أشباه الطارئين الذين تعرض عليهم المناصب الشرعية الهامة بدافع الاضطراب لا الاختيار ، كما تعرض عليهم مناصب التدريس كذلك ، إذ يستبعد كثيرا أن يكون ما حدث من قبيل الصدف التي تعرض في الحياة . لكن الذي دفع بزيدان السعدي لإغراء العلماء بالمال واستضافتهم هو الذي دفعه ودفع خلفاءه من بعده إلى التزلاء لا إلى الأبناء ، وإلا فأين هم أبنائوها ؟

ومهما يكن من الأمر فإن الذي يعلم أن الشيخ محمدا البوعناني الذي استقدمه زيدان من فاس قد كلف بإلقاء خمسة دروس يوميا . اثنان منهما في الفقه . واثنان في النحو وواحد في التوحيد ، وأن الذي يطلع على ما كان

(1) نفس المصدر السابق .

(2) قتل الوليد بن زيدان يوم الجمعة 15 رمضان سنة 1045 هـ . على يد العلوج غدرا به . الاستقصاء : ج 6 . ص 32 .

(3) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 23 .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) نفس المصدر السابق ؛ وكذلك الفهرست : ص 140 - 141 .

(6) المحاضرات : ص 142 .

(7) تقديم ديوان اليوسي : ص 19 .

تلقاه اليوسي هناك من الفنون العلمية على يد أساتذته الثلاثة الذين تقدم ذكرهم ، حيث ثبت أنه أخذ عن شيخه السكتاني مختصر السنوسي في المنطق ومحصل المقاصد في التوحيد لابن زكري (1) مع العلم بأن السكتاني هذا كان يدرس مع ذلك كتب التفسير والحديث والفقه (2) ، وأن شيخه المزوار كان يدرس هو الآخر هناك الفقه والتوحيد والمنطق (3) ، وأن اليوسي قد أخذ عنه مختصر السنوسي (4) ، وأن الفقيه الهشتوكي قد أفاد اليوسي بما قرأ عليه من مورد الظمان في القراءات وألفية ابن مالك في النحو وتنقيح القرافي في الأصول ومختصر خليل في الفقه وكتاب القلصادي في الحساب (5) ، وإن الذي يتعرف أيضا إلى أن أساتذة العلم بمراكش جلهم غرباء عنها وجلهم من أبناء القبائل السوسية ، وأن المرغيتي (6) كان يدرس فيها الحديث والفقه والعقائد زيادة على العلوم الرياضية والفلكية ، وإن الذي يقف كذلك على ما جاء في رسالة بعض العلماء الذين ارتحلوا من فاس وحلوا بمراكش في حديثه عن وفرة طلبة فن القراءات في الحمراء (7) ، يتجلى له ما كانت تتوفر عليه مراكش من أنواع المعرفة التي لا تتجاوز ما كان يجري بفاس إلقاء وتلقينا ونوعا .

ولعلنا بهذا الذي مر بنا نقرب من الاعتقاد بأن مراكش أيضا لم يكن لها من العلم إلا حظ الاستهلاك والإجتراح دون الإنتاج والإبتكار . وهي نتيجة حتمية للجو الإرهابي الذي عاشته الحمراء ، والذي جعل منها كرة تتلقفها الأيدي وتركلها الأرجل . فافتقدت بذلك ثروتها العلمية التي نزحت عنها وخلت منها البلاد .

-
- (1) الفهرست : ص 140 .
 - (2) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 23 .
 - (3) نفس المصدر السابق .
 - (4) الفهرست : ص 141 .
 - (5) نفس المصدر السابق .
 - (6) مجلة البحث العلمي : سن 3 . عد 7 . ص 24 .
 - (7) نفس المصدر السابق .

الزاوية الدلائية :

أما الزاوية الدلائية فإنها تعد بحق من أهم المراكز التي أوى إليها العلماء ومن مسه مس من تلك الأحداث والجوائح التي استدعتها الفتن آنئذ . ولعل ذلك راجع لمناعة مركزها ومنزلة رجالها وما انتهت إليه من قوة وبأس وقدرة على الدفع والقهر ، مع ما أوتي مؤسسها من حسن المعاشرة واعتدال المزاج ولين العريكة والجانب ، وحكمة التصرف وسماحة العطاء . حتى إذا ما جاء الأمير الدلائى السياسى أحمد الحاج وجد كل شيء قد تهيأ له . فغزا البلاد ونشر السلطان . وأصبح الدلاء قوة هائلة في قمة سطوتها ونفوذها ، قد جمعت ما بين العلم والتشجيع عليه والترحيب بأهله والسخاء لطلابه ، وبين القوة العسكرية القائمة على الذود على حياض الدين والعمل على جمع الكلمة وردع المعتدين من الداخل والخارج .

فالمعروف عن هذه الزاوية أنها أسست على حركة صوفية قوامها نشر الطريقة الشاذلية . ثم هي بعد ذلك أخذت حلقاتها تتسع لتضم العلوم الشرعية واللغوية والأدب . فشملت القراءات والتفسير والحديث والفقه . والأصول والتصوف والتوحيد والنوقيت والمنطق ، في معالجة لأمهاات الكتب من أمثال كتاب سيبويه والأمالى والمغنى ، ومقامات الحريرى ، وجمع الجوامع ومختصر خليل وتلخيص القزوينى .

ولعل ما اختصت به هذه الزاوية من حصانة سياسية ومناعة قومية ، باعتبارها قوة بربرية نابعة من الأطلس بين الجبال والصحارى ، ومن عناية بالحقيقة ، ومما تقدمه حلقات الوعظ والإرشاد للوافدين عليها لتلك الغاية ، تذكىها الروح الصوفية الداعية لصيانة الوطن والجهاد فى سبيل الله ، ومن خدمة للعلوم بطريقة أبهى وأحسن ، ومن أسانذة من خيرة مشائخ المغرب الذين جاؤوا إليها من كل حذب وصوب ، فحملوا إليها معهم طابع أوطانهم ولون بلادهم وزبدة ربوعهم ، ومن التفاف القاصى والدانى بها وإقبال الخاصة والعامة عليها ، قد جعل منها منارة تضيء فى وجه طلاب

العلم والمعرفة ومريدي الحقيقة والوصول ، وفي وجه أصحاب الطموح السياسي (1) طلبا للعون أو دفعا للاعتداء .

والغالب على الظن أن توفر هذا المركز على مقومات الائتلاف ودواعي شرف الإنتساب جاها وثقافة وعصبية ، قد حجب إلى اليوسي أن يتخذ منها سكنا وفيها موطنها وعندها عشا ، ولديها منطلقا لبروز شخصيته العلمية والأدبية ، ولعان نجمه في دنيا الشريعة والحقيقة ، بعد أن قوى عوده واشتد ساعده ، وغرف من مختلف الحياض في رحلته الطويلة النشيطة أعوام الستين والألف هجرية طلبا للعلم حتى انتهى به المطاف إلى درعة ، أين التقى بشيخه في الشريعة والحقيقة ، الذي يعزو اليوسي إليه كل فضل ، مستفيدا منه ، آخذا من معينه سلوكا وتربية وتعلما وتوجيها . فطاب به المقام بعد كل ذلك في الزاوية الدلائية آمننا مطمئنا ، راضيا مرضيا ، يفيد ويستفيد .

سجل ماسية :

وإذا انتقلنا إلى سجل ماسية فإننا نجد مركزا علميا آخر كانت له أهمية سياسية إلى عهد المرابطين ، ثم انتعش أمره أيام محمد بن الشريف العلوي الذي حذب عليه ونشطه لعوامل مختلفة ، قد يكون منها ما في نفسه من رغبة وطموح نحو مجد سياسي وحركة ثورية تنتهي به إلى السلطة وبسط النفوذ على الربوع المغربية في محاولة لتوحيدها ولم شعثها والضرب على يد الأمراء والمضاربين في حظوظها ومقدراتها ، متخذًا سجل ماسية هذه مهدها للدولة المنتظرة التي جاء تحقيق وجودها وإبراز كيانها إلى حيز الوجود ، والخروج بها من القوة إلى الفعل على يد المولى رشيد ثم يد المولى اسماعيل من بعده .

فلقد وصف أبو علي اليوسي هذا النشاط العلمي هناك وما شمله من تشجيع ورعاية ، ومن دأب على التحصيل والمعرفة عجيب ، شارحا ذلك إلى

(1) الزاوية الدلائية : ص 159 .

السلطان اسماعيل العلوى بقوله : «ثم جاء المولى محمد بن الشريف أخو سيدنا . فأحيا العلم في بلده . وأعطى الفقهاء وأكرمهم وخالطهم . وحرر أهل البلاد للقراءة في القصبة . فقام لهم ذلك التحرير مقام العطاء . وتسارعوا حتى أن الرجل المسن من أهل سجلماسة يكتب الأجرمية (1) في لوحة يقرأها . وكثرت المجالس وكنا هنا حتى أن أكثر الأيام لا نذوق طعاما إلا عند الإصفرار لاشتغالنا بطلب العلم وتقلنا في المجالس طول النهار فانتفع الناس » (2) . ثم يتعرض اليوسي بعد ذلك إلى وصف ما يلقي فيها من حيث النوع والأسلوب والمستوى فيقول : « ... غير أن علوم الصحراء قاصرة . إنما هي ما قرب من فقهيات ونحويات ولا يترقون إلى ذروة العلم . ولا يخوضون في لجج العلم العقلية والتقليدية » (3) ، منها إلى أن إطار البحث كان ضيقا ، وأنه يعتمد على الفروع لا الأصول في تجنب للعقليات وابتعاد عن الخوض فيها ، ومشيرا إلى المعارضة الشديدة التي لقيها علماء أصول الدين والفقه من لدن بعض أشياخ البلد (4) ؛ ليؤكد أن التلقين والحفظ والوقوف على النصوص الفقهية والحرص على متون العلم أمر مستأنس به ، مرتاح إليه ، لا يمكن تجاوزه إلى غيره ولا تجاهله بحال .

الزاوية العياشية :

وأما الزاوية العياشية فإنها رغما عن كونها لم تبغ مبلغ الدلاء في الرواج العلمي إلا أنها قد أدت رسالتها العلمية بجانب رسالة التصوف التي أسست الزاوية من أجلها على يد محمد بن أبي بكر العياشي الذي عمرها

(1) الأجرمية : كتاب في النحو ينسب إلى صاحبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المتوفى بفاس سنة 723 هـ ، المعروف بابن اجروم (بضم الجيم والراء المضعفة) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 210 .

(2) رسالة اليوسي الجوابية : ص 15 .

(3) نفس المصدر السابق .

(4) نفس المصدر السابق .

بتلاوة القرآن وقراءة الأحزاب الشاذلية وتدريس مبادئ العلوم (1) .
 ذلك أن حلقات العلم لم تنتعش ولم تجد مكانها المرموق في الزاوية
 إلا على يد ولده أبي سالم الذي غصت الرحاب في أيامه بالطلبة المبتدئين منهم
 والمتهمين . فكانت تدرس فيها العلوم التقليدية التي عظم حظها في ذلك
 العصر ، وعم رواجها لدى كافة الأوساط المغربية ، والتي لا تعدى ميادين
 النحو والحديث والبلاغة والفقه والقراءات مما ورد ذكره في كتاب « قرى
 العجلان » لصاحبه أحمد الهشتوكي (2) .

الزاوية الناصرية :

وإذا انتقلنا إلى زاوية تمغروت أو الزاوية الناصرية التي اشتهرت
 باسم من انتقل إليها (3) ، وهو الشيخ محمد بن ناصر الذي يعدّه اليوسي
 شيخه الوحيد الذي أخذ عنه العهد والورد ، وإليه يتسبب بما استفاده منه
 من علمي الظاهر والباطن ، ومن صحبته له وهو « العابد الناسك الورع
 الزاهد العارف القائم بالطريقة ، الشارب من عين الحقيقة » (4) كما وصفه
 اليوسي نفسه ، إذا انتقلنا إلى هذه الزاوية فإننا نكون أمام نبع علمي فياض
 وهام ، وأمام ثالث المراكز الذي يعتبر في نظر أهل العصر ملاذاً
 للعلم ومجدداً لشبابه ، والذي قيل عن صاحبه إنه أحد الثلاثة الذين لولاهم
 لانقطعت جذوة العلم بالبلاد المغربية .

ففي هذا المركز كانت حلقات التفسير والحديث والفقه والعقائد
 والحساب والتوقيت والعلوم اللغوية مجالا تتردد عليه الهمم واردة وصادرة .

(1) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 35 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) تقع الزاوية الناصرية بتمغروت على ضفاف وادي درعة وراء الأطلس الكبير في الجنوب
 الشرقي من مركز زاكورة على بعد نحو 22 كلم منها . أسسها أبو حفص عمر بن أحمد
 الأنصاري المتوفى سنة 1010 هـ وذلك سنة 983 هـ ، إلى أن حل بها محمد بن ناصر الدرعي المتوفى
 سنة 1085 هـ . وذلك سنة 1040 هـ ، وآلت إليه فنسبت إليه وعرفت بالزاوية الناصرية . انظر
 الزاوية الدلائية : ص 57 .

(4) الفهرست : ص 157 و 158 .

وعلى هذا المركز أقبل أبو علي اليوسي بشوق بالغ جعله يتخلى عن منصب التدريس الذي أسنده إليه - بترشيخ واختيار - أمير إبليغ بتارودانت (1) لما بلغه خبر هذا الشيخ وما كان عليه من سلوك ومعرفة . فلقد ذكر اليوسي أنه قرأ على هذا الشيخ جملة مفيدة من الكتب والفنون نتعرف إليها فتيبين أهمية هذا المركز الثقافي ومدى صدق اللهجة التي تتحدث عنه بإعجاب وإكبار . فمما قرأه على أستاذه ابن ناصر هذا - علاوة على عهد الشاذلية وما سمعه من مواعظه ووصاياه - جانب من مادة التفسير ، وجملة من مختصر خليل ، والأحياء للغزالي ، والمدخل لابن الحاج ، وجزء من البخاري والشفاء وطبقات الشعراي ، وكتاب التسهيل لابن مالك (2) ، وهو الكتاب الذي أولاه شيخ تمغروت عناية خاصة في حياته التدريسية شبيهة بعناية الدلائين بكتاب سيبويه ، حتى قيل عنه إنه كان يحفظه عن ظهر قلب (3) .

ومما ينقل عن إمام هذه الزاوية وشيخها محمد بن ناصر أن له طريقة حية وعجبية في تدريسه للعلوم انفرد بها دون غيره من مشائخ عهده . ذلك أنه كان يراعي في تدريسه مستوى الطلبة وهو يلقي الدرس فيميز فيما بينهم بما لهم من تفاوت في درجات الدرس ومستويات التحصيل . فبينما كان يكتفي ببساطة الإلقاء مع المبتدئين ، مقتصرًا لهم على حل ظاهر المتون وتقريرها دونما اشتغال بكثرة النقول والخلافات المتشعبة بين العلماء ، كان على خلاف ذلك مع المنتهين وكبار الطلبة الذين قد بلغوا مرحلة التخرج . ولعل هذه الطريقة التي كانت للإمام ابن ناصر هي التي ورثها عنه تلميذه اللامع أبو علي اليوسي واستفادها منه استفادة كبرى . فلقد كان يوصيه بها وينبهه إليها حتى بعد ابتعاده عنه وانفصاله عن مجالسه بما كان يجري بينهما من مراسلات ومكاتبات (4) .

(1) سوس العالة : ص 67 ؛ وكذلك طبقات الحفصكي : ص 123 وما بعدها .

(2) الفهرست : ص 143 .

(3) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 36 .

(4) الدر المرصع : ص 326 .

والظاهر أن هذا المركز الثقافي لا يتعدى بكثير غيره من المراكز الأخرى ، لا من حيث الفنون المقروءة فيه ، ولا من حيث طريقة التبليغ لتلك الفنون والعلوم ، إذا ما استثنينا طريقة الشيخ ابن ناصر التي لاقت من الإطراء نصيبا بلغ حد الغلو .

ولعل لهذا الإهتمام عوامل عدة قد يرجع أهمها إلى شخصية الشيخ ابن ناصر التي تتوفر على الإستقامة والشدة والصلابة في الدين (1) . كما تتوفر على هذه الطريقة التدريسية التي قد تعد غريبة على ذلك الجيل الذي لا عهد له إلا بالأساتذة المغرمين بكثرة الأنقال والمهتمين بالجانب الجلي اللفظي الذي لا يتغلغل إلى الأعماق غالبا . وقد يرجع أيضا إلى مركز هذه الزاوية المتاخمة للصحراء ، والقائم غير بعيد عن البلاد السوسية خصوصا وأنها تجاوزت مستوى المدارس الابتدائية المعروفة هناك إلى مستوى المعاهد الهامة التي تخرج فحولاً من العلماء يتباهى بهم مغرب القرن الحادي عشر الهجري ، والذين يعد منهم مفخرة جيله الإمام اليوسي . ولعل أهمية هذا الجانب جعلت بعض المتأخرين ينسبون إلى الزاوية الناصرية « فضل انتشار العلوم والفنون إلى تخوم الصحراء ، وفضل النهضة الأدبية التي عمت بلاد سوس في العهد العلوي كما نسب إليها فضل تفتح القرائح هناك عن أبعد ما أنتجه الفكؤ العربي في المغرب (2) » .

إيليج :

ثم نأتي بعد ذلك على إيليج التي أسسها أبو الحسن السملالي لتكون بعد ذلك قاعدة للقطر السوسي وعاصمة لإمارته . فلقد أطنب الأستاذ المختار السوسي (3) في إبراز أهمية هذا المؤكر العلمي الذي استطاع أن يقف بجانب بقية المراكز الثقافية الأخرى ليؤدي رسالته في ذلك الظرف الحالك

(1) الزاوية الدلائية : ص 59 .

(2) رسالة المغرب : عد 135 ، ص 13 - 20 .

(3) سوس الصالمة : ص 21 وما بعدها ؛ إيليج قديما وحديثا : ص 81 .

من تاريخ البلاد المغربية حتى جعله من أجل المراكز التي لا تقل عما كان في مراکش أيام « قصر البديع » في حياة المنصور السعدي .

ومهما يكن من أمر هذا الإطار فإن الذي لا شك فيه أن إيليج وقارودانت كانتا مركزين هامين توزعا حلقات العلم والمعرفة في البلاد السوسية انطلاقا من الحركة الصوفية ، وتلبية — بعد ذلك — لمتطلبات الإمارة الناشئة الفتية التي تقتضي إقامة عناصر التكامل للدولة ساعية نحو الإنتشار والتوسع وبلوغ الأسود والإستقلال بالسيادة .

ومن خلال العلوم التي جاء ذكرها في كتاب سوس العالمية (1) نتبين ما يمكن أن تكون عليه آنئذ هذه الحركة العلمية والأدبية ، والطابع العلمي الذي طبعت عليه أساليب التعليم والإقراء والتعلم ، وما يجتجح إليه العلماء وأرباب الفكر هناك .

فلقد استطعنا أن نحصر هذه العلوم في فنون القراءات والتفسير والحديث وعلومه ، والسيرة والنحو والتصريف واللغة والبيان ، والأصول وعلم الكلام والفقه والفرائض ، والحساب والهيئة والمنطق والعروض والطب والأسانيد والجدل والأدب .

وليس من شك في أن دراسة اللغة وآدابها في هذا المركز لا تبتعد عن الطابع العام الذي عمت به العناية في ذلك العصر داخل البلاد عموما ، إن لم تكن حذوك أنعل بالنعل كما يقولون . ذلك أن الأستاذ السوسي في كتابه هذا يشير إلى أن عناية العلماء والأدباء بذلك هي العناية التقليدية المحافظة التي تتمثل في حفظ أشعار القدامى ودراسة الأمهات ، حيث يؤكد أن العناية لديهم بحفظ المتقدمين من الفحول وكتب الأدب من أمثال مقامات الحريري كانت عناية فائقة (2) .

(1) سوس العالمية : ص 31 .

(2) نفس المصدر السابق : ص 66 .

ولعل هذا يكون متناسبا مع ما جاء عند الأستاذ السوسي — وهو يتحدث عن صناعة الإنشاء في تلك الحقبة — فيتخذ من فيض المراسلات التي كانت تدور بين أمراء سوس من جهة ، وبقية المتنازعين على الزعامة والسلطة آنئذ من جهة أخرى ، دليلا على أن صناعة الإنشاء مزدهرة يتخذها البارزون مفخرة يتحلون بها أمام أقرانهم .

ولا بدع إذا رأينا إيليج البارزة قد طفحت فيها وإليها أمواج أدبية يدل عليها ما بين أيدينا من قصائد ومقطعات وقليل من الرسائل (1) . غير أن هذه الرسائل عند الرجوع إلى الكثير منها يلاحظ في غالبها ما يبدو من ظاهرة التعلق بالسجع إلى حد بعيد حتى لا تكاد تفلت منه جملة واحدة منها (2) .

هذا وإن الحركة العلمية بالقطر السوسي عموما تبدو نشيطة وإن لم تكن متعمقة . فهي حركة تعنى بنشر المعرفة في تلك الربوع عنايتها بالعلوم الدينية واللغوية حتى أنه « كثيرا ما تكون في كل قبيلة مدرسة أو مدارس متعددة إن كانت القبيلة كثيرة الأفخاذ فتبنى كل فخذ مدرستها على حدة . وهذه المدارس تسمى مدارس علمية ليكون الفرق بينها وبين كتاتيب القرآن التي لا تخلو منها أية قرية وإن صغرت » (3) .

وبناء على ما تقدم فإنه يمكننا أن نستخلص أن مركز إيليج الثقافي العلمي هو كبقية المراكز في غالب مميزات وخصائصه . فهو يضم بين جدرانها حركة علمية ناهضة وإن كانت لا تتجاوز بكثير ما كانت عليه قريناتها في المراكز الأخرى رغما عن الإطراء الذي تطالعنا به كتابات الأستاذ السوسي فيما خلفه من كتب حول القطر الذي منه انحدر وإليه

(1) إيليج قديما وحديثا : ص 81 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) نفس المصدر السابق : ص 49 .

يتنسب ، إلا أنها على كل حال قد تبدو أكثر اتساعا وأكثر ميلانا إلى الإنطلاق والتحرر مما كان يعتري الفكر وقتها من إقبال على الحفظ وتعلق به ، وتشبث بالفروع وازورار عن الأصول ، وممارسة لشرح المختصرات والتعليق عليها والتعقيب على ما جاء فيها ، وعناية بفك الإشارات ومعالجة التخريجات العلمية الجدلية ، وشغف بالأدب القديم بنوعيه الشعري منه والشري . أما الأول فيرجعون فيه إلى ما خلفه الشعراء القدماء . وأما الثاني فيرجعون فيه إلى السجع الحريري الذي هو عندهم من أهم مصادر الأدب العربي وما انتهى إليه الذوق السليم والنبوغ المتفوق .

غير أنه مقابل هذه الخصائص التي سبق التعرض إليها لا يمكننا أن نغفل بحال ما كان للبلاد السوسية آنذ من رجال فحول قد أمدت بهم مراکش بالخصوص فاستفادت منهم في حركيتها العلمية والقضائية كما سبقت الإشارة إليه .

وختاما فإن الذي يمكن استخلاصه مما اطلعنا عليه في مختلف المراكز العلمية التي مرت بنا ، والتي هي أهم المعاهد وأكثرها شهرة ، أن طريقة التدريس في هذا العصر ، وفي مختلف المناطق المغربية تعتمد في جوهرها على دراسة الكتب لا الفنون . وهي الطريقة التي تقتضي من كلا الأستاذ والطالب مجهودا لا بأس به لمعالجة العبارة تحليلا وشرحا واستخراجا واعتراضا وجوابا ، أكثر من معالجة الفن نفسه مما يورث مقدرة كلامية وذهنية تحليلية جدلية لا يمكن التقليل من جدواها والغرض مما ترجع به على صاحبها من فصاحة في الحوار وتمكن من اللغة ، ومقدرة على أساليب التعبير وتمرس في الجدل ، ومرونة على الطريقة المنطقية التي تتوخى كثيرا التدقيق في العبارة والتحرى في المناظرة ، إلا أن لها جوانب ضعف من أبرزها صرف المجهود أو الكثير منه عن جوهر الفن والغوص في عناصره واستكمالها والتوفر عليها والتمكن منها ، مما قد يساعد على التقدم العلمي بحثا وتنقيا وجمعا وتنظيما واستيعابا . وهو ما لا يمكن أن يكون مع العناية بالتركيب وحل غموضها أكثر منها بأصول الفن وما تنتهي إليه من كشف أسرار المادة والتقدم

بها إلى أبعد مما تركها عليه الأسلاف والفحول من أصحابها . وهو ما خلت منه الغالبية المطلقة من مؤلفات ذلك العصر فلم تطالعنا به آثاره التي تمكنا من الإطلاع عليها .

بقية المراكز :

أما إذا ما تجاوزنا هذه المراكز التي تعرضنا إليها بالحديث إلى غيرها من المراكز الأخرى وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من المراكز لا نبلغ شأو السوابق ولا نتجاوزها في الروح الثقافية والمواد العلمية ، بل لا تلحقها ولا تقترب منها . فهي عبارة عن مراكز للثقافة الدينية وتحفيظ مبادئها وأولياتها . مهمتها الأخذ بيد المبتدئين ، والمساعدة لمن حدثته نفسه بالتحرج على ما هو متعارف عليه في ذلك العصر فتعده للحاق بما هو أعلى منها شأنًا وأوسع دائرة ، وأكثر نشاطًا وأبعد تعمقًا وأرقى درسا (1) .

خاتمة :

هذا ، وانطلاقا مما تقدم ومما ساعدتنا الظروف على الإطلاع عليه مما كتب حول هذا العصر في الجانب الثقافي ، أو ما تركه لنا أصحابه ووقفنا عليه من الآثار الشعرية والنثرية المتنوعة الأبواب والأغراض التي ما زال الكثير منها مخطوطا وموجودا في الخزانات المغربية الخاصة والعامة خصوصا منها قسم الوثائق من الخزانة العامة بالرباط ، نستنتج أن الفضل كل الفضل في حفظ المعرفة بالبلاد المغربية في ذلك العصر على الأقل فيما يظهر ، يرجع أكثره إلى حركة الزوايا والطرق القائمة — عن صدق — على الدعوة الصوفية وخدمة الدين التي تدعو إليها الحالة العامة بالبلاد . وأن القوم

(1) مجلة البحث العلمي : سن 3 ، عد 7 ، ص 25 ، 26 ، 28 ، 29 ، 31 ، 32 ،
33 ، 37 ، 39 ، 43 .

اعتمدوا في ذلك على الطريقة الشاذلية (1) الجزولية (2) الجنيدي (3) وأن الإعتقاد في النشاط العلمي والإنتساب إليه قائم على الذاكرة وما تستوعبه من نصوص ومحفوظات أكثر من الإعتقاد على الرأي والإجتهد والتصرف . فلقد تفشت آنئذ الرغبة في حفظ المتون والنصوص في كل فن ، كما سادت حركة الجدل اللفظي والتخريجات والتمحلات البعيدة عن العمق في النظر الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على الفكر والعقل وما يتولد عنهما من طاقة التصرف والإبتكار ، والذي لا يعتمد كل الإعتقاد على الحفظ والذاكرة وما في ذلك من الإهتمام بالجمع وكثرة النصوص والوقوف معها دون تخطيها إلى ما هو أبعد وأجدى وأنفع . كما أنه قد تبعت هذه الحركة حركة أخرى قوامها صناعة الشر القائم على السجع حيناً ، وعلى الأسلوب العلمي الغير الفني حيناً آخر . وقوامها أيضاً صناعة الشعر القائم حيناً على الأغراض التقليدية التي تخلو من الروح لما فيها من تقليد للقدامى بما لا يخدم عواطف الشاعر ولا طموحات المجتمع ولا الاحداث داخل المجتمع ، وإنما دعتة الرغبة في مسابرة للفحول من معان وتقليدهم فيها ولو لم تكن مغربية المنبت والمنشأ . كما أنها تقوم حيناً آخر على الشعر التعليمي والنظم الجاف الذي جاء ليلبي رغبة المتصوفة والطرقية في الأمداح النبوية الخالية من الإبداع الفني والجوانب الشعورية الرقيقة ، وكذلك في الأدعية التي تخدم ما يناسب حلقات الذكر وتجمعات المنتسبين . فتسهل على المريد حفظ تلك الأدعية وسهولة أدائها عند الحاجة كما توفر الأشعار التعليمية على الطلبة مشقة حفظ الفنون وضبط القواعد والشروط والأركان .

وغير خاف أن أهم المراكز العلمية الذي له فضل كبير على المغرب في هذا العصر بالذات وأكثرها بروزاً وظهوراً هو المركز الذنبي احتضنته

-
- (1) نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي المولود بقبيلة عمارة قرب سبتة من المغرب الأقصى سنة 593 هـ . والمتوفى بصعيد مصر في سفره إلى الحج سنة .. راجع الزاوية الدلائية : ص 49 .
 - (2) نسبة إلى الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات ، المتوفى مسموماً سنة 870 هـ . نفس المصدر : ص 48 .
 - (3) نسبة إلى الامام أبي القاسم الجنيدي ، المتوفى سنة 277 هـ ، نفس المصدر : ص 48 .

الزاوية الدلائية التي لعبت دورا هاما في الحياة العامة في البلاد سواء منها السياسية والثقافية . وغير خاف — كما سبق — أن هذا التمزق السياسي الذي كان على يد السعديين لم يستطع أن يحدث تصدعا في وحدة الاتجاه الثقافي وتلوين الحركة العلمية بأصباغ مختلفة بقدر ما أدى إلى تفكك أوصال البلاد تفككا كاد يودي بالبلاد المغربية ويقضي عليها كما قضى على الأباطورية التي صنعها المنصور الذهبي وتركها مستقرة ومتلاحمة ، فلم يستطع أن يحافظ عليها ورثته من بعده فتصدعت وزهبت شذر مذر حتى كانت الدولة العلوية التي منحها الله قوة مكنها بها من إرجاع المياه إلى مجاريها وضم أشلاء البلاد إلى بعضها لتتوحد سياسيا وتنطلق ثقافيا .

المغرب المتصوف

لمحة تاريخية :

لقد عرف المغرب الأقصى حركة الرباطات والزوايا حتى عرفت به . وهي الحركة التي تقمصها المتصوف في مراحلها الأولى التي عرف بها الشمال الإفريقي بصفة عامة ؛ إذ من المعلوم أن هذه الحركة قد استوردتها المغرب من المشرق فانتقلت إليه منذ عهد المرابطين ، وأنها قد عرفت فيه أطوارا عديدة عبر العصور استطاعت بها أن تواكب حركة المشاركة في فلك الطاعة والعبادات والإقبال على الله بذكره وتلاوة كتابه والتقرب إليه ، وأن يكون لها من الأقطاب أمثال الشيخ أبي الحسن الشاذلي والشيخ عبد السلام بن مشيش قطب المغرب ، مقابل ما كان للمشاركة من أقطاب أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني (1) الذي يعتبر عند أرباب القلوب ورجالات التصوف قطب المشرق بلا منازع ، وأنها في أول عهدها كانت بسيطة لا بدعة فيها ولا انحراف . حتى تلقفها الزمن فأصبحت في نظر الكثيرين عنوانا للانحراف والجمود بما أضافه إليها المبتدعة والمشعوذون حسب الغايات والمصالح .

(1) الشيخ عبد القادر الشريف الحسني المعروف بالجيلاني المتوفي ببغداد سنة 561 هـ . انظر الزاوية الدلائية : ص 63 .

ومعنى ذلك أن هذه الحركة قد عرفها المغرب منذ أن بدأت بشمال إفريقيا في شكل مزارات لأجداد من رافق عقبة بن نافع إليها من الصحابة والتابعين يزورونهم التماسا للبركة من أصحابها الذين سقطوا في حروب الفتح (1) .

ولقد قامت هذه الحركة بادية ذى بدء على تعليم القرآن للطلبة وقراءته . ثم توسع نشاطها نسبيا حتى عرف الصوفية فتميزوا عما سواهم بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الأدعية المقتبسة من الآثار الواردة أو من القرآن الكريم كالتي نجدتها في حزب الفلاح مثلا للشيخ محمد ابن عبد السلام الجزولي (2) وفي أحزاب الإمام الشاذلي رضي الله عنه عموما (3) . وهي التي تتألف مطالعها من آيات الذكر الحكيم .

وبقيت هذه الحركة هكذا نقية صافية لا تبعد عن الجو السني في شيء إلى القرن الثامن الهجري الذي عرفت بعده شيئا من الانحراف والشذوذ بانتساب الأدعياء والمتحلين للمذهب الصوفي . حتى استفحل أمر هؤلاء في القرون المتلاحقة إلى القرن الحادي عشر الهجري الذي يهمننا أمره ، والذي تعرض فيه التصوف بالمغرب الأقصى إلى الإفتيات والدجل من طرف من كان همه عرض الدنيا والمصالح القريية (4) .

وإذا كانت هذه الحركة قد عرفت في المشرق إزاء الجانب العملي منها الجانب النظري الذي استبد بالباحثين والدارسين وألهاهم كثيرا عما سواه بما كان له من طغيان على الجانب العملي تحولت معه إليه في جانب مهم من متعلقاتها ، وهي الحركة التي سداها في الأصل العبادة كما هو معلوم ، ولحمتها الأعراض عن الدنيا إلا بمقدار ما يقيم أودها وما يحتاجه

(1) مجلة البينة : سن 1 ، عد 6 ، ص 60 - 61 . المغرب

(2) الزاوية الدلائية : ص 48 ، وانظر حزب الفلاح في الزاوية الدلائية : ص 275 .

(3) نفس المصدر : ص 49 ؛ وانظر تعريف الحزب في الزاوية الدلائية . ص 61 .

(4) مجلة البينة : سن 1 ، عد 7 ، ص 90 .

المرء منها دونما ترف ولا بدخ ولا استهتار ، فإنها في المغرب ، بالعكس من ذلك ، لم تعرف سوى الجانب الأول منها الذي اشتغل القوم به عما سواه من الجانب النظري . حتى أصبحت هذه الحركة بالمغرب مع ما أدخل عليها مما ليس منها تكاد لا تعرف إلا به ولا تشير إلى سواه ، وحتى أننا لا نستطيع أن نعثر على أثر للجانب الثاني الذي هو الجانب النظري إلا شيئا يسيرا لا يعاب به ولا يؤلف من المذاهب ما صنعه بالشرق . وما أسس منه مما يمكن أن يسمى بعلم التصوف وما يشتمل عليه من نظريات فلسفة وأبحاث نظرية لا تبعد كثيرا عما للمذاهب الشرقية الغير الإسلامية من سلوك وأحوال ورياضات عقلية .

نعم . لقد عرف التصوف في المغرب بعد قرون قليلة من انتشاره داخل ربوعه نشاطا اجتماعيا وتعليميا ثم سياسيا بما فرضته على أصحابه الحالة العامة التي صارت إليها البلاد ، فخدمت كثيرا من الرجال وساندت قيام بعض الدول ، ودعمت الحركة الإصلاحية في بعض وجوهها حفاظا على مقومات المجموعة الإسلامية هناك ، ودفعوا ليد العابثين والمعتدين عليه حتى تحفظ البلاد وتصفاء حرمتها ، وحتى تكون الكلمة للمغاربة في حدود دينهم وإعلاء كلمته ورفع رايته .

نعم . إذا كانت لهذه الحركة هناك في المشرق هذه الأبعاد الفلسفية الدينية التي تولدت عنها مذاهب ونظريات عقائدية تقترب حيناً وتبتعد حيناً آخر عن الإتجاه الديني السليم الذي عرف الكتاب والسنة منطلقاً له في صفائهما وبساطتهما كما كانا عليه في العهدين الأولين ، عهد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام وعهد خلفائه الراشدين من بعده ، وكما كانا عليه قبل قيام حركة التلفيق . في محاولة للتوفيق بينهما وبين ما هو موجود عند الفلاسفة والمذاهب الدينية الأخرى ، فكانت حركة فكرية عقائدية تخدم النظر وتغذى الفكر ويغذيها ، وكانت أيضاً حركة دينية تقوم على العبادة والأوراد والأذكار في أنظمة خاصة ابتدعها أصحابها ومشائخها ليعتمدها أتباعهم فيعرفون بها ، وتتسع حلقاتها وتعدد بهم .

إذا كان لهذه الحركة هناك هذا الطابع المتقدم الذكر فإنها في المغرب طبعت بما يغير ذلك ويتعد عنه ، خصوصا في جانبها الفلسفي الصوفي القائم على الإتجاهات المغالية التي تبعد شيئا فشيئا على العقيدة الصحيحة وتقترب أكثر فأكثر من الديانات والاتجاهات الفكرية التي عرفها المشرق العربي وليس لها أصل في المغرب الأقصى ، فاتجهت فيه بمقتضى ذلك اتجاها أوسع وأبعد وأسلم في الكثير من مظاهره حتى امتدت إلى الحياة العامة منه فغذت الحركات القومية في البلاد ، وخدمت الدعوات السياسية بها حتى قامت على سواعدها دول واحتضرت تحت معاولها دول أخرى . علاوة على ما كان لها من خدمات لصد عدوان الغزاة والمعتدين من النصارى الذين تولد لهم شره خطير نحو ما كانوا يحلمون به من محاولة الإستيلاء على البلاد المغربية وسواحلها بعد أن وقفت هذه الأخيرة في وجوههم تصدهم عن الأندلس زمنا ليس بالقصير .

وهي حسنة من الحسنات الخالدة أسدتها هذه الحركة في هذه الربوع من الأندلس والمغرب في ظرف تلبدت بسماائه السحب ، وغبرت آفاقه الزوايا والعواصف فاستطاعت حركة التصوف هذه في قواها الصامدة أن تخدم البلاد خدمة كبرى مازالت سطورها تملأ صفحة التأريخ الإسلامي في الجناح الغربي من البلاد العربية ، وتشهد على ما قدمه أهلها من بطولات .

أضف إلى هذا الذي تقدم ما كان لهذه الحركة بالبلاد المغربية أيضا من نشاط تربوي تثقيفي تلقيني ، تتمثل فيه صيانة العلم وخدمته من جهة ، كما تتمثل فيه الدعوة الواسعة للإقبال على الإطلاع على الشريعة والتمسك بها ، والإقبال أيضا على العبادة وإصلاح ما فسد من المجتمع ، سواء كان ذلك الفساد في هياكله الإدارية أو مجموعات البدوية منها والحضرية ، تطهيراً للأخلاق وتيسيرا للمعاملات من جهة أخرى . وهو عمل جليل أيضا لو لا أنه قد نالت منه العناصر المنتسبة إلى الزوايا ، والتي اندست في صفوف هذه الحركة فلوثت من صفحاتها الناصعة ، وأفسدت عليها ما عرفت به من خدمات صادقة للدعوة إلى الدين ، والإقبال على الطاعة ، والترغيب في عبادة الله وإعلاء كلمته .

وعلى كل حال فإنه إذا كانت لهذه الحركة أصول شدت بالأرض هناك منذ العهود الإسلامية الأولى في المغرب عرفت فيها نشأتها به ، فإن لها جذورا تفرعت وانتشرت فيما بعد انتشارا واسعا ، وأخذت تتبين معالمها وتظهر واضحة بالخصوص عندما عجز الوطاسيون عن الامساك بزمام الأمور والوقوف في وجه الأجانب لحماية الشواطئ المغربية من إغارة البرتغاليين وصدد عدوانهم فأرست قواعد الدولة السعدية وساندها مساندة تساعدوا - لو أسعفتها المقادير ولو باليسير من الإستقامة - على جمع الشمل وحماية الوطن ورد الاعتبار له ، واشتد نشاط الزوايا بتوفر دواعيه إثر وفاة المنصور السعدي ، وذلك بانحلال العرى وتصدع الصفوف وضغط التدخل الأجنبي ، واستسلام أصحاب السلطة له مع تساهل في حقوق البلاد والعباد على يد أبنائه من بعده . وبذلك جمعت هذه الحركة في المغرب الأقصى بين الميدانين الهامين في حياة الأمم : الميدان السياسي الزمني ، والميدان الروحي الديني .

وهكذا ينبثق من هذه الحركة - حركة الطرق والزوايا - المرابطون فالموحدون . كما تقوم على نصرتها وعصيتها دولة الأشراف السعديين الذين تنكر البعض من سلاطينها لها ، وفي أواخر أيام دولتهم بالخصوص ، وذلك لما هزتهم وعدة الأنانية وضايقتهم تلك الحركة نفسها التي لم يرضها سلوكهم ، والتي لم تنم لها عين على انحرافهم وميلهم عن الوطن وزيفهم عن الدين فيما بعد . فضايقوها كما ضايقتهم وشددوا عليها الخناق توفيراً لراحتهم ، وأملا في الإبقاء على مصالحهم .

فليس غريبا بعد هذا أن ينشط مشايخ الطرق والزوايا . وأن يتوزعوا البلاد ويتشربوا هنا وهناك كما توزعوا سواحلها والمناطق المهتدة منها بغارات الأعداء أيام إقامتهم للرباطات وإقامتهم فيها للعبادة وتلاوة القرآن ومدارسة العلوم من جهة ، ولحراسة الحدود ورد غارات المعتدين وردع العابثين والدفاع على حوزة البلاد وسيادتها من جهة أخرى . غير أن حركة الزوايا المنبثقة في غالبيتها عن حركة الرباطات والمعتبرة امتدادا لها ، لم نجد في كافة عناصرها أواخر أيام السعديين ما كان قبل في غالبية العناصر

قبلها . ولذلك نجد هؤلاء المشائخ ينشطون في هذا العصر . البعض منهم عن صدق نية وسلامة طوية ، والبعض الآخر حبا في السلطة وجريا وراء المتعة والجاه أو رغبة في الإفساد وصرف الهمم عن الأهم وبث الفوضى والشغب . فظهرت بمقتضى ذلك عدة زوايا . كما ظهر في جانبها رجال عديدون وقع افتضاح الكثير منهم في مناطق عديدة من البلاد وفي مواطن صحراوية مختلفة ، بعد أن غرروا بائناس خاصتهم وعامتهم ، وبعد أن فتنوا البسطاء منهم أو كادوا (1) . أثبت لنا اليوسي من هذا القبيل نماذج عديدة في كتابه المحاضرات .

ومن أبرز هذه الزوايا التي كثر الحديث عنها ، وعن صدق أصحابها وسلامة سلوكهم ، وعما أدته من خدمات علمية ودينية فاحتضنت حلقات العلم بجانب حلقات الذكر : الزاوية الدلائية ، والزاوية الناصرية ، والزاوية الفاسية والزاوية العياشية .

وهذه هي الزوايا التي نحاول التعرض لإيها بحديث موجز يعرف بها ويكشف عنها في نشاطها الذي قامت به في المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتي لا تتعدى القرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي .

ولعلنا بموجب هذا الذي ذكرنا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف على ثلاثة عناصر هامة في معرض حديثنا على بقية مظاهر التصوف في هذا العصر التي نجد اليوسي قد تعرض لها موزعة في كتابه هذا بدون أن يعزوها إلى زاوية معينة ولا إلى انتساب معين ، إلا ما جاء عفوا ودونما قصد إليه ، حتى نستكمل الجوانب التي لا بد منها في نظرنا لضبط موضوعنا هذا أو أن نقارب استكمالها على الأقل .

هذه العناصر الثلاثة هي :

أولا : التفكير الديني والصوفي ومظاهر ذلك داخل الإطار الإجتماعي بصفة عامة . لا فرق في ذلك بين الخاصة والعامة .

(1) الزاوية الدلائية : ص 56 .

ثانيا : أبرز الزوايا ومنهجها في طريق القوم . وهي الزوايا التي ذكرنا أننا سنفردها بالتعريف بها وبأنشطتها ، خصوصا وأن منها ما كان لليوسي صلة بها أو شبه انتساب لها ، وقد جاء ذكرها أو الإشارة إليها في كتابه المحاضرات .

ثالثا : مسلك أبي علي اليوسي الصوفي علما وعملا وتفكيراً . وهذا العنصر الثالث قد يعطينا بمساعدة سابقه الطابع العام الذي عليه بعض العلماء الذين لم يرتبطوا ارتباطا وثيقا بزاوية أو طريقة معينة ، سواء كان لهم حنين إلى إحداها ، أو لهم عطف وشبه انتساب إلى حضيرتها ، أو ليس لهم لا هذا ولا ذاك وإنما لهم روح صوفية لا علاقة لها بالطرق والزوايا غير أنهم مجذوبون إلى هذا الجو بموجب الحالة العامة أو بموجب الروح الدينية المسيطرة على علماء الدين وفقهاء الشريعة في هذا العصر ولم يتمكن منهم الطمع ولا التشوف ولا الإشرئباب إلى بلوغ المناصب واكتساب الجاه ولا التعلق بالمتاع .

وهذا العنصر الثالث هو الذي ذكرنا في التمهيد أننا سنخصص له فصلا مستقلا بعنوان « اليوسي المتصوف » .

التفكير الدينى الصوفى داخل الاطار الاجتماعى

سداجة الاعتقاد والتبرك :

يبدو أن الحياة العامة ، خصوصا ما كان منها خارج المدن الكبرى ، قد استبدت بها المشاعر الدينية المتأثرة بأجواء الزوايا والطرق ، وبما توحى به من تعلق بالصلحين ، وتمسك بالإنساب والتربية وكل ما له صلة بحلقات الذكر ومجالس الصوفية في بساطة وسداجة وتسليم دونما إجهاد فكري واع ونظر عقلي صحيح ، ودونما تثبت واستيعاب لما يتناسب مع الدين فيقبل ، وما قد يجافيه فينبذ وي طرح .

يتجلى هذا فيما نقله اليوسى عن بعض المناطق الصحراوية التي أقام هو فيها ، والتي خالط أهلها واطلع على دخائلهم وعاداتهم وتقاليدهم . فمن لك أن أهالي سجلماسة مثلا ، عندما ظهرت في جهتهم شجرة خضراء منعزلة عن البلد ومنفردة بين أشجارها بنوعها ومنبتها وعدم النظير لها ،

استغربوا أمرها واتخذوها مزاراة للتبرك « ... ولا سيما النساء . فسكثرون عليها من تعليق الخيوط . ويطرحون الفلوس أسفلها . وربما تغالت النساء في تعظيمها والتنويه بشأنها حتى يسميها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك ... » (1) . وقريب من هذا الذي لاقتة الشجرة

(1) المحاضرات : ص 36 .

المخضراء من تقديس وتعظيم من سكان سجلماسة ما لاقته شجرة أخرى وكدس من حجر يقال له البقرة بالقرب من ناحية مقام الشيخ أبي يعزى (1) .

فهذا الذي نقله لنا اليوسي في كتابه هذا عما يجري متشابها داخل المجتمع في موضعين مختلفين يدل بوضوح على أن ظاهرة التبرك بالصالحين ومزاراتهم ظاهرة شعبية يتحمس لها الناس ويتوارثونها ويقبلون عليها حتى ولو كانت هذه المزارات مجرد أشياء غريبة من شجر وحجر وما شابههما مما لا أصل له إلا ما أثبتته الوهم المتولد من تقليد البعض للبعض من أن هناك بركة يسعى إليها أو صلاحا يلتمس الخير منه . ومن هنا قد يكون الوهم كافيا لبذل المال والتمسح بالكائنات رجاء التبرك ونيل الثواب والأجر .

والظاهر أن العلماء في سجلماسة يبدو عليهم أنهم لم يجدوا ما يساعدهم من الإمكانات التي لا بد من توفرها للاقدام على تبديد هذه الأوهام من العوام بالكشف لهم عن أمر هذه الشجرة وما شاكلها ، وإقناعهم بالإقلاع عن التمسح بما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يغني شيئا ، وبالإنصراف إلى ما هو أجدى وأنفع . فإنها شجرة لا تضر ولا تنفع . وهي — علاوة على ذلك — كائن من الكائنات لا حول له ولا طول ، ولا شعور ولا إدراك ولا إرادة . فمن أين لها هذه البركة المرجوة . التي لا تكون إلا فيمن ثبت صلاحه وترجحت تقواه من المكلفين الذين ارتقوا بإيمانهم إلى سنام الكمال النسبي الذي به يكون الإنسان من أولياء الله الصالحين المقربين الذين تنزل الرحمات عند ذكرهم ، كما ذكر اليوسي وأثبتته في مستهل خاتمة المحاضرات (2) .

(1) نفس المصدر السابق .

(2) فلقد ذكر أول الخاتمة قوله : « خاتمة أسرد فيها من حضر الآن في فكري ممن لقيت وتبركت به ممن أتسم بالخير واشتهر بالصلاح تبركا بهم ؛ فانه قد قيل : « تنزل الرحمات عند ذكر الصالحين . وقال القائل : « أسرد حديث الصالحين وسهم . فبذكرهم تنزل الرحمات واحضر مجالسهم تمل بركاتهم . وقبورهم زرها إذا ماتوا » . المحاضرات : ص 255 .

وهذا التبرك ، علاوة على ما فيه من التماس الثواب بمحبة المقربين ، لا يتجاوز معناه في الحقيقة إيقاظ المشاعر للاقتداء بهؤلاء الذين هداهم الله وامتلأوا بأوامره وتجنبوا نواهيه واتبعوا رضوانه ، ولا ما لا يتعد عن هذه المعاني التي تفيد المتعظ تزودا بعمل الخير وانتهاج طريق الصلاح في الدارين . وليس منه ذلك الاعتقاد في أمثال الحجر والشجر الذي هو في واقع الأمر لا يتعد بصاحبه كثيرا عن مستوى الإشراك بالله بموجب ما يلاحظ فيه من اعتبار أن هذا الذي ينسب له الصلاح والولاية يضر وينفع وأن له الحول والطول .

والغالب على الظن أن هؤلاء العلماء لو فعلوا أو أمكن لهم أن يفعلوا هذا الذي أشرنا إليه ، ولو أنهم اتجهوا في حركتهم الدينية الإصلاحية الوعظية إلى التوعية الدينية الحققة ، وإلى إنارة العقول وشرح الدين بما يناسب العامة مع تلقينهم ما يجب عليهم من أمور العبادات التي أفردوها في ذلك العصر بالعناية وحدها دون سواها مما جاءت الإشارة إليه في التوعية المدعو إليها آنفا ، ولو أنهم أيضا انصرفوا بمجهوداتهم نحو التربية القائمة على الدين الذي هو العنصر الهام في حياة الفرد العملية وعلاقاته الاجتماعية وغيرها ، وهو ما ينتهي بصاحبه إلى الوقوف على ما لا يتعد أن يكون المقصد الشرعي فيما تبعنا الله به ، لما انتهت حالة العامة إزاء تلك الشجرة ونحوها إلى ما انتهت إليه ، مما حرك أحد العلماء منهم ، ولعله كان أكثر شجاعة منهم وأبعد تحررا من بقيتهم ، وهو الأستاذ أبو زيد عبد الرحمان ابن يوسف الشريف ، إلى أن يأمر طلبته بقلعها وإبعادها عن طريق سلامة الإيمان وصفاء العقيدة بعد أن أهملت السلطة والخاصة من الناس أمرها وترك في شأنها الحبل على الغارب كما يقولون (1) .

والذي يبدو أن هذه الحالة من التعلق بالأوهام أو ما لم يثبت فيه على الأقل ما يشير إلى معنى شرعي ، ليست خاصة بسجلماة ولا بما كان قريبا من مقام الشيخ أبي يعزى . فلقد حدثنا اليوسي أيضا في كتابه هذا عما لاحظته

(1) المحاضرات : ص 36 .

في بلاد المصامدة ، وخصوصا بلدة رجراجة ، وليس بعيدا عما ذكره في غيرها بما قال فيه : « ورأيت في بلاد المصامدة وخصوصا بلد رجراجة من هذا كثيرا بقي عندهم موروثا خلفا عن سلف عندما يدورون على صلحائهم زائرين ... وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بآثار الصالحين ووقع التغالي فيها . منها شالة في رباط سلا فلا يعرف لها إلا أنها مزاراة يزورها الناس ويتبركون بمن فيها ... » (1) ٥

الإقبال على مدعي الولاية :

وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الظاهرة في الحياة الدينية لدى معاصري اليوسي لم تقف عند التعلق بالجماد أو النبات أو غيرهما مما يتوهم أن له مساسا بالصلاح المعتمد فيه عندهم آنئذ على ما وردت آثاره وأخباره عن القدامى مما تحول إلى مطاوي التاريخ وتناقضته الأجيال ، بل تجاوزت ذلك إلى أن صارت ظاهرة خطيرة يتلبس بها الناس ، بدون فارق مستوى ، تتمثل في الإقبال على كل ما شاع اتسامه بالصلاح والولاية من كل طارئ أو كل من قيل عنه إنه صاحب الوقت أو غير ذلك حسبما يخطر ببال البعض منهم وهما وتخيلا . فيقبلون على هؤلاء بدون سابق تمحيص لهم ، ولا تدقيق في سلوكهم ، ولا اختبار في أعمالهم ، ولا سبر لما نقل عنهم ولا سابق تجربة وخلطة لهم من الناس . تلك الخلطة التي كما لا يخفى هي أدنى ما يمكن أن يكون لقبول التعديل والتجريح في من يشهد في أمر من الأمور الدنيوية فضلا عما يتعلق بالجانب الروحي الأخروي ، فيعتقدون فيهم الولاية والصلاح والتقوى مكثفين في ذلك بما يروج بين الناس من دعاوي وأقاويل لا سند لها من الصحة ولا دليل كما أسلفنا .

فلقد تورط في القريب مما مر بنا - مع كامل السذاجة والبساطة - أهالي سجلماصة من طلبة العلم ومن أمير البلاد نفسه آنئذ فضلا عن عامتهم الذين لا يستغرب منهم الوقوع في أكثر من الذي وقع فيه عليه القوم وصفوتهم .

(1) نفس المصدر : ص 37 .

ذلك أن أبا علي اليوسي نقل لنا شيئا من ذلك بلهجة المتحسر عما فرط منه ومن غيره في يوم من الأيام بسجلماسة . فذكر أنه كان في زمرة من تزاحم بالناكب على رجل غريب ظهر في المدينة الخالية من سجلماسة هذه ، وشاع أمره بين الناس فتوسموا فيه الصلاح بما راج له من شائعات بينهم . « فأصبح الناس يهرولون إليه أفواجا وخرجنا مع الناس . فقائل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقول : صاحب الوقت . فلما بلغنا المدينة وجدنا الناس قد اجتمعوا من كل ناحية على ذلك الرجل . حتى أن أمير البلد وهو محمد ابن الشريف خرج في موكله حتى رآه . فلما كثر الناس واشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل في قبة هنالك في المقابر . فأخرج كفه من طاق في القبة . فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون . وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة فقبلناه وانصرفنا ... » (1) .

وهكذا يتحدث اليوسي عن واقعة شارك فيها بنفسه واغتربها في زمرة من اغتر بوقائعها من أهل تلك الناحية . ولم يسلم من حباثلها أحد « ... حتى أن أمير البلد محمد بن الشريف خرج في موكله حتى رآه » . ثم بعد سرد اليوسي للقصة ينقل لنا أن الأخبار تناقلت ما كان من أمر هذا الرجل بعد أيام و« أنه ذهب إلى ناحية الغرب وأنه سقط في بئر هنالك ومات . فظهر أنه رجل مصاب وكان يشتغل باستخدام الجحان ونحو ذلك فهلك » (2) .

ولعل اليوسي أراد أن يشعرنا بأن هذا الذي حصل له ولغيره لم يكن أمرا غريبا ، ولا هو من الحوادث النادرة التي لا تتجدد ولا تتكرر . بل هي مما اشتد حدوثها عند المغاربة في غير ما مكان في ذلك العصر مما شجع المبطلين والعابثين على أن يستهتروا بالمقام الديني ويستخفوا بقول الناس فنقل لنا في كتابه هذا حادثتين أخريين شبيهتين بالتي قبلها .

والراجح الذي لا إخاله إلا صوابا أن الرجل حينما أورد ذكر هاتين الحادثتين هنا لم يغت عن ذهنه أيضا التلميح لبيان مدى المبالغة التي عليها

(1) المحاضرات : ص 38 .

(2) نفس المصدر السابق .

قومه في الحفاوة بالمتتبيين والفقراء ولو كانوا طارئين عليهم ، معتمدين في تسليمهم بصدق ما هم عليه من المظاهر الخيرة على ما يدور على الألسن في شأن صلاحهم وقهواهم . كما أنه لم يغف الإشارة إلى سلامة الطوية التي عليها القوم والتي تقابل خبث النفس وخساسة الضمير التي عليها أولئك المستغلون المروجون للضلالات والمتلبسون بالأباطيل .

أما إحدى الحادثتين فقد جرت مسرحيتها في جبل من جبال هسكورة اين نزل على الجهة رجل من ناحية الغرب اشتهر بالصلاح « وأقبل الناس عليه بالهدايا والضيافات . وكان من أهل البلد فتي يختلف إليه ويبيت عنده . فاستراب من أمره بعض الطلبة . فتلطف مساء ليلة حتى ولج الخباء فيكمن في زاوية منه . فلما عسعس الليل قام المرباط إلى الفتى واشتغل معه بالفاحشة . نسأل الله العافية » (1) .

وأما ثانيتهما فقد جرت أطوارها في سجلماسة مرة أخرى ، حيث جاءهم رجل « واشتهر باسم الصلاح ووقع الإقبال عليه . فكان يأتيه الرجل فيعده بأن يبلغه إلى مكة ويحج به طرفة عين . واستمر ذلك مدة . ثم قام نفر من الأشراف . واتفقوا على اختباره . فكمنوا قريبا منه . وتقدم إليه أحدهم وعنده نحو خمسين مثقالا . فقال له : يا سيدى ! إن هذه الصلاة تثقل على . فعسى أن ترفعها عني . وأفرغ تلك الدراهم بين يديه . وكأنه هش لذلك فبادره الآخرون قبل أن يستوفي كلامه . وأوجعوه ضربا وطردوه . ثم بعد مدة سافر بعضهم إلى ناحية الغرب . فمر بعين ماء هنالك . فإذا الرجل عندها يستقي قريبا له منها . وإذا هو يهودي من يهود معروفين هنالك . نسأل الله العافية » (2) .

فأمثال هذه الحوادث التي يظهر أنها لم تختص بناحية دون أخرى — كما يبدو — وأنها منتشرة وكثيرة (3) ، توحى بأن في الناس شوقا للصلحين ، ومحبة بالغة فيمن تظهر عليه مخايل التصوف والولاية . فهم يريدون أن يتقربوا

(1) المحاضرات : 38.

(2) نفس المصدر السابق .

(3) نفس المصدر السابق .

ويتبركوا بهذا الصنف من الناس مهما كانت الظروف والملابسات كما يظهر من منطوق أحوالهم . أفهل لا يكون هذا حصاد ما انتشر من فوضى وفساد ، حتى أصبحت النفوس عطشى لاهثة تتلهف لمن يسعفها ويأخذ بيدها ، ويتشلها من مخالب الأجنبي من ناحية . ومن الفراغ الباطني والقلق النفسي الناجمين عن اختلال الأمن والإضطرابات الداخلية وما يتبعها من عبث المفسدين والمبتدعة من ناحية أخرى .

ولعل مصداق هذا الذي ذهبنا إليه يأتي على لسان اليوسي وهو يعقب على تلك المنكرات الواردة فيما تقدم ذكره من الحوادث ، فيقول : فالحذر مطلوب . ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح ، والهوى على الحق ، والبدعة على السنة إلا من خصه الله وقليل ما هم » (1) .

الإسراف في التوسل :

وإذا كانت الفلسفة الماورائية والرياضات العقلية النظرية قد غلبت على بقاع أخرى من العالم الإسلامي حتى انتهت بأصحابها إلى مذاهب غريبة عن الروح الإسلامية الحققة كما هو الحال بالنسبة للحلاج وغيره ممن تضاربت الأقوال حولهم وحول سلامة منقلبيهم ، فإن روح الإستسلام والركون إلى ما لا يتعد كثيرا عن الخرافات ، وإن روح الإكتفاء في التسليم بالإلتجاء إلى الصالحين والأولياء والتتوق إلى درجة الولاية والمشيخة ، والعناية بالأذكار والأوراد والأحزاب المؤلفة للمريدين يتلونها غدوا وعشيا في أوقات مخصوصة جماعات وفردى ، وإن رواج الأمداح وتعاطي السماع والرقص والشطحات البدنية وما تنتهي إليه من صرعة وغيوبة وما شابها قد سادت الكثير من الأوساط المغربية التي تنتسب آنئذ إلى الطرقية وأرباب الزوايا والمتظاهرين بالتصوف إلا من سلمه الله منهم . وقليل ما هم .

ولقد تولدت عن هذه الروح بين الأفراد المجتمع عقلية تشابه في كثير من أحوالها دونما تمييز بين أصحابها وأربابها . وتبدو لدى الواقف على

(1) نفس المصدر السابق .

مداركها ونظراتها وأبعاد تصوراتها أنها في منتهى البساطة والسذاجة ، حتى لا تكاد يصدق المرء أنها عقلية أولئك النبغاء والمفكرين والعارفين الغائضين في بحري الشريعة والحقيقة ، والذين اشتهر أمرهم بسعة العلم وطول الباع في العقليات والنقليات من أمثال أبي علي اليوسي .

إنها عقلية من يكفي للاقتناع والقبول لما يقع تحت أنظاره أو سماعه ويصادف حصوله موافقة الرغوب مما يتوهم أنه من آثار التوسل بالصالحين والأولياء - الذين لهم التصرف في الحياة بل وحتى في الممات أيضا حسب زعمه - يكفي بمجرد حصوله أو ورود أخباره على لسان من يطمئن لصدقه ويرتاح لشخصه لمجرد ظهوره بمظهر أهل الخير والفضل ، أو بمجرد حصول الأمر المرغوب فيه عقب الزيارة والإطعام والتماس البركة ، عازيا وقوع ذلك المرغوب إلى الولي الذي وقع التوسل به ، أو الذي رثي في المنام ووقعت الزيارة لضريحه وأنجز تقديم القربان في حضرته ودأخل مزاراته ، والذي تليت أمام تابوته الأدعية وفاتحة الكتاب .

والجدير بالملاحظة أن لأمرنا قد يهون لو أن هذا الذي ذكرناه منحصر شأنه في العوام ، الذين هم عرضة قبل غيرهم للانسياق وراء ذلك وأكثر منه غالبا . ولكن هذا هو حال تلك الأوساط وحال الكثير من يحسب أنهم قد سما لإدراكهم وتنورت عقولهم وتزودت بالمعرفة أدمغتهم ، وبلغوا من العلوم الشرعية مكانا عليا .

واليوسي بدوره يساعدنا على الكشف على هذه الحالات التي تتطلب منا الكثير من العناء في محاولة الوصول إلى معطياتها أو فهم أسرارها . فينقل لنا في كتابه المحاضرات أمثلة عديدة على ظاهرة تمكن هذا الاعتقاد من الناس وسريانه في النفوس .

من ذلك مثلا ما حدث به الرئيس السيد محمد الحاج الدلائي « عن أسلافه ، أن ثلاثة من صلحاء المغرب قد جرب عندهم قضاء الحاجات : الشيخ عبد السلام ابن مشيش ، والشيخ أبو يعزى . والشيخ أبو سلهم . غير أنهم اختلفوا : فالأول في أمور الآخرة ، والثالث في أمور الدنيا ، وأبو يعزى في الكل .

نفعنا الله بهم وبأمثالهم » (1) . ثم هو يتخذ من هذه القصة مناسبة ليثبت لنا وقائع كثيرة من هذا القبيل . يأتي ضمنها بما يحاول أن يجعل منه ما يؤكد صحة هذا الاعتقاد . وهل هناك أقوى حجة من الوقائع الملموسة والحوادث المجربة ؟ ذلك ما حاول أن يحشره اليوسي في مقاله هذا عندما قال : « وقد شاهدت المولى ادريس بن ادريس رضى الله عنه أيام مقامي في مدينة فاس تريقا مجربا في كل ما أنزل به من حاجة » (2) . ثم هو يسرد علينا بعد ذلك وقائع قريبة من هذه التي تحدث عنها قبل ، والتي لا تخرج عما نحن بصددده الآن . هي أحداث وقع البعض منها لأهله وبمحضره هو ، ووقع البعض الآخر منها لغيره وقد نقلها له . والكل قد شوهدت ملامحه وبوادره في المنام ، واكتملت عناصره في اليقظة . فتحققت كل الآمال المعلقة وبلغت الأنفس ما اشتاقت إليه ، وعسر بلوغه والتحصيل عليه قبل ذلك . ذلك ما أوقفنا عليه الإمام اليوسي في القصص الثلاثة التالية وفي قصص أخرى غيرها .

أما القصة الأولى فهي التي حدثت بها في مراکش « الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي بكر الهشتوكي قال : رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم أبي دخلت مقام الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي . فإذا هو جالس وهو يقول : من كانت له إلى الله حاجة فليأتنا ... فجئت إليه فقلت : إنك قلت كذا وكذا . وها أنا جئت في هاتين الحاجتين . قال : فقضى الله الحاجتين معا » (3) .

وأما الثانية فهي التي وقعت لزوجة اليوسي نفسه عندما اشتد عطشها إلى الإنجاب وطال عليها الأمد حتى قاربها اليأس منه ، والتي أوردتها في

(1) المحاضرات : ص 61 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) نفس المصدر السابق .

الكتاب أيضا بقوله : « وكانت أهلى أيام كنا بالزاوية البكرية (1) قد تراخت عنها الولادة . فدخلها من ذلك غم عظيم . فأصبحت ذات يوم فأخبرت أنها رأت أنها ذهبت إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي . قالت : فوجدته جالسا وأنا في غاية العطش . فإذا حوله عين يرشح منها ماء قليل لا يغني . قالت : فقلت : يا سيدي ما هذا ؟ جئت إليك عطشى رجاء أن أشرب ، فأرجع كما جئت ؟ قال : لا . إن الماء ثم . انبشي يخرج الماء . فنيشت بيدي فخرج الماء وشربت حتى رويت . وطلبت مني أن نزوره وأن نطعم عنده طعاما . ففعلنا . فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به » (2) .

وأما الثالثة فهي التي كانت في حق ابنته المقعدة أو شبه المقعدة فلقد تحدث عن ذلك بقوله : « ولما نزلنا بالزاوية المرة الثانية . ففقلنا من مدينة مراکش . وكانت لنا بنية عجزت عن النهوض ، وهي في سن من يمشي . فظنناها مقعدة . فذهبت بها الخدم إليه (أي إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي) وزوروها . فقامت بالفور على رجلها تمشي » (3) .

نعم قد يكون ذلك الذي تحدث عنه بين المنام واليقظة هو من الرؤى الصادقة التي جاء في حقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب . ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة » (4) . غير أن الذي نتوقف فيه ولا نكاد نفهمه هو علاقة هذه الأشياء بالأولياء وتصرفهم فيها خصوصا الأموات منهم (5) .

ثم إن اليوسي بعد كل ما أورده في هذا المقام من القصص التي ذكرنا والتي لم نذكر ، يعلق على ما فعل بما قد يفيد أن هذه الأشياء عادية وطبيعية

(1) نفس المصدر السابق .

(2) نفس المصدر السابق : ص 62 .

(3) نفس المصدر السابق .

(4) رياض الصالحين : ص 349 .

(5) المحاضرات : ص 62 .

وأنها لا تثير عنده شيئا يحرك العقل ، وبصرفه إلى البحث فيما يقع عليه الإنسان من أهل المعرفة والفكر أو يعترضه في حياته بحثا علميا معلا تليلا نظريا أو غير نظري ما هو عادة اليوسي في المسائل العلمية الأخرى ؛ بل إنه يقول في تعقيبه عليها : « ... وأمثال هذه الأمور لو تتبعنا منها ما رأينا وما سمعنا لملأنا بها الدواوين » (1) .

حرمة الزاوية :

وما كان شائعا في هذا العصر تقديس الأضرحة والزاويا وتزييلها منزلة الأماكن المقدسة التي لها حرمة وفي زيارتها أجر كبير وبركة ثابتة وتخفيف للشدائد والذنوب ، وفي الإحتماء بها وقاية وحفظ وأمان .

فلقد اهتم الناس كثيرا بمثل هذه الأماكن . واحتلت المزارات من النفوس مكان الإجلال والتعظيم . فكثرت بذلك الزيارات لأضرحة الأولياء والصالحين ، والمبيت عندهم ، والتردد عليهم في غير ما مرة ولا حالة . يقومون بها بالخصوص عندما تشتد الأزمت وتضيق الدنيا بما رحبت في وجوه أصحابها (2) .

ولعل هذا متفرع عن الظروف التي أحاطت بالبلاد في ذلك العصر . ولعل فيه أيضا أثرا من آثار ما وقر في نفوس الناس من تعظيم المنتسبين لتلك الأماكن ، وتقديس ما كان منها قد شاهد نشاطا دينيا كبيرا . كما أنه قد يكون امتدادا لما عرف به المريدون والمنتسبون إلى الزوايا واشتهر أمره من ارتباط هؤلاء بمشائخهم والساعة إلى خدمتهم والإعتزاز بالانتساب إليهم والتربية عليهم التماس البركة منهم . حتى أن بعض الطلبة والمريدين يزهد في كل ما حوله من الدنيا مقبلا على شيخه وخدمته خدمة لا تحفظ فيها ، ويبقى على هذه الحالة هكذا السنين العديدة التي قد تبلغ العشرين عدا (3) . يخدم شيخه ويلازمه ملازمة الظل للجوهر ظعنا وسفرا . لا يبتعد

(1) نفس المصدر السابق .

(2) الرحلة لليوسي : ص 56 .

(3) طبقات الحضيكي : ص 123 ؛ رحلة الجزولي : ص 243 .

عنه إلا في الأوقات القليلة والظروورية منها (1) . ومن هنا لم يبق مستبعدا أن يكون استبداد هذه الخدمة وهذه المنزلة للشيخ بالمريدن قد تجاوزهم إلى غيرهم وتسرب منهم إلى من عداهم من العامة وغير العامة فتلبسوا بهذه المحبة وهذا التقدير والتوقير والتقديس لأشيائهم وللأولياء وأضرحتهم وزواياهم حتى تمكن منهم كل ذلك تمكنا جعل هؤلاء يرون أنه من المروق والرعونة ، وما هو مستفزع ولا يمكن اغتفاره والسماح به مهما كانت الملابسات ، أن يسمح الإنسان لنفسه استباحة حرمة تلك الأمانة أو التعدي عليها . فتولدت عن هذا حرمة ليست بعدها حرمة ، مما لا يعرف له نظير في غيرها من الأماكن والبقاع . الأمر الذي جعل الناس يبالغون في الإطمئنان إليها فيضعون فيها ودائعهم الغالية والثمينة التي لا يجدهن لها مأمنا يقيها غائلة الإعتداء والسطو والإنتهاك لوكائنها وعفاصها سوى تلك الأضرحة والأماكن (2) . وهكذا تمكنت مهابة الزوايا والمزارات من النفوس . فملأت القلوب . فلا يتجاسر إنسان على اقتحامها وامتهان حرمتها بل ومد اليد إلى المستجير بها مهما كان شأن ذلك الإنسان ولو كان من كان من محترفي اللصوصية ومن المتسكعين والمنحرفين ، ومهما كانت العوامل الدافعة على أن يفعل ويقتحم (3) .

المهدوية :

ومن الأمور التي نالت بعض الحظ في صفوف بعض المتصوفين الأخذ بأطراف المهدوية ، وتبني هذا المذهب والإنتساب إليه والدفاع عليه (4) . غير أن هذه الأفكار ، وإن تسربت في صفوف هذا البعض من أرباب الزوايا والطرق ، إلا أنها لم تجد رواجا كبيرا ولا اهتماما بها . وذلك لما

(1) نفس المصدرين السابقين .

(2) إيليغ قديما وحديثا : ص 37 .

(3) المسألة المغربية : ص 26 . 27 .

(4) المحاضرات : ص 92 وما بعدها .

لاقتة من فكبر بعض العلماء عليها فلم تعمّر طويلا حتى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يغرسوها في عقول العامة ولم يتمكنوا من تربية الناس عليها . فكانت بمثابة سحابة صيف عن قليل تقشع . وبقيت في بطون الكتب أو على الألسن ترددها بدون عمل إيجابي حيالها ولا دعوة منظمة تساندها .

ولعل هذا هو الذي جعل اليوسي يتعرض إليها بإشارة عابرة في كتابه المحاضرات عند حديثه على ظهور ابن أبي محلي وذهابه إلى بلاد القبلة فيقول : « ودعا لنفسه . وادعى أنه المهدي المنتظر . وأنه بصدد الجهاد . فاستخف قلوب العوام وتبعوه » (1) . ثم إن هذا الموضوع يستهوي الأمام اليوسي ليواصل الحديث فيه . فيتعرض عقب هذا الكلام عن ابن أبي محلي إلى أصل هذه الدعوة وأنها في الأصل دعوة فاطمية ، وأنها ظهرت عند قيام أبي عبد الله محمد بن تومرت وادعائه أنه المهدي المنتظر . ثم يعقب على هذه الدعوة بما يحاول اليوسي أن يبطلها به ، منبها إلى أن المهدي المنتظر « متأخر . حتى يكون في آخر الأزمان لوقت خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام . وإنه ليس هو ابن تومرت ولا مثاله من كل من يدعي ذلك إلى زماننا » (2) . وبذلك الذي أثبتته من أمرها يكون مؤرخا لها ومبطلا لأصولها ومفندا لدعاتها ولما يحاول أصحابها إيهام الناس به منها ، مما يدفعهم إليها ويغريهم بها .

هذا ومن جملة ما جاء في كتاب المحاضرات حديث أثبتته أبو علي اليوسي جرى بين ابن أبي محلي وابن أبي بكر الدلائي دار حول دعوة الأول للثاني إلى القيام بما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من أهم المهمات وأؤكدتها على المسلم الذي يأنس من نفسه الإستطاعة ، ويزداد تأكدها على من يكون من المتصدرين لها بموجب الانتساب إلى الحركات الدينية الصوفية . ومن خلال الحوار الذي جاء في

(1) المحاضرات : ص 91 وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق : ص 92 .

الحديث نحاول أن نستتج ما يمكن استنتاجه مما يرتبط بما نحن فيه الآن مما يتعلق بمظاهر الجو الديني الصوفي العام .

يقول اليوسي وهو يتحدث عن أول أمر أحمد بن أبي محلي صاحب ابن المبارك التستائوي فيقول : « إنه في أول أمره كان معاشرا لابن أبي بكر الدلائي المتقدم الذكر (أي محمد بن أبي بكر) . وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت . فقال لابن أبي بكر ذات ليلة : هل لك في أن نخرج غدا إلى الناس فنأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ؟ فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر . فلما أصبحا خرجا . فأما ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر . فغسل ثيابه وأزال شعته بالخلق . وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها . وأما ابن أبي محلي فتقدم لما هم به من الحسبة . فوقع في شر وخصام أداه إلى فوات الصلاة عن الوقت . ولم يحصل على طائل . فلما اجتماعا بالليل قال له ابن أبي بكر : أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء . ومن أتى منكرا فאלله حسبه أو نحو هذا . وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه » (1) .

فهذا الحوار بين الرجلين قد يساعدنا على أن نتصور أن المتصوفة أو البعض منهم على الأقل كانوا لا يغشون المجالس العامة للقيام بالوعظ والإرشاد . وكانوا يتجنبون التردد على الناس في اتصال بهم داخل حضائهم ، أين يلتقي بعضهم ببعض في معاملاتهم . فيكونون أشكالا وألوانا ، ومنهم المنجذب ومنهم النافر ، ومنهم المؤمن ومنهم الجاحد . فهم إذن يقتصرون في قيامهم بواجبهم المقروض عليهم إزاء الناس - بموجب انتصابهم وتصدرهم لتعليمهم وتوعيتهم وتهذيبهم مع ما لهم في الأوساط العامة من سماع الكلمة ونفاذ الرأي - على ما يكون منهم في زواياهم ، مكتفين بأتباعهم ومن يترددون عليهم . فيجتمعون بهم في حلقات الذكر والورد والعبادة ، منصرفين بذلك عن المجامع العامة بالتوجيه والتوعية والإرشاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعموم من كان يحيا داخل أو خارج فلكهم ،

(1) نفس المصدر السابق .

بعيدا عن تلك الحلقات والمجامع واللقاءات ، متذرعين لذلك بفساد الوقت وتفاقم الشر . كما يساعدنا ذلك الحوار أيضا على أن نلاحظ أن المتصوفة ورجال الزوايا والطرق آنئذ كانوا مقتصرين في حركتهم الدينية الإصلاحية على التربية الفردية القائمة على إصلاح الأفراد الذين يفدون عليهم ويترددون على أماكنهم وزواياهم ، لا على التوعية العامة القائمة على إصلاح الجماعات وغزوهم في مراكز أعمالهم أو المحلات التي يؤمونها طلبا للراحة والتسلية أين يوجد من بينهم الكثيرون من المنهمكين في مشاغل الحياة ، والمنصرفين عن الطاعة والعبادة كليا أو جزئيا سعيا وراء الأغراض الدنيوية المختلفة . كما أنه بوصفه هذا ، مكنتا اليوسي من التعرف إلى لون من ألوان الحياة الشخصية اليومية التي يتلبس بها أهل الطريق أو بعضهم من قومه وعصره . فقد أفادنا أن منهم من لا يستنكف من خدمة نفسه بنفسه ولو أوتي من الجاه والإمكانات الواسعة ما كان لأمثال محمد بن أبي بكر الدلائلي الذي هو من أبرز أفراد الأسرة الدلائية المتقدمة صاحبة السلطة والدولة والصدارة والعلم . ولعل هذا الذي ذكره صاحب المحاضرات هو سنة متبعة لدى رجال الطرق والزوايا أصحاب العزم والإستقامة .

ومن الجدير بالذكر أن اليوسي قد لفت أنظارنا إلى أمرين اثنين كانا قد طبعا الحركة الصوفية في البلاد ، وهو ينقل في كتابه هذا القصة التالية عن أبي محلى وهو يتأهب لقتال السعديين والثورة عليهم ، واقتطاع القطر السوسي من مملكتهم . فلقد تحدث اليوسي عن ذلك بقوله : « إنه (أي ابن أبي محلى) كان ذات يوم عند أستاذه ابن المبارك فورد عليه وارد حال . فتحرك وجعل يقول : أنا سلطان . أنا سلطان . فقال له الأستاذ : يا أحمد . هب أنك تكون سلطانا . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . وفي يوم آخر وقع للفقراء سماع . فتحرك وجعل يقول : أنا سلطان . أنا سلطان . فتحرك فقير آخر في ناحيته وجعل يقول : ثلاث سنين غير ربع . ثلاث سنين غير ربع . وهذه هي مدة ملكه (أي ملك ابن أبي محلى) ، (1) . وهذان الأمران هما :

(1) نفس المصدر السابق : ص 91 .

أولا : التنبؤ بالغيب . مما يعبر عنه عند الصوفية بالكشف الذي يحصل للمشائخ والعارفين الذين بلغوا درجة من الصلاح والإستقامة تمكّنهم من الإطلاع على الغيب والأخبار بما تأتي الوقائع والأيام شاهدة على صدق صاحبه وموافقة أقواله للواقع ومطابقته لما يحصل في عالم المشاهدات في المستقبل .

ثانيا : اشتغال حلقات الذكر على السماع والإنشاد وما ينجر عن ذلك من تواجد وخمرة هي مما يسمى بالشطحات الصوفية التي يتلبس بها من يحضر تلك الحلقات من حالة شبيهة بحالة الغيبوبة والخروج بصاحبها من عالم الشعور منتقلة به ظاهريا إلى عالم اللاشعور أو الشبيه به .

أما فكرة الكشف والأخبار عن المغييات فهي من الأشياء التي يبدو من كلام اليوسي في كتابه أنه يسلم بها تسليما لا يقبل النزاع ولا الجدل ، وأن له فيها رأيا شرحه شرحا عجيبا . فلقد تبسط في موضوع الكشف طويلا وملاه حديثا أورد فيه - إلى جانب ما نقله من قصص وحكايات (1) تتطابق في محاورها وتشابه في مضامينها - بحثا شيقا تناول فيه الموضوع تحليلا وشرحا وبيانا ، متعرضا فيه إلى أقسام الغيب ومحلذرا أقوامه والواقفين عليه من الوقوع في حبال الكذابين أو الوقوع في الغرور بأن لهم قدما راسخا بموجب ما أنتهوا إليه في وهمهم من درجات وأشواط في طريق القوم . فيكونون بموجب ذلك من الكذابين أنفسهم (2) .

وأما السماع وما يتبعه من الغيبوبة والوجد فقد ذكره أبو علي اليوسي متفرقا في كتابه المحاضرات (3) ، مما يدل على أنه أمر منتشر في صفوف الصوفية لديهم . الأمر الذي جعله يشير على من عرفوا به ونقل عنهم بتجنبه وتجنب ما يوقعهم في الغيبة كما ورد في الكتاب ؛ إذ قد تكون حالة الغيبة التي يقع فيها هي من دسائس الشيطان . ذلك لأن تلك الغيبة إذا ما حصلت

(1) المحاضرات : ص 64 وما بعدها . وكذلك : ص 98 .

(2) المحاضرات : ص 98 وما بعدها .

(3) المحاضرات : ص 90 ، 110 مثلا .

انجر عنها غياب العقل فيتصرف الشيطان كما يتصرف العدو عند غياب الخافر والحارس » إلا ذلك الذي يتواجد بالسمع لا عن اختيار . فأمره غير هذا (1) .

ومعلوم أيضا أن كثيرا من المشائخ لا يرون بأسا في السماع والإنشاد مثل ما نقل عن الشيخ عبد القادر الفاسي أنه كان يحب السماع والرقص مما سنذكره عند التعرض بالحديث عن الزاوية الفاسية وما جمعت بين جذرائها من نشاط علمي وصوفي .

اطعام الطعام :

ومن المفيد جدا أن لا تغفل قضية أثارها اليوسي في كتابه . لها كامل الصلة بحركة الطرق والزوايا في البلاد المغربية . حتى أنها في نظر العوام من الأسس التي يبنى عليها كيان الزاوية ولا بد . تلك القضية هي ما نسجه وهم العوام من الرابطة التي ذهبوا إلى إثباتها في نظرهم بين قيام كيان الزوايا والطرق وإطعام الطعام لمن يقبل عليها أو يجاور فيها . وهي الظاهرة التي ما زال القوم يتوارثونها إلى اليوم في الزوايا وخارج الزوايا وفي المناسبات وغيرها . ولعلها من العوامل التي نشطت ميول المغاربة إلى إقامة الحفلات والدعوة إليها بأدنى مناسبة . فيقيمون الأفراح وقيمون لها الموائد مما يضيف عليهم طابع الكرم وحسن الضيافة والجود العربي الأصيل .

هذه الظاهرة تحدث عنها اليوسي في كتابه المحاضرات . وتبسط فيها تبسطا أخذ بأطرافها ، وتناولها من كافة جوانبها . كما نبه إلى ما أضحى عليه العوام من اعتقاد وجوب إقامة الزوايا بإطعام الطعام لكل وارد يرد عليها ، خصوصا إذا كانت في البوادي البعيدة عن العمران . فحاول اليوسي بما حرره في الموضوع أن يصحح هذه النظرة ويعود بها إلى أصولها

(1) نفس المصدر السابق .

التاريخية والأخلاقية . وبذلك أفادنا فائدة تاريخية هي بالنسبة للبلاد المغربية آنئذ من الظواهر الاجتماعية والروحية في آن واحد ، وذلك حينما قال : « إن الزاوية المشتهر اسمها اليوم عند أهل الطريق من إطعام الطعام للوافدين والمساكين والملازمين على الدوام ، حتى صارت عند العوام كأنها من الفروض أو الشروط ، لا يعلم لها من حيث خصوصها أصل ، ولا يجري لها ذكر في الكتاب ولا في السنة . وإنما مرجعها إلى القرى وإكرام الضيف » (1) .

وبعد أن يأتي أبو علي اليوسي ببسطة ضافية في الموضوع تشتمل ضمن ما تشتمل عليه على لمحة تاريخية حول إطعام الطعام في الزوايا المغربية كما ذكرنا - سواء كان هذا الإطعام من مال شيخ الزاوية والطريقة أو مما يرد عليه من الفتوح التي يتقدم بها المنتسبون إلى الزاوية وأهلها - يثبت في كتابه العادة الجارية في عصره ومسايرتها لنظرة الناس إلى صلة الزوايا بإطعام الطعام فيقول : « وقد شاع اليوم إقامة الصوفية الزوايا بإطعام الطعام ولا سيما في بلادنا المغربية ، وخصوصا في البوادي وما يكون من فتوح يأتي إلى بلد الشيخ ، وهو ينفق منه على المجاورين والواردين . وهذا قد كان فيهم من قديم » (2) .

والذي يبدو أن ظاهرة إطعام الطعام في الزوايا كانت في بادئ أمرها بدافع حسن الضيافة . ثم توسع فيها حتى كانت من المرغبات التي يقع بها تشجيع المريدين والوافدين للحاق بالزوايا والإقبال عليها . ذلك أن الشيوخ كانوا يقومون بذلك حسبما يظهر لإغناء المريد عن السعي وراء لقمة العيش وهو في حضرتهم . فيكفون بذلك المقبلين عليهم شؤونهم وشؤون دوابهم . خصوصا إذا كانوا في البوادي والأماكن النائية عن العمران كما ذكرنا وكما هو الحال الأغلب . وهكذا يتولد عن هذه المعاملة شعور عند العوام بأن هذا الإطعام أمر مفروض وواجب تنبني إقامة الزاوية عليه ، فلا وجود لها بدونه .

(1) المحاضرات : ص 115 .

(2) المحاضرات : ص 117 .

والغالب على الظن أن هذه السنة هي سنة جل الزوايا المغربية بدون تخصيص ، إن لم تكن سنة جميعها على الإطلاق في كافة أرجاء المغرب .
والغالب على الظن أيضا أنها - وإن اتحدت في المبدأ - لم تكن على نسق واحد . فهي تتفاوت وتختلف حسب الظروف والإمكانات . حتى أن الذي نقل عن الزاوية الدلائية أيام الشيخ أبي بكر الدلائي وابنه محمد من بعده يدعو للاستغراب والدهشة إلى حد أن العقل قد يجد الكثير من العناء والجهد لتصور ما يجري من ذلك في الزاوية الدلائية المذكورة فضلا عن قبوله والتصديق به (1) .

ولعل ما يقام الآن في المغرب الأقصى مما يسميه القوم هناك بالموسم ، فيخصصون له موعدا معيناً ، وغالبا ما يكون صيفا أو ربيعا ، ويفد الناس على الزاوية التي كان موعد موسمها ، وقيمون الاحتفالات ويذبحون الذبائح ، ويقضون هناك أياما وليالي عديدة تختلف باختلاف الجهات ، لعل هذا الذي ذكرنا هو أثر موروث عما كان يقيمه الناس قديما من اللقاءات في الأضرحة ، والزيارات للزوايا بمناسبة الأعياد الدينية أو غيرها . فيرد المريدون والمتسببون من كل حذب وصوب لإكراما واحتفالا . ثم في المختام تتلى فاتحة الكتاب وينقلب الزائر إلى أهله راضيا مرضيا ، وكله إيمان وأمل في أن تناله بركة ذلك الصالح وأن ينتفع بزيارته تلك .

(1) الزاوية الدلائية : ص 46 .

أبرز الزوايا المغربية ومنهجها في طرق القوم

إذا كنا قد حرصنا فيما كتبنا حول التصوف بالمغرب - إلى الآن - على الوقوف أمام المظاهر العامة التي لا ترتبط بطائفة معينة ، ولا بأقوام معينين ، أو بتشكيلة من الفرق الدينية بعينها ، وإنما هي ظواهر عامة استقيناها من كتاب المحاضرات لشخصية علمية صوفية عاشت ذلك العصر ، وحضرت كثيرا من الحوادث التي واكبته ، ووقفت بنفسها على كثير من الأحداث التي صاحبته ، وسمعت كثيرا من الأقوال ، ولاحظت كثيرا من الملاحظات ، فنقلت كل ذلك أو الكثير منه بأمانة العالم المسلم ، ونزاهة الصوفي المتدين ، دونما افتيات ولا تعيز ، ودونما تأثير بأي عامل آخر من العوامل التي تضغط على النفوس عادة فتدخل الشك في أخبارها وتعليقاتها ؛ إذ لا داعي لصاحبها في ركوب مراكب الكذب والزيف في ظاهر الأمر وواقعه كما يستفاد مما كتب عن حياة الرجل ، إذا كنا حرصنا فيما كتبنا على ذلك فأننا نريد أن نتعرض هنا إلى مجموعات من الزوايا بعينها أجمع القوم على سلامة سلوكها ونزاهة شيوخها ونجاعة خدماتها ، مبتعدة كل البعد عن الخرافات والأوهام والبدع في كثير من حالاتها ، وغير مقتربة مما يدخل الرب فيما قدمته لهذا المجتمع في المحنة التي ألمت به والتي هي محل عنايتنا بهذه الدراسة فكانت له خير سند ونصير . وبهذا يتبين المطالع أن ما كتبناه حول ثصوف المجتمع المغربي آنشد ، وما بدا فيه من قبول للأوهام والخرافات ، ولما قد لا يستسيغه العقل ولا الذوق

ولا المنطق ولا الدين ، هو المنهج العام والطابع الغالب على المجموع وليس هو مسلك الجميع ومنهج المغاربة أجمعين فرادات وجماعات ، كما أنه ليس ملتزما من طائفة معينة مخصوصة ولا هو من صنع أفراد بأعيانهم . وإنما هو حصيلة الحالة العامة التي باتت عليها البلاد ، والتي تولدت عنها بموجب ما يلقاه العابثون من مشجعات الغفلة داخل مجتمع متفكك ، فاقد للقيادة والتوجيه والارشاد والتوعية والحراسة والذب على الحياض ، وأنه لا يدين لسلطة معينة وقد أنهكته الفتن والحروب .

غير أن هذا الذي استبد بالجو العام ، والذي كان متشرا في الأوساط العامة لم يستطع أن يستبد بكامل البلاد ، ولا أن يفسد عليها الأمل في النجاة من المهالك وفي العودة الى شاطئ السلامة . وذلك بسبب قيام رجال أخلصوا لله وللوطن فجمعوا القوى لتنطلق الى البناء - أو على الأقل - لتحافظ بوقوفها في وجه المعتدين ، وبمقاومتها للباغين المستهترين ، في جهاد ديني من جهة ، وفي عزم معقود على خدمة الشريعة والحقيقة حتى لا ينقطع النبع الفياض الذي تدفق على البلاد المغربية مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، فنشرت الدين وغذت عقيدة المؤمنين من جهة أخرى . وما هؤلاء الذين نغنيهم بالإشارة سوى شيوخ زوايا معينة قد أطبق الناس على تمجيدهم والإعتراف بقضلمهم ، حتى قالوا عنهم : « ومن المقرر عند الشيوخ أن العلم إنما أحياء بالمغرب ثلاثة من الشيوخ : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسيدي محمد بن ناصر في درعة وسيدي عبد القادر الفاسي » (1) .

وعلى هذا الأساس فإننا سنفرد القول بالحديث على تلك الزوايا التي هي في الحقيقة أمهات زوايا المغرب في القرن الحادي عشر الهجري وأشهرها استقامة واقترابا من السنة ، خدمت الدين والتصوف ، وخدمت مع ذلك المعرفة بما عرفت به من نشر للعلم وإحيائه . تلك الزوايا هي : الزاوية الدلائية ، والزاوية الفاسية ، والزاوية الناصرية ، ورابعة الثلاثة وهي الزاوية العياشية .

(1) الزاوية الدلائية : ص 56 .

الزاوية الدلائية :

في الثلث الأخير من القرن العاشر ، وبإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي (1) أسس أبو بكر بن محمد بن سعيد المجاطي الدلائي (2) الزاوية الدلائية البكرية (3) ليطعم الطعام فيها على غرار شيخه في زاويته بمراكش . فأقامها حوالي عام (1566/974) (4) . وانقطع فيها مدة تتجاوز ثلث قرن لإرشاد المريدين وإلقاء دروس الوعظ وإطعام الفقراء والمساكين والطلبة والزائرين . وفي هذه المدة اجتهد كثيرا في إقامة العمران حولها . فبنى الدور والمرافق الضرورية حتى صارت من المدن التي يقصدها الداني والقاصي . كما حبس الرياع على الطلبة والمساكين حتى تحولت إلى ملتقى للطلاب والعلماء فيقيمون طويلا هناك ، وتعقد المجالس العلمية بها . ولما اختل الأمن بعد وفاة المنصور الذهبي وكثر النهب والسلب كان أبو بكر الدلائي يكف أيدي الجناة عن الجرائم بما له من المكانة والتقدير والاحترام عند القبائل البربرية .

ولعل ما اتصف به من أخلاق عالية وسلوك فاضل وديانة ثابتة وتسامح بعيد ووعظ مؤثر وكرم بالغ ، هو من العوامل التي حبيته الى الناس بجميع أصنافهم . فأصبح مقصدا للقاصدين . وأصبحت الزاوية والمدينة التي أقامها حولها موثلا للوافدين . فيستفيدون من علمه وأخلاقه ووعظه وتربيته . كما يلقون عنده الإكرام البالغ والحفاوة الكبيرة ، والإطعام الذي لا حد له . حتى قيل عنه في هذا الباب : انه « كان كثير الإطعام بالأنواع المختلفة من الطعام أمرا خارجا عن الوصف ، مبائنا للعادة والألف ... كان يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحفة من

(1) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 30 .

(2) انظر ترجمته في المصدر السابق : ص 43 .

(3) وتسمى أيضا الزاوية البكرية نسبة إلى مؤسسها .

(4) الزاوية الدلائية : ص 30 .

القمح وعشرين تليسا (1) . ثم كان يطعم كل الناس . تارة بما اشتهاه في نفسه ، وتارة بما يناسبه من أبناء جنسه . فليس الحضري عنده كالبديوي ولا الضعيف كالقوي ، (2) .

وكان المولد النبوي الشريف عيدا دينيا كبيرا ، ومناسبة دينية مترصدة من الناس تقام فيها الإحتفالات والأذكار والأمداح النبوية بالزاوية ، يقصدها فيها العلماء والأدباء والأغنياء والفقراء فتلقى القصائد وتنشد المديح وتوزع الجوائز . ويكون الحظ الأوفر منها لمن أجاد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم من شعراء ذلك العصر الذين يتوجهون إليها غالبا ، وفي هذه المناسبة بالذات ، من أجل ذلك (3) .

أما الطريقة التي اعتمدها مشايخ الزاوية الدلائية ، والتي استمدوا أذكارهم وأورادهم منها فهي الطريقة الجزولية (4) الزروقية (5) الشاذلية (6) المتصلة بالإمام أبي القاسم الجنيدي (7) التي تعتبر من أسلم الطرق وأقربها إلى السنة .

ولعل هذه هي الطريقة المعتمدة في المغرب الأقصى ، كما وردت الإشارة إليه في كتاب المرشد المعين لعبد الواحد ابن عاشر (8) المعتمد غالبا

-
- (1) الصفحة : مكيال يقدر بثلاثة قناطير ؛ والتليس : كيس مزدوج يصنع من صوف أو شعر أو وبر لتتنقل فيه الحبوب على ظهور الدواب . الزاوية الدلائية : ص 46 .
 - (2) الزاوية الدلائية : ص 46 .
 - (3) نفس المصدر السابق : ص 47 .
 - (4) نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمان الجزولي ، شيخ الطائفة الجزولية . انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 48 .
 - (5) نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد زروق . انظر ترجمته في المصدر السابق : ص 50 .
 - (6) نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي . انظر ترجمته في المصدر السابق : ص 49 . وكذلك في الترجمة الكبرى : ص 445 .
 - (7) الشيخ أبو القاسم الجنيدي المتوفى سنة 277 هـ . انظر الزاوية الدلائية : ص 48 .
 - (8) هو أبو مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الفاسي المتوفى سنة 1040 هـ . النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 248 .

في جميع المعاهد المغربية بله المعاهد الدينية بشمال إفريقيا تقريبا بما في ذلك الجامع الأعظم جامع الزيتونة الذي كان يدرس فيه هذا الكتاب في السنة الأولى من المرحلة الأولى من التعليم الثانوي بها .

يقول ابن عاشر مشيرا الى التزام هذه الطريقة بالمغرب ، وإلى اعتبارها المنهج الذي يسار عليه في التربية الصوفية ، كما وقع التزام المذهب المالكي في الفقه ، والمذهب الأشعري في العقائد هناك أيضا :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك (1)

والمعروف عن الدلائين أنهم في اعتمادهم على الطريقة الشاذلية المعروفين بها ، لم يكونوا ملتزمين لما جاء فيها حذوك النعل بالنعل . ومن أجل ذلك فإن انتسابهم هذا إلى تلك الطريقة ما هو في الواقع إلا من حيث المبدأ والاختيار . خصوصا وأنها تلتقي مع ما عرف به أجدادهم قديما وقبل تأسيس أبي بكر لزوايتهم هذه من الميل إلى الإكثار من الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم أن الطريقة الشاذلية لها هذه الخاصية . وهي خاصية الإكثار من الصلاة على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تكون هذه الطريقة مجانية لميول الدلائين ، ومطابقة لما كان متعلقا به أجدادهم ؛ إذ إن والد أبي بكر - وهو سعيد بن أحمد الدلائي - كان معروفا بالمواظبة « على قراءة دلائل الخيرات ، لا يفارقه في أكثر الأوقات . وكان يأمر أولاده بها (أي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) ويرغبهم فيها .. » (2) أما فيما يخص الأذكار والأوراد فإنهم لم يعرفوا في ذلك بشيء خاص بهم . كما أنهم لم يرتبطوا ارتباط التزام وتقيد بالصيغ المعينة على خلاف ما هو عليه معاصروهم من مشائخ الصوفية ومن جاء بعدهم .

(1) المرشد المعين لابن عاشر .

(2) الزاوية الدلائية : ص 52 .

غير أنهم من ناحية أخرى كانوا يأخذون على مريديهم وكل من يريد الإنضمام إلى مجالسهم والانتساب إليهم وجوب المسارعة بالتوبة الصادقة المشروطة بشروطها المعروفة (1) مع الالتزام بها والمواضبة عليها . كما يوصونهم - زيادة على ذلك - بالإكثار من الاستغفار في جميع حالاتهم .

والخلاصة أن للدلايين صيغة خاصة بهم وبأتباعهم من المريدين يصلون بها على النبي صلى الله عليه وسلم (2) ، كما كانت للشيخ أبي بكر الدلائي وظيفة لنفسه ولمريديه (3) يتعبدون بها ، ويذكرون الله بصيغتها .. كما أن لابنه - وهو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي - أورادا وأذكارا « كان يوظفها على المريدين بالليل والنهار » (4) .

الزاوية الناصرية :

تأسست هذه الزاوية في أواخر القرن العاشر الهجري لغرض صوفي هو إرشاد الناس وهدايتهم وتهذيب أخلاقهم على مبادئ الطريقة الشاذلية . ثم ما لبثت حتى احتضنت النشاط العلمي بجانب النشاط الصوفي .

فلقد أسسها بتمغروت ، على ضفاف وادي درعة وراء الأطلس الكبير ، وعلى بعد يقارب الاثنين والعشرين كيلومتر في الجنوب الشرقي من زاكورة ، أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري (5) ، حوالي سنة (983/ 75-1976) (6) . وتسلم المشيخة من بعده ومن بعد وفاة الشيخ الصوفي

(1) « ... من الإقلاع عن الذنوب ، والغزم على عدم ارتكابها مرة أخرى ، وتلافي ما يمكن تلافيه من الحقوق المترتبة من قبل ، والاكثار من الاستغفار » . الزاوية الدلائية : ص 52 .

(2) وهي : « اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما » . الزاوية الدلائية : ص 53 .

(3) الزاوية الدلائية : ص 52 .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) أنظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 57 .

(6) نفس المصدر السابق .

عبد الله بن حسين الرقي (1) حفيد الشيخ عمر الذي كان يلقي أورا
الشاذلية فيها وهو الصوفي الصالح أحمد بن إبراهيم الأنصاري (2) .
ثم حل بها عام (1631-30/1040) الشيخ أبو عبد الله محمد (بفتح الميم)
ابن ناصر الدرعي شيخ الإمام أبي علي اليوسي في طريق القوم .

أقام الشيخ ابن ناصر بها مدة . فأخذ الطريقة عن الشيخ الرقي
المذكور (3) واستقر هناك بطلب من هذا الأخير متصدرا للتدريس ونشر
العلم فيها . حتى قصده الطلاب من مختلف جهات الصحراء .

وما أن قتل الشيخ أحمد بن إبراهيم الأنصاري حتى خلصت زاوية
تمغروت للشيخ ابن ناصر الذي تسمت الزاوية باسمه ، فأصبحت تنسب
إليه . وبذلك جمع بين الاشتغال بالعلم ونشره والتربية والإرشاد .

وهكذا يصبح ابن ناصر قطب الزاوية وشيخ الطريقة ، مشرفا على
حلقات المعرفة ، وحلقات الذكر والنشاط الصوفي هناك ، مستفرغا كل
قواه في الزاوية ، معرضا عما سواها ، متحملا الكثير من العناء وشظف
العيش ، متجلدا صابرا « في هذه المدة غاية الصبر على معيشته وكسوته
حتى كان ينام مع أهله على التراب لعدم ما يشتري به حصيرا يفرشه
وربما افترش ليفا أو جريد نخل ... » (4) .

والمعروف عن ابن ناصر أنه كان متمسكا بالسنة ، بعيدا عن مجازاة
المتصوفة فيما لا يساير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعمدا مخالفتهم
في اتخاذ السبحة والخرقه والضيافة (5) ، حتى أنه كان يكتفي بأذان

-
- (1) نفس المصدر السابق .
 - (2) نفس المصدر السابق .
 - (3) نفس المصدر السابق .
 - (4) نفس المصدر : ص 58 .
 - (5) نفس المصدر السابق .

واحد للجمعة ، كما كان يعتمد ترك قراءة فاتحة الكتاب في معقبات الصلاة على خلاف ما جرت به العادة عند صوفية زمانه . ومما يؤثر عنه أيضا أنه كان يخالف خطباء المساجد يوم الجمعة فيما يقومون به من الدعاء لأمير البلاد على منابرهم . فكان لا يدعو للأمير في خطبة الجمعة ، مما أثار عليه غضب السلطة ، وجر له نقمة السلطان رشيد بن الشريف العلوي الذي بيت له مصيرا خطيرا . فبعث إليه « بكتيبة من الجيش للبطش به ولكن الله سلم » (1) .

والملاحظ أن ابن ناصر هذا كان يراعي حالة المريدين عند تلقينهم للأوراد التي لم يرد ضبطها وتعيينها ، والتي لم تكن عنده على صيغة مخصوصة ولا على وتيرة واحدة للمريدين . فكان يميز في ذلك بين الرجل والمرأة ، وبين الرجل والرجل . فالذي كان يلقنه للمتفرغ من الرجال ليس كالذي كان يلقنه لمن له أشغاله اليومية . أما المرأة فانه كان يراعي فيها شؤونها المنزلية وما هي عليه من طاقة لا تبلغ مستوى الرجال (2) .

ولعل هذا الجزء من رسالته التي توجه بها الى بعض طلبة تلمسان الذين سألوه الدخول في زمرة أتباعه ومريديه يستطيع أن يفيدنا بعض الفائدة عما كان يمد به مريديه من الأذكار . فلقد جاء في هذه الرسالة قوله : « ... وأوصيكم بتقوى الله . ولا ترجوا ولا تخشوا إلا الله . وأما السبحة والضيافة والخرقه فليس عندنا فيهن رواية . وانما طريقتنا الذكر . وهو نحو ما ذكره الشيخ السنوسي (3) في آخر شرح العقيدة الصغرى . فإن رغبتم في الدخول في السلسلة فصححوا التوبة وشروطها . وعليكم بتقوى الله والتوكل عليه في جميع الأمور ، والتأهب ليوم النشور ، والتزود لسكنى القبور . وإذا فرغتم من الأذكار الماثورة بعد صلاة الصبح فقولوا :

(1) نفس المصدر السابق : ص 59 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) نفس المصدر السابق : ص 58 .

أستغفر الله مائة مرة ، اللهم صلى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . كذلك : لا إله إلا الله ، ألف مرة . هذا إذا كان ممن يعاني القراءة وكان ذكرا . وأما المرأة فحسبها من الهليلة مائة مرة . وإن كان عاميا فليذكر الهليلة سبعة آلاف مرة . ويزاد عند تمام كل مائة : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا هو الورد بين الصبح والصبح . « (1)

أما الأذكار التي كان ينصح بها من طلبها منه وانظم إلى السلسلة فقد يمدنا بها ما جاء في رسالته التي أجاب بها أحد طلبته ، وهو الإمام الشرقي بن أبي بكر الدلائي ، حينما كتب لشيخه هذا يسترشده عن أذكار يتلوها في الليل والنهار ، والتي ورد فيها : « ... فإذا أصبحت وإذا أمسيت فاتل هذه الأدعية سبعا سبعا : اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تدرأ بها عنا كل شر باطن وظاهر . إنك أنت القوى القاهر . اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تجلب بها إلي كل خير باطن وظاهر إنك أنت الله القوى القادر . سبحان ربي الأعلى الوهاب . اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة . اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم استر عورتني وآمن روعتي . اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، ومن شمالي ويميني ومن فوقني ومن تحتي . أعوذ بك أن أغتال . اللهم يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين . حسبي الله لا إله إلا هو . عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ... » (2) .

هذا ومما كان يأمر به مريديه الإكثار من الاستغفار بعد التوبة النصوح ، والإكثار أيضا من الهليلة ومن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (3) .

(1) نفس المصدر السابق : ص 59 .

(2) الزاوية الدلائية : ص 54 .

(3) نفس المصدر السابق : ص 59 .

وبهذا الذي استعرضناه نتبين أن طريقة الشيخ ابن ناصر لا تبتعد كثيرا عن طريقة الدلائيين ؛ إذ كلاهما طريقة شاذلية زروقية ، تلتزم البساطة والسنة النبوية ، في تجنب لعبارات الصوفية العامة ، غير أن الملاحظ على الدلائيين أنهم ينفردون بطريقة الشيخ الجزولي دون أرباب الزاوية الناصرية ومن يشاركونهم بالانتساب (1) .

الزاوية الفاسية :

تنسب هذه الزاوية إلى شيخها الأول ، وهو أبو المحاسن يوسف الفاسي (2) من مواليد مدينة القصر الكبير ، ومن الآخذين عن الشيخ عبد الرحمان ابن عياد الدكالي المشهور بالمجذوب (3) . فلازمه ولم ينقطع عنه إلى أن توفي سنة (1569-68/976) فتصدر بعده تلميذه أبو المحاسن هذا للمشيخة وتربية المريدين ، الذي انتقل بعد مدة إلى مدينة فاس ، وذلك سنة (1581-80/988) فأقام فيها بأقصى الدرب من حي المخفية بعدوة الأندلس ، أين كان يسكن هو ، مستخلصا لنفسه الطابق العلوي من داره ، وجاعلا من الطابق السفلي منها ملتقى يلتقي فيه بمريديه والمنتسبين إليه . حتى هيات له الظروف ما ساعده على بناء مسجد ومئذنة وزاوية في جوار مسكنه هذا . ثم هو بعد ذلك يطلب من أصحابه بتطوان أن يبنوا « رابطة هنالك لأورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير . فبنوها في العيون منها . وقام الرسم بها أحسن قيام . ولم تزل الصلوات راقية بها ، ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرهما ثابتة فيها ، واسم الزاوية جاريا عليها . ووقف الناس عليها أوقافا » (4) . وبذلك أصبح للزاوية مركزان : أحدهما

(1) نفس المصدر السابق : ص 60 .

(2) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 61 ؛ وكذلك تعليق ص 49 منه .

(3) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 49 .

(4) الزاوية الدلائية : ص 61 .

بفاس . والآ خر بحي العيون بتطوان . وكلاهما يتسبب لشيخ واحد هو أبو المحاسن الفاسي المتقدم الذكر (1) .

والظاهر أن هذه الزاوية قد أنشئت لمهمة صوفية بحتة . غايتها في ذلك تربية المريدين وتلقينهم الأذكار على منهج الطريقة الشاذلية الزروقية الجزولية المعروفة والمتشرة آنئذ في كثير من التراب المغربي .

وإذا لم تكن للزاويتين السابقتين - الدلائية والناصرية - أوراد معينة ، وإنما هي وظائف أقامها أشياخ الزاويتين حسبما انتهى إليه اجتهداهم ، فإن أبا المحاسن الفاسي لم يسلك هذا السيل ، ولم يترك الباب مفتوحا على شبه الاختيار . وإنما رتب لذلك أذكارا مضبوطة ، وأعد أورادا محدودة يقرؤها المريد ونوميا جهرة ومجتمعين في أوقات ثلاثة من اليوم :

أحدها بعد صلاة الصبح ، ويقرؤون فيه حزب الفلاح (2) ،
والمسبعات العشر (3) ، والمعشرات التسع (4) ووظيفة الشيخ زروق (5) ،
والحزب الكبير (6)

وثانيها في العشي . ويكتفون فيه بالمسبعات العشر ، ووظيفة الشيخ زروق بإبدال عبارات : أصبحت وأصبحنا وما أصبح بعبارات تناسب العشي وهي : أمسيت وأمسينا وما أمسيت (7) .

(1) نفس المصدر السابق .

(2) الزاوية الدلائية : ص 61 وص 275 .

(3) نفس المصدر : ص 60 .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) نفس المصدر السابق .

(6) نفس المصدر السابق .

(7) نفس المصدر السابق : ص 62 .

وثالثها بعد صلاة المغرب ، ويذكرون فيه حزب الفلاح ، ثم حسبنا الله ونعم الوكيل سبعين مرة (1) ، ثم صلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (2) .

وما أن أسس أبو المحاسن الفاسي زاويته بحي المخفية حتى نهض أخوه وتلميذه أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الفاسي المشهور بالعارف ، بتأسيس زاوية أخرى على غرار زاوية أخيه وسسته ومنهجه ، في حي آخر غير الذي استقر فيه أبو المحاسن ، وهو حي القلقلين بفاس .

وما أن توفي أبو زيد هذا حتى خلفه فيها حفيد أخيه وأخص تلاميده ، وهو شيخ الجماعة في عصره ، عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن الفاسي . فنالت منه الزاوية العناية البالغة . وأقام فيها بجوار حلقات الذكر والتربية حلقات لتدريس العلوم .

أما نشاطه العلمي فقد مرت الإشارة إليه في الحديث على الحياة الثقافية المغربية بفاس في ذلك العصر . وأما نشاطه الصوفي فينحصر في إقبال المريدين عليه والتفافهم حوله يلقنهم ويربيهم ويعلمهم الأذكار والأوراد ليرتلوها في مواعد معينة من اليوم . فكان المريدون في عهده يجتمعون مرتين في اليوم لقراءة تلك الأحزاب وتلاوة هاتيك الأذكار .

أما موعد اللقاء الأول من اليوم فقد كان بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس يجتمعون هناك ليقرؤوا فيه حزب الغداة (3) وينصرفون .

وأما موعد الاجتماع الثاني فقد كان بعد صلاة المغرب ، أنى يقرؤون حزب الفلاح وحزب الشيخ الجيلاني (4) وصلاة الشيخ عبد السلام ابن مشيش (5) .

(1) نفس المصدر السابق :

(2) نفس المصدر السابق : 62 . ص 275 .

(3) نفس المصدر السابق : ص 62 .

(4) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 63 .

(5) نفس المصدر السابق .

أضف إلى هذه المجالس صباحا ومغربا ، ما كان يعقده المنشدون من حلقات يرددون فيها الأمداح النبوية والأشعار الصوفية بمحضر شيخ الزاوية الشيخ عبد القادر الفاسي . فكانوا « لا يستعملون شيئا من السماع حتى يقدموا قبله تلاوة ما تيسر من الذكر العظيم . وكان يحب كلام الششتري (1) باللحون ، وكلام سيدي عبد الرحمان المجذوب وغيره . ولا ينكر شيئا من ذلك . ولا يحب آلة مع ذلك سدا للذريعة ... وكان يرخص في الرقص ، ولكن لذي حال غالب . ومع ذلك يأمر بالسكون . وينهى عما يؤثر في العقول من السماع . ولا يمنع شيئا في الفرح بالمولد النبوي من الرقص والشطح » (2) .

والذي نلاحظه ونستخلصه مما تقدم أن الزاوية الفاسية ، بحكم استقبالها لمريدين متحضرين ولربما كانوا مشاركين في العلوم ، كانت تكلف هؤلاء المنتسبين إليها والمنخرطين في سلكها بحفظ الأحزاب والوظائف والأذكار المعقدة الطويلة .

الزاوية العياشية :

أما الزاوية العياشية — وهي التي تسمى الآن بزاوية سيدي حمزة (3) ، والكائنة بسفح جبل العياشي على ضفة أحد روافد وادي زيز بعيدة عن ميدلت بنحو ستين كيلومتر جنوبا — فقد أسسها محمد بن أبي بكر العياشي ، وذلك سنة (34/1044-1635) بإشارة من شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي .

لقد أسست هذه الزاوية لغاية صوفية على غرار سابقتها . فكان يجتمع فيها بالمريدين والوافدين عليه من القبائل النائية يطعمهم الطعام ،

(1) نفس المصدر السابق .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) أي باسم حمزة بن أبي سالم العياشي الذي تول أمر الزاوية بعد أبيه منشطا لحركاته العلمية وبإذلا في سخاء كامل ثروته لانتناء الكتب واستنساخها لها . الزاوية الدلائية : ص 65 .

ويلقنهم الأوراد ، ويرغبهم في عبادة الله وذكره ونلاوة القرآن والتعبد به . والعيش في فلك الوعظ والإرشاد والهداية إلى سواء السبيل . حتى تكاثر على الزاوية الواردون ، وتزاحم عليها المقبولون والمنتسبون . فضاقت بهم رحاب المسجد خصوصا عند أداء صلاة يوم الجمعة ، مما دعا إلى توسيعه وتجديد بنائه سنة (1066/55-1656) (1) .

وما أن أخذ مكان الشيخ ابنه أبو سالم العياشي حتى اعتنى اعتناء فائقا بتدريس العلوم ، ونشر المعرفة في هاتيك الربوع . وهكذا تتحول الزاوية العياشية في عهد العياشي الابن ، وعلى يديه إلى مركز نشيط يجمع بين حركتين اثنتين تلتقيان حول محور واحد يدور على أساس متين من خدمة الشريعة والحقيقة :

أحدهما : حركة علمية هامة قامت بحاجيات تلك القبائل فزودتها ب زاد وافر من العلوم والمعارف الشرعية واللغوية . فتوافدت عليها جماعات من الطلاب استفادوا منها بما شهّد لها بفضل القيام آنئذ بالرسالة التثقيفية خير قيام .

والحركة الثانية : حركة صوفية اعتمدت في راجح الظن وغالبه على الطريقة الشاذلية التي هي طريقة الدلائيين الذين كان يدور في فلكهم وضمن دولابهم مؤسس هذه الزاوية الذي قد أوحوا له - كما سبقت الإشارة إليه - بتأسيسها ونشر الحركة الصوفية بواسطتها .

خاتمة

وبهذا الذي سبق الحديث حوله نتبين أن التصوف المغربي في هذا العصر كان استهلاكيا لا إنشائيا ، وأنه لم يتطور على ما كان عليه قبل

(1) الزاوية الدلائية : ص 64 - 65 .

هذا العصر في البلاد المغربية ، وأنه كان خلوا من التيارات الفكرية سواء منها النابعة من الأوساط الاجتماعية فيها ومن ذاتها أو المدعوة المشبوهة عادة والتي تأتي غالبا ضمن البضائع المستوردة بموجب الأخذ والعطاء ، والتوريد والتصدير ، وأن هذا التصوف المغربي حركة انطوائية ترمي إلى خدمة الشريعة في نطاق إصلاح الفرد داخل إطار ضيق لا يتجاوز حدود دعوته إلى طاعة ربه كما يفهمها الناس عادة ، وإلى المحافظة على عبادة المولى حسب المنهج والطريقة المألوفين عندهم ، ودون أن يتجاوز في ذلك أيضا حدود القيام بأداء العبادات في ظواهرها من غير إدراك لأغوارها وانتهاء للأبعاد المرادة منها وبلوغ لفهم أسرارها وبواطن مقاصدها وأغراضها ، ولا أن يتجاوز حدود دعوته إلى الإكثار من ذكر الله وتسيحه والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم والدعاء والإبتغال إلى الله والتضرع له في مجال ، وإن كان لا يبتعد عن ظواهر السنة ، إلا أنه لا يتجاوز ضوابط أئمة الفقهاء من الحرص على المحافظة على إقتان العبادات المحدودة والصنيع المضبوطة والمرات المحدودة ، وفي أوراد معينة كما أوصى بها شيخ الطريقة أو كما كان عليه الآباء والأجداد من غير استيحاء لما في تلك الأذكار من أسرار ومعان هي التي توقظ المشاعر وتثير العبر ، وتحيي النفوس وتبعث فيها الكمالات الانسانية ، من حب الرحمة بالنفس وبالعباد ، ومن التعلق بالله حق التعلق ، ومن الإعتصام به والتصور له تصورا هو أهل له ، به يدرك ويعبد ، وعليه يقدر ويطاق .

والجدير بالملاحظة أيضا أن حركة التصوف هذه ليس فيها كثير انحراف إلى كثير من المستحدثات والبدع ، إذا ما استثنينا ذلك الذي كان من عمل أصحاب الغايات الخسيسة والمطامع القريبة ، الذين أفسدوا على العامة كثيرا من سلوكهم وتفكيرهم وأحاسيسهم وتصوراتهم ، مستغلين تلك السذاجة فيهم والبساطة في عقولهم المحدودة الآفاق والبعيدة عن الثقافة العامة بالدين والمعرفة المعمقة بالله التي تؤثر غالبا على الفكر فتدفعه إلى الابداع والاجتهاد والابتعاد عن الإجتراء الذي هو وليد التزام وتبع خطى السابقين القدامى وتقليدهم من غير أي تصرف ولا زيادة فيها ، والذي هو أيضا وليد التلقين الذي لا يستطيع عادة أن ينهض في وجه الخرافات بل وقد

يشجع على الانسياق وراءها وتقبلها بكامل السهولة واليسر ، كما انه لا يستطيع أن يثبت أمام التمويه والتضليل ، بل - تجده على العكس - يستسلم لهما ويسير في ركبتهما مسخرا عن حسن نية غالبا في خدمتهما والعمل على نصرتهما .

ولعل هذه الاعتبارات ، مع ما عرف به المغاربة قديما وقبل عصرنا الذي نتحدث عنه بالخصوص من التعلق بالسنة وصاحبها صلى الله عليه وسلم والسير في منهج الإسلام الصحيح اقتفاء لأثر الرعيل الأول من الصحابة والخلفاء الراشدين ، تستطيع أن تفسر لنا الدواعي التي دعت رجال التصوف ، والمشائخ الذين عرفوا بالاستقامة والتزاهة والجدية ، والذين تعرفنا إلى من تضافرت الأقوال على نزاهتهم ونزاهة الجو الذي خلقوه في محيطهم داخل الزوايا التي استعرضنا نماذج منها ، والتي كان لها كبير الأثر في المحافظة على الشريعة والحقيقة في تلك الربوع . فدعتهم إلى أن يتصدوا للبدع وأصحابها ، وأن يتخذوا من أنفسهم حماة للثقافة التقليدية ، ودعاة للوقوف في وجه الضلالة والزيف والعدوان .

ولعل تلبد الغيوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولعل الخشية مما ينتظر المغرب - إذا ما استمر في الطريق الذي رسمته وعبدته له تلك الظروف أيضا - قد دعت هؤلاء جميعهم إلى العمل على إنقاذ من يستجيب لدعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم إن هذا الذي تقدم شرحه والوقوف عليه من مظاهر تصوف القوم وخصائصه وما اشتمل عليه من تعلق بالوجود وبعد عن الإبداع الشخصي والاجتهاد النظري فيما لا يخرج عن حدود الشريعة ، ولا يتجاوز مظاهرها إلى استخلاص أبعادها والغوص في أغوارها استخلاصا مطبوعا بالطابع الشخصي أيضا ، إن هذا الذي تقدم فيه ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه مما اشتهر به المغاربة آنئذ وبصفة عامة من الميل إلى المحافظة على ما وصل إليهم من علوم شرعية تستند إلى الرواية ، وليس فيها كثير تصرف ودراية ، مكتفين في نشاطهم الفكري والعقائدي والصوفي بما يصلهم وصلا وثقا ومحكما بالسلفية وما فيها من كثير الاعتماد على النصوص المستمدة من

الكتاب والسنة بما انتهت إليه على يد المجتهدين الأولين مع الميل إلى عمل أهل المدينة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في تقليد والتزام .

ومن أجل هذا الميل منهم كان المذهب المعتمد عندهم — وهو المذهب الوحيد في البلاد دون سواه — مذهب إمام أهل المدينة أعني به الإمام مالكا رضي الله عنه ، وكان مذهبهم الاعتقادي الكلامي مذهب الإمام الأشعري من أئمة أهل السنة والجماعة . فليس مستبعدا — والحالة تلك — أن يكون مذهبهم الصوفي سائرا في المنهج القريب من المذهبيين ، والذي يتمثل في طريقة الإمام الجنيد التي أخذ منها الإمام الشاذلي ومن سار على منواله من المتصوفة الذين تتنظم منهم سلسلة السند إليه من أمثال الإمامين العارفين : الجزولي والتباع (1) وأضرابهما .

وبالجملة — وبعد إلقاء هذه النظرة على ما أوحى لنا به كتاب المحاضرات — يمكننا أن ننتهي إلى أن الذي مر بنا حول التصوف المغربي في المغرب الأقصى وفي القرن الحادي عشر الهجري لا يمكن أن نستخلص منه مدرسة فكرية ، ولا فلسفة عقائدية ، ولا سلوكا نظريا ، ولا اقتباسا ولا مزجا وتأليفا وتسيقا ، وإنما هو مجرد التفاف الناس حول أنفسهم وحول زاوية وضريح ، بقيادة شيخ يعلمهم ويرشدهم ويلقنهم ويربهم على إقامة المجالس وتلاوة الأذكار وقراءة الأحزاب ، والدعوة إلى طاعة الله سبحانه على الطريقة المألوفة التي سبقت الإشارة إليها ، وعلى المنهج الذي كنا ذكرنا أنه لا يبعد في الكثير من حالاته عن السنة النبوية الشريفة . كل هذا إذا ما استثنينا البدع التي ابتدعت من أمثال إقامة المراكز الخاصة لإقامة العبادة وعقد مجالس الذكر ، والتي هي ليست بالمساجد بالمعنى الإسلامي المتعارف عليه ، مع أن أصحابها يعطونها ما للمساجد أو قريبا منه من حرمة وقداسية . تلك هي التي نسميها بالزوايا والتي ينتسب إليها كل منخرط في فلك الشيخ المؤسس لها أو الساهر عليها والتي قد شاع

(1) انظر ترجمتهما في الزاوية الدلائية : ص 48 .

فيها ، فيما بعد ، السماع والإنشاد والرقص وما يتبعها من البدع التي لاقت الكثير من نكير الفقهاء والعلماء .

وبذلك يعرف أنه ، لولا ما كان من أمر المشعوذين الإستغلايين الذين طعنوا متصوفة المغرب بما برهنوا به هم على خسة أنفسهم ودناءة نفوسهم وقلة مرؤوتهم ورخص ضمائرهم ، وبما قاموا به من استغلال فتدريس المظاهر الانتساب والسلوك الذي كان الناس يسلكونه ابتغاء مرضاة الله ، وتعلقا بطاعته وطمعا في التقرب إليه ، لولا ذلك وغيره من السلوك الشخصي الغير المشرف والذي قد اتخذ ألوانا وأشكالا مزرية ، فكانت عاقبة أمره أن افتضح أصحابه بالكشف عنهم ومطاردتهم والتشهير بهم لكانت الطريقة في المغرب الأقصى وفي ذلك العصر بالخصوص عبارة عن اجتماع على الطاعة وإقامة لسانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحريض للعامة على الإكثار من عبادة الله تعالى . وهي - في اعتقد - مهمة جليلة القدر ، رفيعة المنزلة وثقيلة في الميزان ، خصوصا إذا أضفنا إليها الدعوة الجادة إلى الجهاد في سبيل الله والقيام عليه ، ومباشرة لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه الخفيف ونشر رايته على كافة الربوع بالبلاد . كما هو شأن أولئك الأئمة من مشايخ الطرق والزوايا الآفة الذكر . فكان منهم ، ومن شاكلهم وكان على مستوى إخلاصهم وإيمانهم ، دفع الأعداء . وكان منهم تجسيم القضاء على حركة الاحتلال الأجنبي . وكان أيضا الحد من استخفاف بعض أولي الأمر بشؤون بلادهم وتفريطهم فيها شيئا فشيئا ، سعيًا وراء إشباع أطماعهم وتثبيت أركان سلطانهم الموهوم . وكانت في النهاية جيوش المجاهدين الجرارة التي ملأت السهل والجبل ، والتي قد أحاطت بالأعداء من كل جانب . حتى كانت جولة العلويين ، بعد جولة العياشي بسلا وجولة الدلائيين في الأطلس ، فوحدت البلاد وعملت على طرد الأجنبي . ومازالت دوائهم قائمة إلى اليوم تمسك بزمام أمر البلاد أملا في تحقيق الأهداف القومية ، وفي تحقيق الكرامة وجمع شتات المغرب الأقصى على صعيد إسلامي موحد إن شاء الله .

اليوسى المتصوف

عوامل تصوف اليوسى :

ما من شك في أن غراس النشأة الأولى في الإنسان لها كامل التأثير عليه بما يشده إلى المسلك الذي يتناسب معها فيما يتعلق بمسار سلوكه ومعاملاته واتجاهاته المختلفة في مستقبل أيامه ، وبما يشده أيضا إلى المنهج الذي يسير على هدى تعاليمه بمقتضاها في حياته كلها . من جميع أطرافها وحاجاتها واتجاهاتها سواء منها الروحية الاعتقادية أو العملية الدنيوية ، مهما كانت المؤثرات الطارئة والعوامل الجديدة التي تدخل عليه في تكونه من بعد ، من طريق الاحتكاك والدراسة أو من غيرهما بعد مفعول طابع تلك النشأة الأولى ، حتى أنه إذا ما تخيل المرء أن لهذه المؤثرات الطارئة والعوامل الحديثة المتسلطة عليه ، تكييفاً لسلوكه السابق ، ولسطاناً على نفسه المتشربة مما تربت عليه وتملته وعرفت الوجود معه ، فإن الحقيقة والواقع ينهانه إلى زيف هذا التخیل ويؤكدان أن هذه التخیلات لا تستطيع ، مهما أوتيت من قوة العناصر وعدة العناية ، أن تنتهي إلى العمق وأن تمتد إلى جذور تلك الغراس الأصلية بالقلع والإستئصال بقدر ماله من الصبغة الظاهرية السطحية الطافية التي لا تتجاوز في مفعولها عملية التعديل والتهذيب والتقويم والتشذيب ، التي يسهل التخلص منها وتعطيل آثارها والانتكاس

عنها ، إذا ما وجدت جذور النشأة الأولى ما يساعدها من المتنفسات على التغلب والقهر والسيادة ، والوقوف في وجه كل تلك المؤثرات الخارجية الجانية الدخيلة الأخرى .

ومن هنا جاء ما يعبر عنه بالأصالة والمقومات الشخصية التي تعود إلى الفطرة من جهة ، وإلى الوراثة من جهة أخرى ، وإلى عناصر التربية الأولى من جهة ثالثة . وتلك هي الغراس التي أشرنا إليها والتي إن وجدت تربة بكرًا . ودواخل طيبة سليمة ، وخلوًا من الطوارئ والمعوقات رافقت الطبع واستوت معه قائمة وثابتة ، ونفخت فيه من القوة والصلابة والقدرة على مقاومة الطفيليات ، حتى يصبح لها ماله من القوة والسلطان الذي يغالب به التطبع فيكون له عليه الفوز والغلبة بحكم التربة الخصبة والتنشئة القويمة والتمكن المحكم ، مما يكون مصداقًا من قريب أو من بعيد لما بات من المعلوم بالضرورة ، ومن المسلمات التي أكدتها الحياة : أن من شب على شيء شاب عليه .

وتبعًا لذلك . فانه قد يساعدها على إدراك العناصر التي انتهت باليوسي إلى ما انتهت إليه في حياته العلمية والسلوكية والصوفية ، ما احتضن الرجل منذ فجر حياته من ظروف زرعت فيه بذور التفتح على الحقيقة ومؤثرات الدواعي للسير في طريق القوم ومقومات الإنطلاق في مسيرة السالكين ، واللاحاق بالعارفين ، بانتهاج طريقة صافية ناصعة لا تدركها شوائب الريب ، وبانتهاء إلى تسليم خالص كامل ، وبوصول إلى انقياد مطلق لا مجال له في الدخول مدخل الظنون والريب والأوهام ، ولا مجال له في تلييس العقيدة بما ليس منها وبما قد تدارسه من ليس له من أسباب المناعة ما نهياً لليوسي وأمثاله مستمداله من الثقافات الدخيلة فوق في الزيف والضلال . تلك الثقافات التي كانت تعتلج داخل بعض الأجواء الشرقية بالخصوص من ديانات وفرق عقائدية أخرى قائمة على غير الديانة الإسلامية وبعيدة كل البعد عن تعاليم الإسلام وبساطته الهادئة الهادفة التي يتولد عنها إيمان مكين لا تؤثر فيه التيارات العقلية المريضة ولأ الخلافات الجدلية الفلسفية التي تقوم على القياسات المنطقية التي تؤدي إلى قياس الغائب

على الحاضر في مالا إحاطة للعقل به ، فلا يستطيع أن يدركه إلا إذا اتخذ رائده إليه الوحي الالاهي الذي ليس له من طريق إلا الأنبياء والمرسلون . وتلك هي العناصر التي أثرت كما ذكرنا في كثير من الناس اشتغلوا بالعميقة في المجالات القصاصرة ، فراحوا يبحثون عن الحقيقة في غير مضانها من خلال تلك الإمكانيات البشرية المحدودة التي استفادوها من دراساتهم وأبحاثهم ، ومن الأوساط التي شبا داخلها وترعرعوا فيها ، فوقعوا في المزالق الشائكة التي ليس من السهل الخروج منها والسلامة من عواقبها ، والتي لم يحل أبو علي اليوسي على حال بواديها .

وهكذا يمكننا ذلك المحيط الذي احتضن الرجل أيامه الأولى من التعرف إلى ما يحيط بالعوامل التي قادته إلى ما انحاز إليه وعرف به من حياة جمعت بين الشريعة والحقيقة في منهج طريقي صوفي عملي بعيد عن البدع والأهواء والضلالات ، ومعتمد على التقوى والعبادة وانتهاج المنهج السلفي السني الذي انتسب إليه متبعا في ذلك الطريقة الشاذلية على غرار شيخه وأستاذه أبي عبد الله محمد بن ناصر ، شيخ الزاوية الناصرية بتمغروت .

فلقد كان مولد الرجل في بيئة متدينة يرعاها رجل « مع كونه أميا كان رجلا متدينا ، مخالطا لأهل الخير ، محبا للصالحين ، زوارا لهم » (1) . زكى هذه الروح في البيئة الأولى التي أنجبت الرجل ، والتي هي زيادة على ما سبق ، بيئة بدوية صحراوية ، تعيش على قريب من الفطرة والسذاجة ، زكاها أن هذا الابن يحتضنه أول ما يحتضنه - في رفقة وملازمة - أستاذ لا يبعد عن ذلك الجو ، بل هو إلى غيره أبعد . هذا الأستاذ هو أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف الحداد اليوسي الذي استفاد منه - علاوة على دراسة الأولى وما إشتملت عليه من العناية بالقرآن تلاوة وحفظا - ما طبع هذا الأستاذ عليه من جنوح للأولياء ، وميل إلى الصالحين وزيارتهم والتبرك بهم ، وتعلق بدراسة مآثر المتصوفين وما طبعوا عليه من سلوك وتعلق ، حتى

(1) المحاضرات : ص 29 .

انتقشت تلك المآثر في عقل هذا الناشئ الجديد ، ووقعت حلاوتها في قلبه مما جاء ذكره على لسان اليوسي نفسه حينما قال متحدثا على أستاذه هذا وما انعكس منه عليه : « ... ومن أحسن ما استفدت على يديه أن كان عنده مجموع فيه المورد العذب للجوزي كأوس القرني وإبراهيم بن أدهم وإبراهيم الخواص وغيرهم رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم . فانقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي . فكان ذلك بذرا لما أنعم الله تعالى به من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم ... » (1) .

ثم بعد ذلك يتحول عن هذا الأستاذ ليلتقي بأوساط أخرى لم تبتعد عن هذا الذي سبقها ، لاشتمالها في غالبها على دروس الوسائل والمقاصد . وإذا به في نفس الوسط أو قريب منه تسيطر عليه هاتيك المؤثرات التي لم تدع لغيرها مجالا يشاركها في التسلط عليه والتمكن منه . حتى تلقفته الأيدي وسلمته إلى شيخه في الدين الذي ينعتة بقوله : « شيخ الإسلام وعلم الأعلام » والذي حلاه غير ما مرة بقوله : « شيخنا البركة ، وقدوتنا في السكون والحركة ، أبي عبد الله محمد بن ناصر » (2) . والذي جاء في معرض حديث اليوسي عنه ، وهو يتحدث عن استفاد منهم من الشيوخ خصوصا منهم أولئك الذين كان لهم التأثير البالغ عليه في طريق القوم قوله : « شيخنا وأستاذنا وبركتنا ، علم الأعلام ، ومصباح الظلام ، وقدوة الأنام وشيخ الإسلام ، أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن الحسين بن ناصر ... وهذا الشيخ هو الذي أخذت عنه العهد والورد . وإليه نتسب . وكل ما تذكره سواه فإنه على طريق انتفاع ... » (3) .

فاليئة التي ولد فيها ، والجو الصحراوي الذي ترعرع فيه ، والعقلية العلمية المطبوعة بطابع البداوة والسذاجة والانغلاق النسيبي المتأثر بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيش عليها البلاد ، كل هذه كان لها الأثر البالغ في حياة اليوسي الدينية الصوفية .

(1) الفهرست : ص 134 .

(2) لمحاضرات : 76 .

(3) الفهرست : ص 157 .

ولعل هذا ما يفسر لنا مظاهر السذاجة والبساطة في كثير مما يعرضه علينا الرجل من أحداث رويت له ، ومن وقائع كان لها شاهد عيان ، وقد كان لكل منها ميسر العلاقة بالجو الطرقي والمنهج الصوفي . فيقبلها بدون تعقيب عليها غالبا ، ولا تحليل لها تحليلًا منطقيًا ، ولا تفسير لها تفسيرًا معقولًا ، واقفا منها موقفًا لا يتناسب مع مقام اليوسي المتضلع العالم المناظر المتبحر الذي يطالعك بعقلية نابغة في المباحث النظرية ، والتعليقات الجدلية ، والتحليلات العلمية المعقدة العالية .

التبرك بآثار الصالحين :

والذي يبدو جليًا أن هذه البساطة تتجلى بالخصوص عندما يجره الحديث إلى ما يتعلق بالأولياء والصالحين والتبرك بهم ؛ إذ يغالي في ذلك مغالاة تلفت النظر ، وتبعث العجب والحيرة ، وتدعو للانتباه . وإن كان كل ذلك يدل على مدى ما في الرجل من صلاح وتعلق بالله ، ومحبة في أولئك الأولياء والصالحين وإغراق في الزهد والتصفوف العملي عبادة وذكرًا . حتى إنه ما كان يلح - لا كل الإلحاح ولا حتى بعضه - على دعوة العقل وتحكيمه سبرًا وتحليلًا وتعليلاً ، مع ما له من تمحيص ومنطق وعلم ودقة نظر في مثل هذه المجالات التي تتصل بالغيبات وترتبط بالإيمان بما لا مجال للوصول الإدراك العقلي إلى كنهه والخوض فيه .

لقد عرف اليوسي بكثرة الزيارات لأضرحة الأولياء ورباطاتهم . يتحدث هو بذلك عن نفسه ويذكره الناس عنه . وبذلك أحيا كثيرا من الرباطات بتعرفه إليها وتعريفه لها (1) . والظاهر أن من أبرز الدوافع له على أن يسلك هذا السلوك ما جاء عبر تعرضه بالكلام إلى رباط شاعر مما يشعر بما يقارب العلية مما يوحى بالأسباب التي رغبته في التردد على أمثاله من كل ما هو مقرر لولي أو ملتقى للصالحين . فهو إذن متعطش للتبرك بالأماكن التي

(1) المحاضرات : ص 37 .

كانت مجامع لأهل الخير والصلاح . ذلك ما ذكره بتلك المناسبة المشار إليها حين قال عن هذا الرباط المغربي : إنه « كان مجمعا للصالحين من قديم ، ولا سيما في رمضان يغدون إليه من كل أوب » (1) . ويسوقه هذا الحديث إلى أن ينقل عن كتاب التشوف قصة عن امرأة صالحة تسمى منية الدكالية ، هي غريبة في بابها أو مثيرة لبعض التساؤلات التي يظهر أنها لم تلق ما يثيرها عند الرجل الذي تقبل تلك القصة قبول الرضى والتسليم ، كان الذي جاء فيها أمر طبيعي وعادي . إنه يذكر في كتابه المحاضرات أن صاحب التشوف حكى « عن منية الدكالية رضى الله عنها أنها حضرت ذات مرة في رباط شاعر . فقالت لمن معها : إنه حضر هذا العام في هذا الرباط ألف امرأة من الأولياء » ، بل إن اليوسى يعقب بعد ذلك على هذا الذي نقله فيقول : « فانظر إلى عدد النساء . فكيف بالرجال ؟ فلا شك أن هذا الموضع موضع بركة ومجمع خير » (2) . ويواصل حديثه هذا دون أن يسترعي انتباهه في هذا الذي نقله شيء يثير عنده بعض الشك والتردد والاستغراب كما أسلفنا .

ومن الأشياء العجيب أمرها ما نقله اليوسى في كتابه المحاضرات أيضا عن نفسه التي حشرها زمرة العوام فيما يمكن أن يقع فيه أمثالهم وليس أمثاله من العلية المنتخبة فكرا ومتزلة . وذلك لما شاع بين الناس عند ما كان بسجلماسة من أنه قد ظهر رجل في المدينة وقد خف القوم إليه . فيقص علينا هذا الحدث العجيب دونما تخرج مما جاء فيه فيقول : « ... وخرجنا مع الناس . فقايل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقول : صاحب الوقت . فلما اشتد الزحام على الرجل دخل في قبة في المقابر وأخرج كفه من طاق في القبة يقبلها الناس وينصرفون . وكان كل من قبل الكف كفى ورأى أنه قضى الحاجة . فقبلناه وانصرفنا » (3) .

(1) نفس المصدر السابق .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) المحاضرات : ص 38 .

وهكذا يحشر اليوسي نفسه ضمن العامة فيقبل على الرجل ويقبل كفه وينصرف بعد أن قضى الحاجة . وقبل أن يتعرف إلى هوية الرجل - على الأقل - هذا الذي ظهر فيما بعد « أنه رجل مصاب . وكان يشتغل باستخدام الجان » (1) .

والجدير بالذكر أيضا أننا نجد اليوسي بعد هذا في موقف بعيد عن موقفه وهو يقبل كف هذا المشعوز . وهو موقف المعتذر الأسف . نجده يحذر كل الحذر من الوقوع في حبال أدعياء الطريقة الذين امتلأت بهم الرحاب ، فصار من الصعب التمييز بين الصادقين منهم والمتحليين ويشنع بهم فيقول مثلا : « فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع به الإغترار للجهلة الأغمار ... فالحذر مطلوب ، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الإصلاح ، والهوى على الحق ، والبدعة على السنة » (2) .

ثم هو عندها يسوقه الحديث في كتابه المحاضرات إلى من اشتهر باستجابة دعائه من الأولياء والعارفين والأقطاب ، من أمثال الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبي يعزى من صلحاء المغرب يتحدث لنا حديثا لا يخلو من الإثارة والإستغراب أيضا فيقول مثلا : « وقد شاهدت المولى إدريس رضي الله عنه أيام مقامي في مدينة فاس تريقا مجربا في كل ما أنزل به » (3) . كما يذكر القصتين التاليتين على شبه طريق الاستشهاد وإقامة الدليل على صدق وسلامة ما ذهب إليه من الاقتناع والاعتقاد متوخيا في ذلك النسق السابق في القبول والتسليم لمثل هذه الانماط من القضايا التي هي أقرب إلى الأوهام والخرافات في نظر العقل وطرقه الاستدلالية المنطقية منها إلى شيء آخر فيقول : « وكانت أهلي أيام كنا بالزاوية البكرية(4) قد تراخت عنها الولادة . فدخلها من ذلك غم عظيم . فأصبحت ذات يوم فأخبرت أنها رأت

(1) نفس المصدر السابق .

(2) نفس المصدر : ص 39 .

(3) نفس المصدر السابق : ص 61 .

(4) وهي الزاوية الدلائية .

أنها ذهبت إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي . قالت : فوجدته جالسا وأنا في غاية العطش . فإذا حوله عين ترشح منها ماء قليل لا يغني . قالت : فقلت : ياسيدي ! ما هذا ؟ جئت إليك عطشى رجاء أن أشرب . فأخرج كما جئت . قال : لا . إن الماء ثَم . انبشي يخرج الماء . قالت : فنبشت بيدي . فخرج الماء . وشربت حتى رويت . وطلبت مني أن نزوره وأن نطعم عنده طعاما . ففعلنا . فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به . ولما نزلنا بالزاوية المرة الثانية فقفلنا من مدينة مراکش ، وكانت لنا بنية عجزت عن النهوض ، وهي في سن من يمشي . فظنناها مقعدة . فذهبت الخلم إليه وزوروها . فقامت بالفور على رجلها تمشي » (1) . ثم يعقب على هذا بما فيه التسليم السابق والقبول المتقدم في ارتياح لشبه ترتب تلك المسببات على أسبابها المذكورة قبلها ، موهما بما للولي من تصرف وما للزائر من التمكن من قضاء الحوائج فيذكر : « وأمثال هذه الأمور لو تبعنا منها ما رأينا وما سمعنا لمألنا بها الدواوين . نعم رأيت لبعضهم أن الولي إذا مات انقطع تصرفه من الكون . وما يحصل لزائره مثلا إنما يحصل له على يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولي » (2) .

وعلى كل حال فإن هذه السداجة التي كاشفتنا بها هذه الأمثلة من مواقف اليوسي لا تنتهي بنا إلى حد الحكم بتجريد الرجل من سلامة السلوك الذي سلكه في حياته الصوفية . وإنما هي تنتهي بنا إلى الوقوف على تأثير الروح السائدة في ذلك العصر عليه مع ما احتفاظ به منذ طفولته الأولى وشبابه المبكر مما جاء ضمن عادات قومه وتقاليدهم في نطاق فهمهم لكثير من الظواهر المحمولة على الدين وعلى أرباب القلوب وما فيها من إيمان كإيمان العجائز يصدر من الآباء فيقبله الأبناء ويربون عليه . حتى إذا ما صلحت أحوالهم واستقامت حياتهم وسائرهم الجو الذي عرفوه من قبل بقيت تلك الآثار القديمة عالقة بهم ، مؤثرة على

(1) المحاضرات : ص 62 .

(2) نفس المصدر السابق .

تصوراتهم فلا يتعدون - مهما حاولوا ذلك - عما كان رائجا وسائدا في تلك الأوساط المعهودة عندهم والمعروفة لديهم ، متأثرين بها ومطبوعين عليها . وهو ما كان يبدو غالبا من الآثار لتلك العوامل التي بدت في هذا المحيط متسلطة على الرجل وعلى غيره من أمثاله الذين عرفوا بالاستقامة والتقوى والصلاح ، والتي توضح حياة الطرق والزوايا آنثذ وعند هؤلاء الأقوام بالخصوص . كما توضح طريقة معالجتها للوقوف على الحقيقة ، وعلى الغاية التي تعمل للوصول إليها في تربية المريدين حتى يتمكنوا من تطهير النفس وتخليصها مما سوى الله ، فتقبل على عبادته وتخلص في طاعته ، وتحرص على تقواه وتعمل على مرضاته في مجموعات تتقارب في المنهج وتتحدا في الوصول . فكان جلها لا يتعد في طريقه عن المنهج السني السلفي . على الطريقة والمنهج السائدين في ذلك العصر والمعروفين لطريقة ذلك الزمان ومتصوفته .

طريقته في الإنتساب :

ومعلوم أن اليوسي قد قضى جل حياته غير بعيد عن الزوايا ، سواء عند إقامته في الزاوية الدلائية أو عند اتصاله بشيخه ، شيخ الزاوية الناصرية الذي كان يقر له اليوسي بالفضل في حياته الدينية الصوفية ، ويصرح في مباهاة واعتزاز بالإنتساب إليه متصلا به ، مترددا عليه ، مخلصا له معظما ومبجلا .

ومن هنا نتبين أن الطريقة التي كان يعتنقها ويربى المريدين عليها هي الطريقة الشاذلية الزروقية التي هي طريقة شيخه ابن ناصر هذا ، والتي جاء ذكرها في حديثنا السابق على الزاويتين الدلائية والناصرية .

فلقد سار الإمام أبو علي اليوسي على هذه الطريقة ومنهجها السني ، مقتفيا في ذلك أثر شيخه ، مشغلا بالأوراد (1) التي - وإن لم يرد نصها

(1) المحاضرات : ص 161 .

ولا شيء منها في ما خلفه لنا من آثاره الكثيرة التي وقفنا عليها . كما لم يتعرض إلى مضمونها ولا فحواها أحد ممن كتب على اليوسي وسمحت لنا الظروف بالوقوف على شيء من تحريراته حوله — إلا أنه يغلب على الظن فيها أنها التي كان يشير بها أستاذه أو يرشد إليها المقبلين عليه والغارفين من حياضه .

وما من شك في أن أبا علي اليوسي كان يلقي الناس الأوراد في حياة شيخه وبعد وفاته أيضا . يشهد لهذا الذي ذكرناه أمران اثنان : أحدهما يفصح عنه ما جاء في حديث أحمد بن عبد القادر التستائوي (1) إلى الشيخ ابن ناصر من أن اليوسي يكره أن يعتقد فيه المشيخة من أخذ عنه الورد (2) . وثانيهما ما أثبتته المصادر من أن تلقينه للأوراد كان بإذن من شيخه له نيابة عنه (3) . أما بعد وفاة شيخه ابن ناصر فقد كفانا هو نفسه مؤونة ذلك ؛ إذ أثبت في كتابه المحاضرات اشتغاله بتلقين الأوراد للناس وتعليمهم ما يحتاجون إليه ، وذلك بقوله : « إنا بعد وفاة الأستاذ المحقق السني أبي عبد الله ابن ناصر رضي الله عنه لم نزل نسعى في نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم ، ويحتاجون من أوراد النفل والأذكار التي يتزودون بها لمعادهم ويتحببون بها ، ويتقرون إلى ربهم ، عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة لا على وجه المشيخة ، وعلى وجه التعلم والإرشاد لا على وجه التنزيه » (4) .

أما كراهيته لنسبة المشيخة إليه فقد بين سببها جواب ابن ناصر لأحمد التستائوي المتقدم الذكر في حديثه السابق الذي جرى بينهما حول اليوسي ، والذي جاء فيه : « فقلت له : من أخذ عنه الورد (أي عن اليوسي) يعتقد فيه المشيخة وهو يكره ذلك . فقال (أي ابن ناصر) لي : لا يضره ذلك مع

(1) طلعة المشتري : ج 1 ، ص 265 وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق : ج 1 ، ص 295 .

(3) صفوة من انتشر : ص 208 .

(4) المحاضرات : ص 161 .

التبري . وطريقتنا لا نسد الأمر فيها إلينا ، وإنما نسنده إلى أسياننا قبلنا » (1) . ففكره لئله لذلأ لذن لم تكن في الغالب إلا من تهيب الرجل للدرجة المشيخة وعلو منزلتها عنده كما يفهم من الجواب .

ولذا ما بخلت المصادر علينا فلم تمدنا بشيء عن منهجه في تربيته للمتسبين وما يتوخاه لذلأ ، فأننا لا نستبعد حسب ما يظهر من خلال مراسلاته أنه كان يساير شيخه حتى في هذا المجال فيتبع طريقته في النصيح والتوجيه والإرشاد ، مستفيدا مما كان يجري بين الرجل وأستاذه وما كان يقوم بينهما من مراسلات توجيهية تعليمية تربوية .

فبينما نجد رسائل ابن ناصر التي يتوجه بها إلى اليوسي تعتني فيما تعتني به بدعوته إلى التعلق بالله وعدم خشية سواه ، وبدعوته أيضا إلى الاتكال على الله ، وعدم تضيق الوقت في القيل والقال ومخالطة من لاخلق له من الرجال (2) ، بينما نجد الشيخ يتوجه إلى تلميذه اليوسي بما تقدمت الإشارة إليه نجد اليوسي نفسه يفعل قريبا من ذلك في رسائله التي يتوجه بها إلى مريديه وسائليه فلا يبتعد عن ذلك السبيل ، بل ولربما اعتمد كثيرا من نصائحه أيضا . فهو يوصي المريدين كذلك بالتقوى والطاعة ، وبالتوبة النصوح ، وبالتحاب والعمل والمجاهدة ، وبحفظ حرمة المسلمين ، خصوصا منهم أهل الدين وسائر المتسبين (3) . كما يوصيهم أيضا بتجديد التوبة خصوصا في السحر ، وبزيارة الصالحين ، وباتخاذ ورد من كتب القوم لمطالعة والتعبد به في الخلوات (4) .

أفكاره :

ولعلنا إذا ما وقفنا على مقتطفات من رسالته التي توجه بها إلى من لم يسهم من بعض الإخوان ، والمسماة بالنصيحة المباركة ، قد نتمكن

(1) طلمة المشتري : ج 1 . ص 295 .

(2) طلمة المشتري : 174 .

(3) الرسالة الأسفية : ص 10 - 13 ؛ رسالة اليوسي إلى من أساء بأبي العباس .

(4) رسالته إلى المراكشي : ص 202 - 207 .

من التعرف إلى كثير من سلوكه الصوفي وما يحمله بين جنبه من آراء وأفكار ونظريات تتعلق بسلوك المريدين وتعريفهم بمنزلة شيوخهم الذين يتسبون إليهم ؛ إذ إنها قد إستوعبت الكثير من توجهاته الصوفية وآرائه حول الشيوخ ورسالاتهم .

فلقد بين فيها أن التصوف ينحصر في العمل الصالح وتقوى الله وعبادته . فهو بذلك عملي لا نظري . أساسه التوبة النصوح ، ثم الإقبال على الله بالطاعة والعبادة ، مشيراً على المريدين بأن « لا يدخل في يد شيخه حتى يعلم أنه على الصراط المستقيم . وذلك بمخالطته أو بشهادة أهل الحق . وحتى يجد له في قلبه مع ذلك نية صالحة ، واعتقاداً وحرمة . فإذا اجتمع له ذلك ودخل في يده لم يبق له معه إلا الإذعان والتسليم والاعتقاد الجميل ، والنظر إليه بعين الرضى في كل شيء ، واستحسان كل ما يبرز منه وإن خالف عقله هو أو خالف العادة . ومتى رأى منه ما يكره جعل له وجهاً من التأويل . فان عجز أحال بالقصور على نفسه ، واعتقد أن له وجهاً حسناً في نفسه . وإذا كان هذا حقه مع سائر الإخوان وسائر المؤمنين ، فكيف مع الشيخ . وليتأدب معه الأدب البالغ . فلا يطمأ سجداته . ولا يجلس في مكانه . ولا يلبس ثوباً لبسه . ولا يتزوج زوجة طلقها أو مات عنها إلى غير ذلك من كل ما يستحسن شرعاً أو عادة ما لم يأمر الشيخ بشيء من ذلك أمراً جازماً فيفعل ، وإلا قدم الأدب على الأمر » (1) .

ولعل اليوسي في هذا الموضوع بالذات قد استقام له أن يتخذ من كمال الأدب الذي يلزم التأسى فيه بما كان للنبي صلى الله عليه وسلم من حرمة الأستاذ الكامل المتوفر على عوامل الاحترام والإكبار والإجلال والتقليد بماله من فضل على أتباعه فيما إستفادوه منه من مصالحهم الدنيوية ومصالحهم الأخروية العائدة عليها ، وهو الأدب الذي يوجب على المنتسب أن لا يقوم بمقتضاه بما يؤذي — من قريب أو من بعيد — الأستاذ الأعظم صلى الله عليه وسلم ومن له به شبه في مهمته التربوية التعليمية التهذيبية .

(1) النصيحة المباركة : ورقة (8-1) وما بعدها .

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى قال في معرض الحديث عن الآداب المفروضة على المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما » (1) . ثم بين مدى توعده الذين يؤذون الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا » (2) .

فلعل اليوسي قد اتخذ من ذلك الكمال الأدبي ما استروحه واستوحاه من قداسية العلاقة القائمة بين المريد وشيخه . فأجرى ذلك الذي ورد التشديد فيه بالنسبة للمؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المريد والشيخ على طريق التورع والتكريم والأولوية ، باعتبار ما في علاقتهما مما يوجب على الثاني في جانب الأول أن ينزل في حقه معه الأمور العادية التي يستحسن الابتعاد عنها مع عامة الناس منزلة الواجبات التي يتحتم عليه مراعاتها وعدم الإخلال بها والابتعاد عن التقصير فيها . فيرى أنه من كمال الأدب وحسن المعاشرة وتقدير الفضل وأهله أولوية تجنب تزوج زوجة الشيخ بعد فراقه لها إلا بإذنه الصريح تطيبا لنفسه ، ومراعاة لرسالته نحو مريده تربية وتوجيها وإرشادا وتعلينا ، على اعتبار أن « كاد المعلم أن يكون رسولا » .

ولهذا نجده في الرسالة نفسها يتوقف بإلحاح أمام مهمة الشيخ التي بها نال هذا التكريم والتقديس والاحترام ، فيعلق هذه المنزلة وما يتبعها من احترام وتعظيم على احترام الشيخ لرسالته وقيامه بها دونما تحريف أو تشويه ، وإلا فهو من الأراذل ومن الشياطين أقرب . يقول اليوسي في حق الشيخ : « ... فاعلموا أن فائدة الشيخ هي الرجوع إلى الله تعالى . فما صحبنا المشائخ إلا ليعرفونا بالله ويردونا إلى الله في كل شيء وإلا أن يقطعونا من كل ما سواه عز وجل حتى عن أنفسهم . فإن الله تعالى هو المعبود وحده لا شريك له . وهو المرجو والمطلوب . ولو قطعونا عن الله وردونا إلى أنفسهم بشيء

(1) سورة الأحزاب : 53 .

(2) سورة الأحزاب : 57 .

زائد على مجرد التوسل بهم إليه كانوا أولى باسم الشيطان من اسم المشايخ ... » (1) .

ومن أجل ذلك يجدر بالمريد أن يتكل على الله ، وإن يعتمد على نفسه للوصول إليه ، وأن لا يعتقد في المشايخ إلا أنهم منارة تهدي الضال ، وترشد في الليل الدامس إلى سواء السبيل . « فإن الشيخ ليست في يده جنة ولا نار ولا دنيا ولا آخرة ، بل هو عبد مملوك كسائر العبيد . وإنما في يده الولاية على الله ، والإرشاد إليه بالتربية أو الهمة وإنما هو بمنزلة الدليل للرفقة والخفير لها حتى تصل . فمن عقد العقدة مع الخفير وإنما عقدها معه ليسير معه . فإن لم يسر وقعد في مكانه فهو لآعب لا تنفعه الخفارة شيئا . وكذا المريد إنما يعرف الشيخ ليدله في طريق الله ويحذر من الشيطان والنفس ... » (2) . ثم هو بعد هذه الجولة يحاول أن يشد المريد وأهل الطريقة والتصوف إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقع منهم إفراط ولا تفريط ، ولا يغالون فيما يفعلون حتى لا يتعلقوا بالبدع ، ولا يسلموا في السنن . فيوصيهم قائلا : « ... وعليكم بالمحافظة على سنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل قول وفعل ، واتباع شمائله وسيرته . فإنها سفينة النجاة » (3) .

وقد يكون من المفيد حقا في خاتمة هذا الفصل أن نثبت بعض الفقرات التي جاءت في وصيته لأولاده بعد وفاته . ففيها ما يميل بنا إلى الظن بأن الرجل كان لا يتخذ من زاويته التي أقامها بنفسه في أخريات حياته مركزا لتعليم العلوم وتلقينها وللاشتغال بالمعرفة فحسب ، وإنما هي - زيادة على ذلك - مقام صوفي قد جمع بين طرفي الشريعة والحقيقة لا يتعد كثيرا عن زوايا الطريقة المنتشرة داخل البلاد المغربية في عصره . حيث إننا نجد

(1) النصيحة المباركة : 9 - ب وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق : 9 - ب وما بعدها .

(3) نفس المصدر السابق .

في هذه الفقرات يتعرض إلى أربعة أمور هامة توضح شخصية الرجل الصوفية ، وموقفه من المشيخة والفتوحات الواردة ، والمعنى الذي يعطيه لمفهوم الزاوية ، وموقفه من إطعام الطعام بها . وهو الرأي الذي عرضه اليوسي علينا في كتابه المحاضرات في حديث عام قد جمع فيه الجوانب الشرعية والصوفية في حق هذا الإطعام وما يراه الناس في حقه بالنسبة للزوايا .

أما الأمر الأول فهو الذي يعطينا فكرة على اليوسي كشيخ من شيوخ الزوايا ، يوكل أمر زاويته من بعده إلى أكبر أبنائه سناً إلا إذا تبينت خصوصية من الله تعالى وفضيلة في الأصغر منهم ، وأن يكون سلوكهم آنئذ محصوراً في الاجتهاد في طاعة الله وشكره تعالى على ما أنعم عليهم من إقامة الزاوية على أيديهم ، وأن يطعموا الطعام ، وأن لا يأكلوا مما يجمع من الأرزاق بذلك المكان إلا بقدر الحاجة (1) .

وأما الأمر الثاني ، وهو المتعلق بالفتوحات والصدقات التي ترد على الزاوية ، فقد أشعر أولاده بأن هذه الأموال ليست لهم ، وإنما هي مرصدة في سبيل الله « ومتى استقامت الزاوية فليصرف فيها جميع ما كان من الصدقات في أيدينا من اليوم وما لم يزل في أيدي الناس . فكل ذلك في سبيل الله لا يحل لأحد أن يأخذه إرثاً بتملكه لنفسه ولا يدخره لنفسه ولا لعياله . وإنما ذلك مرصد للانفاق في سبيل الله » (2) .

وأما الأمر الثالث فإنه قد جاء ذكره في معرض تحريضه لأبنائه على التخلي عن الزاوية إذا لم تستقم لهم ولا لأحد منهم قائلًا في حقهم على طريق الجزم والأمر : « فليسلموا الأمر لله تعالى . وليعلموا أن الزاوية لا حقيقة لها شرعاً ولا ذكر لها ، وإنما لفظة محدثة ومعناها مركب من أمرين : أحدهما التفرغ لعبادة الله ، ويكون ذلك بالهرب من التشاغل بالدنيا وأسباب المعاش والانكماش في الخلوة أو في ركن بيت أو في

(1) وصية اليوسي : ص 255 وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق : ص 268 .

مسجد للاشتغال بذكر الله والإقبال عليه . وبهذا - والله أعلم - سميت زاوية ، لأن الركن يسمى زاوية . الثاني إطعام الطعام ، وهو في عادة المتأخرين ، ويرجع معناه إلى إكرام الضيف ... وإذا كانت راجعة إلى هذه الأمور فالعبد مأمور بعبادة الله . فليعبد ربه حيث كان ... » (1) .

وبهذا الأمر الثاني يكون اليوسي قد تعرض إلى رابع الأمور التي تناولها هو في وصيته تلك ، والتي تهمننا في موضوع تصوف الرجل منها بالخصوص (2) .

الخاتمة :

وهكذا تبدو حياة اليوسي الصوفية حياة العابد الناسك المؤمن الصادق الذي لا يحيد عن الكتاب والسنة ، والذي يوصي نفسه وكل من يتصل به وله منه انتساب أن يسير في حياته كلها على السنن السني السلفي بعيدا عن الخوض في الشبهات مبتعدا عن الاشتغال بالمهمات والآثارات والألغاز ، منصرفا فيما يظهر عن المجالات النظرية الكلامية التي لا تخلو من التعقيد والغموض ، سائرا في طريقه على سنن أهل الطرق والزوايا المنتشرة في بلاده ، يمثل عصره في هذا الميدان بالخصوص تمثيلا كاملا معالما متفرغا ، قانعا زاهدا ، وصابرا متسككا ، يعتمد على الله ، لا يخشى غيره ولا يرى فضلا عليه لأحد إلا له سبحانه وتعالى إيماننا به كاملا منه إليه ، وانصرافا عن كل ما يشغله عنه في إقباله عليه .

(1) نفس المصدر السابق : ص 268 وما بعدها .

(2) الرجوع إلى كامل وصية اليوسي مهم جدا : ص 265 - 279 .

ثبت المصادر

القرآن الكريم

ابن الحاج الفاسي ، أبو عبد الله
محمد العبدري : المدخل ، الطبعة الأولى ، 1929/0000 ،
4 أجزاء .

بن منظور ، أبو الفضل جمال
الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار الفكر ، بيروت
1954/1374 .

الأفراني المراكشي ، محمد
الصغير ابن محمد بن عبد الله : صفوة من انتشر ، طبعة حجرية فاسية ،
جزء واحد .
حجبي ، محمد : الزاوية الدلائلية ، 1964/1384 ، بالرباط
جزء واحد .

الحضيكبي ، أبو عبد الله محمد
ابن أحمد : طبقات ومناقب الحضيكبي ، مخطوط
الخزانة العامة بالرباط ، (د. 1123)،
طبع في جزئين بالدار البيضاء .

الدوعي محمد بن موسى بن محمد : الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة ،
مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ك. 265 .

الزيادي ، محمد بن علي الحسيني : دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب
الشيخ علي بن عبد الرحمان ، مخ .
الخزانة العامة ، ق 390 ، الرباط .

الزركلي ، خير الدين :
الأعلام ، قاموس تراجم ، 10 أجزاء ،
ط 2 .

- الزياني ، أبو القاسم :
الترجمة الكبرى ، تحقيق عبد الكريم
الفيلاي ، 1383/2967 ، جزء واحد .
- السوسي ، محمد المختار :
إيليج قديما وحديثا ، مط . ملكية
بالرباط . 1386/1966 ، جزء واحد .
- السوسي . محمد المختار :
سوس العالمية ، المغرب ، 1380/1960 ،
جزء واحد .
- العلوي ، عبد الرحمان بن زيدان : المتزح اللطيف في مفاخر مولانا إسماعيل
ابن الشريف ، مخ الخزانة العامة ح 595 .
المسألة المغربية . معهد الدراسات العربية ،
1961 ، جزء واحد .
- القادري ، محمد بن الطيب :
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر
والثاني ، المطبعة الحجرية بفاس ،
1310/1892 ، جزآن .
- القادري ، محمد بن الطيب :
التقاط الدور ومستفاد المواعظ والعبر
من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية
عشر ، مخ . الخزانة العامة رباط د 676 .
- الكتاني . عبد الحفي :
فهرس الفهارس والإثبات ومعجم
المعاجم والمشيعخات ، فاس ، 1347 .
جزآن .
- الكلالي الحسني ، أبو عبد الله محمد
ابن عبد القادر :
: الدر المنضد الفاخر في ما لأبناء مولانا
علي الشريف من المحاسن والمفاخر ،
مخ الخزانة العامة ، رباط 1584 .
مجلد واحد .
- كنون ، عبد الله :
النبوغ المغربي ، الطبعة الثانية ، بيروت
1961 ، ثلاثة أجزاء .

المنيف . عبد الحميد محمد : تقديم وتحقيق ديوان أبي علي اليوسي ،
رسالة دكتوراه .

الناصرى السلاوي ، أحمد ابن
خالد : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ،
الدار البيضاء ، 1954 ، 9 أجزاء

الناصرى السلاوي ، أحمد ابن خالد : طلعة المشتري في النسب الجعفري ،
المطبعة الحجرية بفاس ، جزآن في
مجلد واحد .

النوي ، محيي الدين :
رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ،
الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مجلد واحد .

الهشتوكي الجزولي ، أحمد ابن
محمد بن داود : رحلة الجزولي ، مخ . الخزانة العامة
بالرباط ، ق 147 .

الهشتوكي الجزولي ، أحمد ابن
محمد بن داود : هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام ،
مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 170 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : المحاضرات ، المطبعة البهية بفاس ،
1317 . مجلد واحد .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الفهرست ، مخ . الخزانة العامة بالرباط
ق 1838 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة للرد على المولى إسماعيل ، مخ .
الخزانة العامة بالرباط . ج 849 .

اليوسي . أبو علي الحسن بن مسعود : الديوان تحقيق عبد الحميد محمد المنيف .
رسالة دكتوراه .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الرحلة ، مخ . خزانة عباس ابن
إبراهيم ، المغرب .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : براءة اليوسي إلى المولى إسماعيل ، مخ .
خزانة القصر الملكي بالرباط . 676 5 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : تقييد حول العكاكرة ، مخ . الخزانة
العامة بالرباط ، ك 1224 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : أجوبة اليوسي ، مخ . الخزانة العامة
بالرباط ، ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : مشرب العام والخاص من كلمة
الإخلاص ، تصحيح عبد الرحمان ابن
جعفر الكتاني ، المطبعة الحجرية بفاس .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الدلالة الوافية في الرسالة الآسفية ، مخ .
الخزانة الملكية بالرباط ، 7704 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة إلى من أسماه في شعره بأبي
العباس ، مخ . الخزانة الملكية بالرباط ،
7704 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة إلى المراكشي ، مخ . الخزانة
العامة بالرباط ، ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : النصيحة المباركة ، مخ . الخزانة العامة
بالرباط ، الجزء الأول ؛ ج 612 .
الجزء الثاني ؛ ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : وصية اليوسي ، مخ . الخزانة العامة
بالرباط ، ق 950 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : ندب الملوك إلى العدل ، مخ . الخزانة
العامة بالرباط ، ق 364 .

المجلات

- مجلة البحث العلمي : السنة الثالثة ، العدد السابع ، 85—1386 / 1966 ، الرباط .
- مجلة البيئة المغربية : السنة الأولى ، العدد : 2،4،6،7، 81—1382 / 1962 .
- مجلة تطوان : عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لجلوس المولى إسماعيل على العرش المغربي .
- مجلة دعوة الحق : السنة السابعة ، العدد الثالث ، 1383 / 1963 ، الرباط .
- مجلة دعوة الحق : السنة العاشرة ، العدد الرابع ، 1386 / 1967 ، الرباط .
- مجلة رسالة المغرب : العدد 134 ، 1371 / 1951 .

المراجع الأجنبية

Jacques Berque, Al Youssi, problèmes de la culture marocaine au XVII^e siècle, (Paris 1958).